مِيلادُ الدَّوْلَةِ الإِسْلامِيَّةِ

مِن الاستيلاء على مَكَةَ إلى نهاية حروبِ الرَّدةَ

The Birth Of Islamic State

From Capture of Mecca until the End of Wars of Apostasy

مالك مسلماني

Malek Meselmany

www.muhammadanism.org
November 30, 2011
Arabic

ميلاد الدولة الإسلامية

- ميلاد الدولة الإسلامية
- المؤلف : مالك مسلماني
- الطبعة الأولى ٢٠٠١

- جميع الحقوق محفوظة للناشر

- الناشر : دار الحوار للنشر و التوزيع
سورية ـ اللاذقية ـ ص.ب: ١٠١٨ . تلفاكس: ٤٢٢٣٣٩ .
البريد الإلكتروني: soleman@scs-net.org

مالك مسلماني

ميلادُ الدَّوْلَةِ الإِسْلامِيَّةِ

مِن الاستيلاء على مَكَةَ إلى نهاية حروبِ الرِّدة

دار الحوار

لحَنِينِ غَدٍ لَنْ يأتي يَتَمَلَّكَني فِي اللَّيالي المُظْلِمات ،
و أنا أعدّ فيهنّ أيّام العُمْرِ الآفلات

[Blank Page]

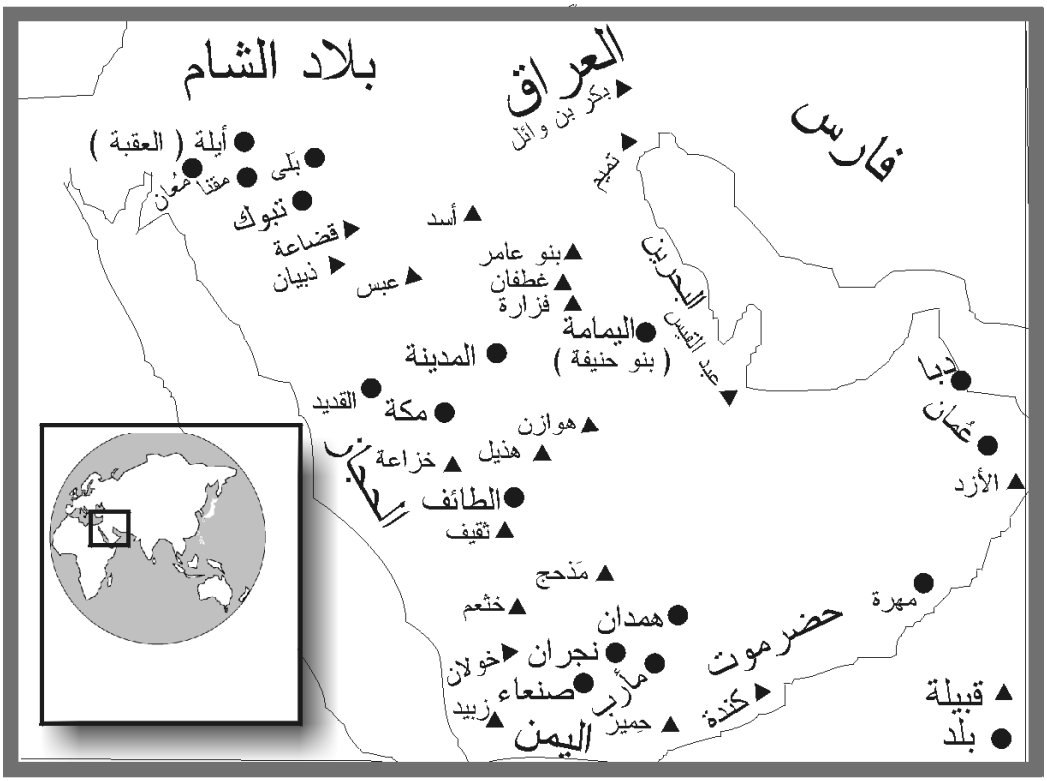

الجزيرة العربية عشية ميلاد الدولة الإسلامية

[Blank Page]

مُقَدّمَة

على الرَّغْمِ مِنْ أنّ مُحَمَّداً تمكّن في سنواته الأخيرة من تأسيس قاعدة متينة في يثربَ لحركته الإسْلاميّة ، إلاّ أنّها لم تكن قد حازت بعد على العناصر الكافيّة الَّتِي تسمح لها بأنْ تكون قاعدةَ دولةٍ عشيّة وفاته ؛ فلقد انتزع مُحَمَّدٌ اعتراف القبائل البَدَوِيّة الضاربة حول حواضر الحِجَاز الثلاثة (مكّة ، الطائف ، يثرب) بسُلْطته ، فكان يجمع هذه التكوينات الاجتماعيّة (القَبَليّة ، و الحضريّة) بواسطة القوة المعنويّة الَّتِي كان يتمتع بها كنبيٍّ مسلّح ، و قائدٍ لحركةٍ قويةٍ و ضاربةٍ ، تربط بين أعضائها مصالح دنيويّة مؤسَّسة على قاعدةِ الإيمانِ الدينيّ .

كانت الحركة الإسْلاميّة تبدو في عيون البدو قبيلةً قويةً ، و خطيرةً . و إذ رأى سكان الجزيرة العربيّة - و تحديداً الحِجَاز - في مُحَمَّدٍ زعيماً قَبَليّاً فإنّهم لم يترددوا في السَّنَة التّاسِعة للهجرة (٦٣١ م) بالقدوم عليه تِباعاً من أجل الحصول على العطايا و الجوائز ، وإذا أمكن تلقي الدعم في صراع داخل - قَبَليّ ، لكنَّ سُلْطةَ مُحَمَّدٍ لم تبلغ سُلْطة مَلِكٍ ، و لم يكن يُنظر إليه كمَلِكٍ ، كما لم تكن هيبته وَسْط القبائل العَرَبيّة تعود لكونه نبيّاً كما قد يتراءى ، بل إنّ مسألة كونه نبيّاً لم تكن تعني شيئاً حَتَّى بالنسبة لمجموعات سِيَاسِيّة (قَبَليّة) داخل المدينة ، الَّذِين كانوا يُعرفون **بالمنافقين** ، فكيف الأمر بالنسبة للقبائل البَدَوِيّة الوثنيّة ، الَّتِي ترفض الرضوخ لأيِّ سلطة خارجية قهريّة .

كانت هيبة مُحَمَّدٍ تنبع بالمقام الأوّل من نجاح استراتيجيّات الحركة الإسْلاميّة الَّتِي كان يشرف على إدارتها . إنّ فاعليته السِيَاسِيّة ، و حضوره العسكريّ هما ما منحاه الهيبة عند قبائل الجزيرة العربيّة ، و عندما غادر نبيُّ الإسلامِ العَالَم الأرضيّ لم يكن قد أسَّس دولةً بعد ، فترك مهمة بناء الدولة لخلفائه ، الَّذِين لم يتأخروا عن الدخول في حروب داميةٍ مع القبائل العربيَّة في الجزيرة العربيَّة ،و الَّتِي صارت

تُسمى في المصادر الإسلامية **حروب الرِّدة** ، و بعد الانتهاء من هذه المرحلة تحركت الجيوش الإِسْلاميّة نحو العراق بقيادة خالد بن الوليد ، و بهذا التحرك انطلقت حركة الفتوحات الَّتِي توسعت في سنة ١٢ ، أو ١٣ هـ (ح ٦٣٤ م) ، عندما شرعت جيوش المسلمين بالتوجه صوب بلاد الشّام حسب أوامر أَبِي بَكْر ، و في هذه المرحلة يمكن تعيين زمن انتهاء عملية ميلاد الدّوْلَة الإِسْلاميّة ، الَّتِي استغرقت مدة خلافة أَبِي بَكْر (حوالي السنتين و بضعة أشهر)، بينا استغرقت عملية بناء الدّوْلَة فترةً أطول ، ففي عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب تكون الهيكل العام لهذه الدّوْلَة ، و يمكن أنْ نعتبر أنّ هذه السيرورة التَّارِيْخية قد قاربت على الاكتمال في فترة حكم عُمَرَ ، ففي عهده وُجد السجن ، و الشرطة ، و هي أدوات أساسيّة لتكامل جهاز الدّوْلَة ؛ و أقدم حالة أعرفها هي حالة معن بن زائدة الَّذِي كان زيّف خاتم الخِلافَة ، و قام باستغلال الخاتم المُزيّف ، و قد زُجّ به بالسجن في الكوفة قبل أنْ يُنقل إلى المدينة و هناك أيضاً سجنه عُمَرُ .[١]

مع أنّنا نقدر صعوبة تحديد اللّحظة الَّتِي بدأت فيها العملية التّارِيْخيّة لميلاد الدولة الإِسْلاميّة ؛ لأنّها سيرورة تَارِيْخيّة ، و عمليات البناء في التاريخ تكون نتيجة حركات مترابطة و متعاقبة بنواحٍ معينة ، و متفاعلة بنواحٍ أخرى ؛ إلاّ أنَّ هذا الكتابَ يبدأ من السنة الثامنة للهجرة (٦٣٠ م) ، ففي هذه السنة نجد أنّ الحركة الإِسلاميّة بقيادة مُحَمّدٍ قد حازت على عناصر قوة واضحة ، تسمح هذه العناصر بتأسيس الدَّوْلَة ، و كما قلنا أعلاه فإنّ سيرورة ميلاد الدولة الإِسْلامية استغرقت مدة خِلافَة أَبِي بَكْر كلها ، أما سيرورة اكتمالها فإنّها أخذت مرحلة زمنيةً أطول ، و الكتاب يقف عند مرحلة ميلاد الدولة ، أما المراحل الأخرى لها : مراحل الاكتمال ، ثم الانهيار ، فتحتاج إلى دراسات مستقلة .

إنّ الشخصية الكبرى في المرحلة قيد البحث هي شخصية أبي بَكْر ، و الذي يعود انتصاره لاحقاً إلى قدرته على التمييز بين الجانب الدينيّ (أو السّمَة النَبَوِيّةَ الظاهريّة) ، و الجانب السِيَاسِيّ (أو الفحوى الاجتماعيّ لحركة الإِسْلام) في ممارسات الحركة الإِسلاميّة في عهد مُحَمَّدٍ ، و اتباعه منهجاً سِيَاسِيّاً عسكريّاً

---

[١] فُتُوح البُلدَان ، أبي الحسن البلاذري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩١ م ، ص ٤٤٨ ـ ٤٤٩ .

(دنيويّاً) محضاً من أجل تحقيق أهداف الحركة الإسْلاميّة ، و إنْ كان قد أطّر مسلكه في إطارٍ دينيٍّ ؛ و لهذا اقترن الدِّين بالسِيَاسِة في ممارسة قادة الإسْلام الأوائل .

إنّ مبدأ اقتران الدَّوْلَة بالدين في الفكر الإسْلاميّ يعود إلى تاريخ نشأة الإسْلام ، فقد كان مُحَمَّدٌ يمارس في مكّة نشاطاً دعويّاً في مجتمع لا يملك دَوْلةً ، و أشكال السُلْطَة فيه لم ترتقِ لمستوى سُلْطة دَوْلةٍ ، و لا حَتَّى سُلْطَة دَوْلةٍ في طور النشوء ؛ لقد ظلّ مُحَمَّدٌ يبشر بالإسْلام في مكّة بغياب أيّة سُلْطةٍ تقمع تحركه ، و كلّ ما واجهه فيها هو رفض بطون قريش له ، و كان بوسعه متابعة نشاطه التبشيريّ دون خشيةٍ مِنْ أحدٍ ، لكنّه اضطر للهجرة بسبب من صعوبة التبشير في مكّةَ ، و في نهاية مرحلة حياته في يثربَ ـ مَهْجَرِه ـ تمكّن من إنشاءِ مجتمع ذي تماسكٍ نسبيٍّ خاضع لقيادته فيما يخص العلاقات الخارجيّة ، فكان يصدر الأوامر بشنِّ الغارات ، و القيام بالحملات العسكريّة ، و غداة عقد هدنة الحُدَيبِيَة (٦ هـ / ٦٢٨ م) مع قريشٍ بدأت ملامح الجهاز السِّيَاسِيّ ليثرب الإسْلاميّة بالتكّون في شخص الصحابة الَّذِين كانوا يديرون الحركة الإسْلاميّة ، و يخضعون بشكلٍ ما لسلطة مُحَمَّدٍ . كان هذا الجهاز السِيَاسِيّ ـ العسكريّ جنيناً لِلْدَوْلَة الَّتِي ستنبثق فيما بعد بفضل نضال خلفائه . ولهذا اقترن الإسْلام بالسّيَاسةِ و بتكوين دولة منذ البدء ، و هذا خلافاً للمسيحيّة الَّتِي نشأت في مجتمعٍ كان يُحكم من قِبل دولةٍ مركزيةٍ ، تملك كلَّ أجهزة الدّوْلَة ؛ فاكتفى يسوع المسيح بالنشاط الدينيّ الخالص ، و الَّذِي آثر تجنّب الاحتكاك بالدّوْلَة الرومانيّة . أما بالنسبة لِمُحَمَّدٍ و خلفائه فإنّهم واجهوا مخاضات اجتماعيّة ، و تطور اجتماسيّ يتجه نحو تكوين دَوْلة ، و لم يكونوا يملكون خيارات أخرى ، لا خوفاً من أنْ يبتعد عنهم الواقع إذ لم يجاروه ، بل بوصفهم جزءاً من واقعهم ، و إفرازاً له ، و كون الإسْلام إيديولوجيا نهوض الجزيرَة العربيّة .

هذه الاعتبارات العامة تسمح لنا بأنْ نجد شعار **" الإسْلام دين و دولة "** قد مُورس على أرض الواقع الفعليّ ، لكنّ رافعي هذا الشعار المعاصرين لا يريدون إدراك حقائق الحركة التَّارِيْخيّة ، فيحوّلون اللَّحظةَ التَّارِيْخيّةَ أبديةً تاريخيّةً ، و نتاجَ الواقعِ الزمنيّ المحدد قاعدةً لكلِّ زمانٍ في التَّارِيْخ المتحرك ، و بهذا يصبح الحاضرُ لحظةً تجسّد الماضي ، لا لحظة تستوعبه و تتجاوزه ، فيجعل حاملو هذا الشّعار الحاضرَ غيرَ معاصرٍ لنا . و لا يعود نجاحَ هؤلاء دُعاةِ العودة إلى الأصول إلى قوة الأيديولوجيا الدينيّة ، بل راجعٌ إلى غياب الحداثة في البنيّة

العَرَبيّة و الإسْلاميّة ، و وجود مفارقة مؤلمة في حاضرنا ، و هي إننا محكوم علينا أنْ نعيش في عالميْن ، عالم اليوم ، الَّذِي لا نمتّ إليه إلا جسديّاً ، و حيث لا نحوز على الفعاليّة الحضاريّة (العِلْم ، و الثّقافة ، و التقنيّة) ، و عالم الأمس ، الَّذِي نعيشه بكليتنا ، و حيث نرى في نموذجه المستقبلَ المنشودَ ، و هذا الموقف من التَّارِيْخ يكشف حجم المسافة الَّتِي تفصلنا عن الإنسان الحديث ، الَّذِي يعتبر نفسَه محصّلةً لمجرى التَّارِيْخ العام ، و لهذا فهو لا يشعر بأنّه مضطر إلى التّعرفِ على ذلك التَّارِيْخ في مجمله ، في حين أنّ إنسانَ مجتمعات الزمن القديم يُلزم نفسه استحضار جانبٍ كبيرٍ جداً من ذلك التَّارِيْخ ، و على منحه الراهنيّة .[٢]

إنّ كلَّ من يرفع هذا الشّعار (الإسْلامُ دينٌ و دولةٌ) يفصل الإسْلام عن تاريخه ، ويحنّط بنيته الحيّة ، عندما يرفض النظر إليه في كُلِّيّته ، و صيرورته . و لهذا فإنّنا نجد أنّ كلَّ بحثٍ عن التّقدّم الاجتماعيّ بمساءلة الماضي ، و استنطاق نصوصه بما ليس فيها ، واستحضاره إلى الحاضر تكشف عن ذهنيّة لاتاريخيّة ، و نزعة ماضويّة ، تشيران إلى قوة العقليّة الأسطوريّة ، حَتَّى و إنْ ارتدت رداء التّقدّم ، و إنْ كان المؤدلجون لها يساريّين أيضاً ؛ و بنفس الوقت يميط اللثام عن المأزق الحاد الَّذِي يعيشه الفكر العَرَبيّ ((التّقدميّ)) في محاولة تأصيل قيم ((حداثة)) بعقليّة لاحداثيّة ، و في زمنٍ عربيٍّ لاحداثيٍّ . إنّ حدثنة الحاضر بالنسبة لهذه النّزعة (سواءٌ كانت يساريّةً ، أم أصوليةً دينيَّةً أو قوميّةً) تتم عبر آليات المجتمعات الغابرة ، الَّتِي ترى أنّ خلقَ الحياةِ خلقاً جديداً ، يتمّ عن طريق الرّجوع إلى الينابيع . والينبوع الممتاز إلى أبعدِ الحدودِ ، يتمثّل في التفجّر العجيب للطّاقة ، و الحياة ، و الخصب الَّذِي تمّ عند خلق العالم ،[٣] و بهذا يشترك أصحاب هذه النّزعة ((التّقدميّة)) مع دعاة العودة للأصول من الإسْلاميّين و القوميّين ، حيث ينظرون للمستقبل المأمول كتجسيدٍ للماضي الذّهبيّ، ويخفون حنيناً إلى **الأصول** ، و هو حنينٌ دينيٌّ في جوهره ، يريد به الإنسان استعادة الحضور الفعّال للآلهة ، كذلك يريد أنْ يحيا في العالم غضّاً ، نقيّاً ، مثلما خرج على يد الخالق .[٤] إنّ الماضي يُستوعب ، و يُتجاوز ، و لا يجوز أنْ يبقى فاعلاً في الحاضر ، إنّ حضور الماضي في الحاضر هو في بنيته المتكوّنة ، و ليس في بنيته

---

[٢] ملامح من الأُسْطُوْرَةِ ، ميرسيا ايلياد ، ترجمة حسيب كاسوحة ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٩٥، ص ٢٠.
[٣] ملامح من الأُسْطُوْرَةِ ، ٤٢ .
[٤] المُقَدّس و الدّنْيَوِيّ ، مرسيا إلياد ، ترجمة : نهاد خياطة ، دار العربي ، دمشق ، ١٩٨٧ ، ص ٨٨ .

الَّتِي تتكوّن الآن . لكنْ حدثنة الحاضرِ بالماضي صارت بديلاً عن حدثنة الحاضر بالحاضر ، و عوضاً عن مقاتلة العدو الحقيقيّ صرنا نقاتل طواحين الهواء على طريقة دون كيخوت ، وبدلاً من السيطرة على الزمان الجاريّ ، تماهينا بالزمن المثاليّ السحيق ، و عاصرناه من أجل أن تتاح لنا إمكانيّة التخلّي عن مسئوليتنا في معاصرة زماننا . قد لا يسعنا تحميل أحدٍ بعينه مسئولية الفكر ذي الطبيعة الارتدادية بشقيه « العلمانيّ » و السّلفيّ ؛ فإذا كان الإنسان المعاصر في الغرب لم يفلح في القضاء على المسلك الدينيّ على الرَّغْمِ مِنْ الدرجة الَّتِي بلغتها عملية نزع القدسيّة عن العالم[٥] في ثقافته ، فكيف بإنسانٍ يعيش في بنية ثقافيّة ـ اجتماعيّة ـ سِيَاسِيّة ـ اقتصاديّة متقادمة ، لم تتمكن من تجاوز نفسها ، و لم تمت لتفسح المجال للجديدِ ، كيف لهذا الإنسان ـ المفكر اليساريّ ، و العلمانيّ أن ينتج ثقافةً تتجاوز أطره ؟ و كيف لنا أن نرى وَعْياً بالمستقبل إذا كانت البنية الفكريّة اليساريّة و القوميّة و الأصوليّة ضاربةً جذورها في تربة واحدةٍ ، و منها تتحدد أسُسها ، و نشأتها ، و من خلال آلياتها يتم بناء آليات التفكير عند ممثلي هذه التيارات الفكريّة العربيّة . إنَّ التماثل البنيوي للفكر العربيّ بأشكاله المتباينة يسمح لنا بسهولة باكتشاف وحدة منشئه .

في الختام أتوجه بالشكر إلى المفكر الدكتور عبد الرّزاق عيد ، الَّذِي قرأ مخطوطة الكتاب ، و أبدى الملاحظات الضّرُوْريّة من أجل تحسين العمل ، كما يتوجب عليّ الإعراب هنا عن شعور العرفان تجاه رجلٍ غادرنا منذ سنوات : هادي العلويّ ، و الَّذِي لطالما شجّعَني على الاستمرار ، بما كان يملك من تفاؤلٍ كبيرٍ ، و ثقةٍ شديدةٍ بالمستقبل ، و برحيله بقيت جوانحي تحتضن مودةً عميقةً لمثقفٍ مثاليٍّ بكلِّ أبعاد هذه الكلمة ، لكنّ هذه الذّكرى غير مشفوعةٍ بشيءٍ من تفاؤلِه ، و ثقتِه ؛ لأنّ الأفق لا يبشّر بمستقبل مشرق للبشريّة ، أو على الأقلّ أفق العَالَم العربيّ ، و مع ذلك ليس لنا أنْ نستسلم لانفلات قوى الشَّرّ و العدوان ، بل يجب أن نقاومها مدفوعين **بإرادة التَّحدّي** .

حلب ـ خريف ٢٠٠٠

---

[٥] المُقَدّس و الدَنْيَوِيّ ، ٢٥ .

[Blank Page]

سنوات مُحَمّدٍ الأخيرة

سنة ثمان للهجرة

في السّنَة الثامنة للهجرة (٦٣٠ م) تبدى جبروت الحركة الإسْلاميّة في الجَزِيْرة العَرَبِيّة بعدما صارت قوةً لا يُستهان بها في الحِجَاز ، و ظهر تفوقها بسبب من تمكن مُحَمّدٌ من تأسيس مجتمعٍ قائم على أيديولوجيا دينيّة . كان أكثر ما يميّز يثرب أنّ زعيماً واحداً ـ مُحَمّداً كان يقودُ الحرَكة الإسْلاميّة و جهازها العسكريّ ، تعضده نخبةٌ سياسِيّةٌ منسجمةٌ مع توجهاته ؛ و بالمحصلة صارت المدينة تمتع بأفضلياتٍ ملحوظةٍ على بقية مدن و قبائل الجَزِيْرة العَرَبِيّة . آنذاك كانت المدينة تحمل في أحشائها الحِجَازية اللاهبة جنين الدّوْلَة الإسْلاميّة .

إلى الجنوب ـ الغربي من المدينة ، كان المَكّيّون ـ أعداء مُحَمَّدٍ الألِدّاء ـ يشعرون بعد عقد صلح الحُدَيبِيَة (٦ هـ / ٦٢٨ م) بأنّ مدنيتهم محكومٌ عليها بالإعدام ، و إذ أراد الجيلُ القديمُ الاستمرار في مناوئة مُحَمّدٍ ، فإنّ شبابَ قُرَيْش توصل إلى قناعةٍ أنّه لا مستقبل لهم في مكّة[١] بعدما رأوا كيف أنّ الحركة الإسْلاميّة بدأت تغزل خيوط فجرها ، و ما إنْ تنجز عملها حَتّى تبزغ دولتهم ساطعةً على الجَزِيْرة العَرَبِيّة . كان هؤلاء المَكّيّون الشباب يرون أن حينه قد أزِفَ ، و أن مكّة آيلة للخراب إذا أصرت على الصدام مع الحركة الإسْلاميّة حَتّى النهاية ، لاسيما بعدما فشل القرشيون في المحافظة على الائتلاف في حرب الأحزاب (الخَنْدق) (ذو القعدة ، ٥ هـ / آذار (مارس) ٦٢٧ م) ، مما حول النصرَ المحتملَ إلى هزيمةٍ مخزيةٍ للمَكّيّين ، و زاد من ألم الهزيمة موافقة قُرَيْش في السّنَة التالية على عقد صلح الحُدَيبِيَة مع مُحَمّدٍ مما كان يعني بأن قُرَيْشاً لم تعد تعامل مُحَمّداً كمنشقٍ عنها ، بل تحاورت معه كندٍ لها ، و أُجبرت في المعاهدة على

---

[١] محمّد في المدينَة، مونتجومري وات، ترجمة: شعبان بركات، منشورات المكتبة العصريّة ـ صيْدا ـ بيروت ـ د. ت.، ص ٨٨ .

الإقرار بأنه كُفْوءٌ لزعامات مكّة ؛ صار بادياً في عيون القرشيين أنّ مُحَمّداً سيبز زعامات قومه قريباً .

ظهر إدراك النخبة القرشيّة الشابة لدور الإسْلام المقبل جلياً بحدس عَمْرِو بن العاص الَّذِي رأى ببصيرته أن أمر مُحَمّدٍ يعلو ، فقرر في السنة الثامنة هجريّة (٦٣٠ م) التوجه هو، و خالد بن الوليد ، و عثمان بن طلحة إلى المدينة حيث أعلنوا إسْلامهم[٢] و يبدو أنّ مُحَمَّداً كان يدرك طبيعة الحوار الداخلي في مكّة بصدد الحركة الإسْلاميّة ، فسعى لضم النخب الشابة، الميالة للاتفاق معه ، إذ تفيد الرّوايَات بأنّه قال ذات مرة : ((لو كان جعل نكايته ـ أي خالد بن الوليد ـ و جَدّه مع المسلمين على المشركين لكان خيراً له و لقدّمناه على غيره)) [٣] ، من الواضح أنّ هذا لم يكن كلاماً عابراً في جلسات السمر بل رسالة موجهة إلى خالد مع مبعوث ما ، فشجع خالداً على إعلان الإسْلام بعدما وصلته الرسالة .

غزوة مُؤتَة

(جمادى الأولى / أيلول (سبتمبر) ٦٢٩ م)

مُحَمّدٌ ، الَّذِي كان يتلمس قوته و قوة مدينته الصاعدة صار يشعر بوصفه قائداً لمجتمع جديد بجسامة مسئوليته في توفير مصادر الدخل لهذا المجتمع ، فقرر أن يختبر إمكانية شن غزوات على تخوم الشّام ، فبعث حَمْلَة مؤلّفةً من ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة زَيْدَ بنَ حَارِثة إلى مُؤتَة في جُمادى الأولى من سنة ثمانٍ . و عندما وصلت الحَمْلَة مُعان من أرض الشّام ، تناهى إلى أسماع قادة الحَمْلَة بأن قوات الروم تحتشد ، بقيادة هرقل في مَآب في منطقة البلْقَاء (قرب دمشق) ، و أنه انضمت إليهم قوات عربيّة من حلفاء الروم من لَخْم و جُذام و بلقَيْن ، و بَهْراء ، و بَلِيّ .

التقت القوتان بمَشَارِف ، و هي من قرى الشّام ، ثم تراجع المسلمون إلى قرية يقال لها مُؤتَة ؛ و فيها قُتل القادة المعيّنون من قبل مُحَمَّدٍ : زَيْدُ بن حَارِثة ، جَعْفرُ

---

[٢] تاريخ الأمم و الملوك (تاريخ الطبري) ، محمد بن جرير الطبري ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، م ٢ / ص ١٤٥ ؛ الكامل في التاريخ ، ابن الأثير ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م ، م ٢ / ص ٢٣١ .

[٣] الطبقات الكبرى ، ابن سعد ، دار صادر ، بيروت ، ١٤٢٨ هـ / ١٩٩٨ م ، م ٧ / ص ٣٩٤ .

بن أبي طالبٍ ، عَبْدُ اللَّه بنُ رَوَاحة . و بعد مقتلهم طُلب من خالد بن الوليد تسلم القيادة ، فأمر المقاتلين بالانسحاب من المعركة . و قد برر المؤرخون هذه الهزيمة بكثرة عدد جيش العدو الَّذِي بلغ حسب الطبريّ مئة ألف مقاتل ، و في الحقيقة ليس واضحاً حجم القوة العسكرية المناوئة ، و لا يمكن قبول التفصيل بأنّ الروم كانوا مستعدين لمواجهة هذه الحَمْلَة و على أعلى المستويات ، لا شك إنّ الصّدام الَّذِي جرى كان مع حامية رومانيّة ليس إلاّ ، و أحداث الفتوحات أثبتت أنّ البيزنطيّين كانوا غافلين عن مجريات الأحداث في الجَزِيْرة العَرَبِيّة ، و لم يكونوا يحسبون حساباً لخروج حَمْلَة منظمة ضدهم منها ؛ و بقية الرِّوايّة نفسها تكشف المبالغة في عدد قوات الأعداء ، إذ لما عاد جيش المسلمين للمدينة شرع الناس يحثون على الجيش التراب ، و يقولون : ((يا فرّار في سبيل اللَّه)) ، لكن مُحَمَّداً رفض التقليل من شأنهم و كي لا يؤثر على معنويات مقاتليه ، فقال : ((ليسوا بالفرّار ؛ و لكنهم الكرّار ، إن شاء اللَّه !)) .[٤]

لم تحقق هذه الحَمْلَة نصراً عسكريّاً ، كما لم تحصل على أيّة غَنائِم ، لكن أهميتها تنبع من الأهداف المستجدة الَّتِي رسمتها الحركة الجديدة لنفسها ، و انفتاح آفاق واسعة أمامها ، كما ساعدت على تبلور طموح عند قادتها بالتوجه صوب بلاد الشّام . كانت هذه الحَمْلَة الخطوة الأولى في الدرب اللاحق ، درب الفتوحات ، و لم يكن يدرك قادة الحركة الإسْلاميّة أيُّ دربٍ امتد أمامهم مع هذه المحاولة ، و أنهم لأول مرة سيخرجون من دائرة الحِجَاز . و على أي حال لم تخلُ هذه الحَمْلَة من فائدةٍ للمسلمين ، إذ أثمرت شيئيْن ملموسيْن ؛ أولاهما ، دعاية في الحِجَاز لقوة الحركة الإسْلاميّة ، مما ساعد على إعلاء هيبة الإسْلام في الجَزِيْرة العَرَبِيّة ؛ وثانيهما ، اكتساب الوعي بطبيعة القوى اللازمة لتجاوز حدود الجَزِيْرة العَرَبِيّة من أجل اقتحام الشّام أو العراق و فيما بعد سنرى كيف أن أَبَا بَكْر الَّذِي فهم درسها ـ و دروس الحركة عموماً ـ جيداً لم يتجاوز تخوم الجَزِيْرة العَرَبِيّة إلاّ بعد أن أُستكملت شروط هذه العمليّة المَوْضُوعيّة .

---

[٤] تاريخ الطبري : ٢ / ١٤٩ ـ ١٥٢ .

الاسْتِيْلاء على مكّةَ
(٢٠ رمضان ٨ هـ / كانون الثاني (يناير) ٦٣٠ م)

كان وَعْي المَكّيّين يتزايد مع الأيام بأنّ مدينتهم لن تصمد طويلاً أمام قوة الحركة الإسْلاميّة الصاعدة ، و كانوا يتابعون بأسىً كيف كانت مدينتهم تترنح بعد صلح الحُدَيبيَة بسبب عدة عوامل ؛ و أولاهما ، الانهيار المعنويّ الحاصل جراء التحاق بعض الوجوه القرشيّة البارزة (عمرو بن العاص و خالد بن الوليد) ؛ ثانيهما ، إنّ وَضْعَ مكّة المعيشيّ أصبح حرجاً بسبب نجاح مُحَمَّدٍ بقطع إمدادات القمح عنها ، إذ تفيدنا رواية بأنّ ثمامة بن أثال ـ من زعماء الْيَمَامَةِ ـ وقع في الأسر على يد سرية كانت قد هاجمت موقعاً قِبل نَجْد ، و في مَأْسَرِه أعلن إسْلامه فقرر الذهاب لمكّة معتمراً ، و هناك تعرض لنقدٍ من المَكّيّين بسبب من إسْلامه مما دفعه لقطع القمح عن مكّة و قال إن حظره سينتهي بقرار من مُحَمّدٍ .[٥]

لا شك إن الرّواة لم يرغبوا بتصوير مُحَمَّداً يعقد تحالفات مع قادةٍ غيرِ مسلمين للانتصار على قُرَيْش ، فأردوا تبرير التحالف بأنّ ثمامة ضرب على مكّة حصارَ القمحِ بعد أنْ أسلم في أسره . و المؤكد أن مُحَمَّداً عقد اتفاقاً معه على أسس مصالح مشتركة أو اتفاقات معينة تعود بالمكاسب على الطرفين و ربما ربط بينهما وثاق ديني يتأسَّس على جذور مشتركة لكلى الطرفين ، و لا يجب أن نستبعد أيضاً إمكانية أن الحالة المعنوية للمَكّيّين قد تدهورت بعدما وصلتهم أنباء من فارس عن مقتل خسرو الثاني بَرويز (٦٢٨ م) ، و الَّذِي كان ينظر إليه كحصن ((الوثنية)) في الشرق ؛[٦] إذ جاء نبأ مقتل خسرو في نفس السّنَة الَّتِي أقرت قُرَيْش لِمُحَمّدٍ بمساواته معها ـ سنة عقد اتفاق الحُدَيبيَة ـ .

---

[٥] سيرة ابن كثير CD ؛ صحيح البخاري ، موسوعة الحديث الشّريف ، الإصدار الثاني ، CD ، (م ح ش) ، رقم : ٤٤٢ ، ٢٢٤٤ ، ٤٠٢٤ ؛ صحيح مسلم ، م ح ش ، رقم ، ٣٣١٠ ؛ سنن النسائي ، م ح ش ، رقم : ٧٠٥ ، سنن أبي داود ، م ح ش ، رقم : ٢٣٠٤ .

[٦] كتاب حول القرآن ـ منشئه و أساطيره ، ل. إ. كليموفيتش ، موسكو ، دار الأدب السياسي ، ١٩٨٨ (باللغة الروسية) ، ص ٣٦ ـ ٣٧ .

نقْضُ الصّلْحِ

كانت ثمَرَةُ مكّةَ قد أينعت و حان قطافها ؛ و لم يبقَ إلا تحيّن الفرصة المواتية ، و قد جاءت مُحَمَّداً ، و ربما بأسرع مما كان يتوقع ، و لم يكن قد انسلخ اثنان و عشرون شهراً عن الصّلْحِ ؛ حيث رأى أنّه في حلٍّ من الالتزام بميثاق الهُدْنَة ـ صلح الحُدَيبيَة ـ مع قُرَيْش بعدما جاءه وفدُ خزاعةَ برئاسة بُدَيل بن ورقاء ـ أو عمرو بن سالم الخُزاعي حسب روايات أخرى ـ حاملاً الأخبار عن تعرّض خزاعةَ لهجوم من قِبل بني بكرٍ ؛ و أنّ قُرَيْشاً أمدّت المُهاجِمين بالسلاح ، لا بل إنّ بعض مقاتليها انضموا إليهم .

كان مُحَمّدٌ مرتبطاً بعلاقة تحالفٍ مع خزاعةَ ، و الَّتِي كانت امتداداً لعلاقة تحالف قديمة بينها و بين جدّه عبد المطلب ، الَّذِي عقد تحالفه معها على أساس وشائج قرابة ؛[٧] ولهذا أعلن الخزاعيون فيما بعد أنّهم ينضَمّون إلى عَهْد مُحَمّدٍ على أساس صلح الحُدَيبيَة .

اشتعلت نارُ المعركةِ بين خزاعة و بني بكرٍ على أرضية أثْآرٍ قديمة متجذّرة في العَهْدِ الجاهليّ ، و قيل إن تلك الأثْآر الثاوية تحت الرماد قد انبعثت من مرقدها عندما سمع خزاعيٌّ رجلاً من كنانة ينشد هجاء مُحَمَّدٍ ،[٨] فقُتل عشرون خزاعياً في هذه المعركة . و لم تكن مساهمة قُرَيْش منهجية ، بل الراجح أن بعض القرشيين ساعد على أساس روابط شخصية ، فقُرَيْش لم تكن مستعدة للدخول في مواجهةٍ مع مُحَمّدٍ ، إذ كانت تتفهّم جيداً حدود قوتها ، وأنّها مدينة في طور الأفول ، و ليس بوسعها بعد الآن الانتصار على الحركة الإسْلاميّة ، و لا تذكر المصادر التاريخية من وجوه قُرَيْش البارزة الَّتِي وافقت على مساندة بني بكر إلا صفوان بن أمية ، و حويطب بن عبد العُزّى ، و مكرز بن حفص .

حاولت قُرَيْش تدارك تداعيات المعركة ، لإدراكها أنّها قد تكون الذّرِيْعة الَّتِي ينتظرها مُحَمّدٌ ؛ فذهب إليه أبو سفيان صخر بن حرب[٩] حسب طلب القرشيين ،

---

[٧] ديوان حسّان بن ثابت (د حسان) ، تحقيق و تعليق : د. وليد عرفات ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٤ م ، م ٢ / ص ١٦ ـ ١٧ .

[٨] فُتُوح البُلدَان ، ص ٤٩ ؛ شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد ، دار إحياء التراث العربي ، لبنان ، بيروت ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م ، م ٤ / ص ٢٠٣ .

[٩] هو أبو أم حبيبة (رملة) ، إحدى زوجات مُحَمَّدٍ .

و ذلك من أجل التأكيد على سريان الاتفاق ، بيد أنّه أخفق في مسعاه ؛ فرجع إلى مكّة .

ما إنْ غادر مبعوثُ مكّةَ يثربَ حَتّى طلب مُحَمَّدٌ من القبائل البدويّة الموالية له التجمع في المدينة من جهة ، و منع الناس من الخروج منها في إطار استعداده لتجهيز جيش صوب مكّة ، و خوفاً من أن يخرج مَنْ يبلّغ قُرَيْشاً . كان مُحَمَّدٌ يهدف لإخفاء الوجهة الحقيقةَ لحملته كما تقول المصادر ، و نحن نعتقد أن هذه الإجراءات كانت تهدف لإخفاء موعد الهجوم ؛ لأن أبا سفيان خرج بانطباع عن حتميّة المعركة .

تمكن مُحَمَّدٌ من تكوين جيش مؤلّفٍ من عشرة آلاف مقاتل ، من : بني سُلَيم ، و بني غِفار ، و أسْلَم ، و مُزَيْنة ، و جُهَينةَ ، و أشْجَع ـ إضافة ابن سعد ـ ، و هي قبائل متمركزة حول المدينة ، علاوة على المهاجرين و الأنصار ، و مجموعات من تميم و قيس و أسد ، ثم انطلق من المدينة في العاشر من رمضان ، ٨ هـ .[١٠]

في غضون ذلك طلب المَكّيّون من أبي سفيان الرجوع لِلقاء مُحَمَّدٍ ، و هذا يضعنا أمام احتمالين : إمّا أنّ قُرَيْشاً كانت تتوقع الهجوم ، و قد أرسلته للتفاوض مرة ثانية على شروط لائقة ، و هي فعلياً تستسلم دون شروط لأنّها لم تتخذ أيّةّ إجراءاتٍ للدفاع عن المدينة في حال فشل التفاوض ، و إمّا أنّ أبا سفيان حين كان في المدينة و فشل في المحافظة على سريان الهُدْنَة المعقودة ، و تيقن من عزم مُحَمّدٍ على الهجوم على مكّة ، و لما لم يستطع ثنيه، رجع إلى مكّة و هو يحمل شروطاً معينة منه من أجل سلامة المدينة على قاعدة الاستسلام الكامل . و نحن من جهتنا نرجح الفرض الأخير ؛ لأنّ الرّوايَات تفيد بأنه بينا كان أبو سفيان في طريقه ثانيةً إلى مُحَمَّدٍ مع حكيم بن حِزام و بُديل بن وَرْقاء ـ حسب طلب قُرَيْش ـ التقى بالعباس ، و لا يمكن أنْ يكون اللّقاء قد حدث صدفةً ، بل يعزز هذا الفرض و ينيط بأبي سفيان مهمة نقل جواب المَكّيّين النهائيّ . و بهذا يكون العباس قد ذهب ليعرف رد القرشيين على شروط الاتفاق الأوّلي مع أبي سفيان أو بالأحْرَى الإنذار المُحَمّدي ، و أنه ذهب إلى مكانٍ محددٍ سابقاً بينه و بين أبي سفيان . و يعزز إمكانية ذلك إن أبا سفيان استغرق مدةً طويلةً في المدينة ، حَتّى

---

[١٠] تاريخ الطبري : ٢ /١٦٣ ؛ ابن سعد : ٢ / ١٣٤ ـ ١٣٥ ؛ شرح نهج : ٤ / ٢٠٤ ، ٢٠٦ .

إنّ عموم القرشيين اعتقدوا بأنه اعتنق الإسْلام ، فلما رجع أضطر لتقديم أضحية ليتخلص من هذا الاتهام ،[١١] ما يعني أنّه كان فيها يفاوض ، و لم يتلقَ رفضاً قاطعاً من مُحَمَّدٍ كما تقول الرّوايَات ، و لما وصل مكّة نقل تفاصيل ما جرى في المدينة إلى نخب قُرَيْش ليتم اتخاذ القرار الأخير بصدد ما طُلبَ منه .

إنّ وجودَ العباسِ في هذه الرّوايَات و في المحاورة اللّاحقة بين مُحَمّدٍ و أبي سفيان يشير إلى أنّه هو من لعب الدور الأكبر في تقريب وجهتي نظر الطرفين ؛ و خصوصاً أنّه طلب من ابن أخيه السماح له بالذهاب إلى مكّة ليدعوهم إلى الإسْلام بينا كان جيش المسلمين يزحف نحو مكّة ، و فعلاً ذهب إليها ، و طلب من القرشيين إعلان الإسْلام .[١٢] و بالتالي من الممكن أنه ذهب بنفسه و عقد اتفاق استسلام قُرَيْش ، و بعد ذلك أحضر أبا سفيان ممثلاً عن القرشيين . و ثمة قصة أخرى تخبر بأنّ العباس أراد تحذير المَكّيّين ، بعدما عسكرت قوات مُحَمّدٍ في منطقة مَرّ الظَّهْرَان ، و أنه قرر المضي من أجل إيجاد من يبلّغ الإنذار ، و في الطريق التقى صدفةً بأبي سفيان و بديل بن ورقاء ، و حكيم بن حزام ، فذهب معه أبو سفيان، و رجع الاثنان .[١٣] و في جميع هذه الرّوايَات فإن العباس هو من يحضر أبا سفيان ، و يجمعه مع مُحَمَّدٍ ، و هو من يضع اللمسات الأخيرة على استسلام مكّة .

في الاجتماع الَّذِي جرى بين مُحَمَّدٍ ، و العباس ، و أبي سفيان أكد الأخير على إيمانه بالإله الواحد ، لكنه أعلن بأنه مازال غير واثق من نبوّة مُحَمّد ، إذ لما قال له مُحَمَّدٌ : ((ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأنِ لك أن تعلم أنّي رسول الله !)) ؛ فإنه أجاب : ((أمّا هذه ففي النفس منها شيء !)) .[١٤] و قد تمخض الاجتماع عن اتفاق مع أبي سفيان ، أو بين حركة الإسْلام ، و مكّة ينص على أنه : ((من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، و من أغلق بابه فهو آمن ، و من ألقى السلاح فهو آمن)) .

---

[١١] شرح نهج : ٤ / ٢٠٦ .
[١٢] فُتُوح البُلدَان ، ٥١ .
[١٣] عُيُون الأثر في فنون المغازي و الشمائِل و السِير ، فتح الدين أبو الفتح محمّد بن سيّد الناس ، شرح وتعليق : الشيخ إبراهيم محمد رمضان ، دار القلم ، بيروت ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م ، م ٢ / ص ٢١٦ ؛ شرح نهج : ٤ / ٢٠٨ .
[١٤] تاريخ الطبري : ٢ / ١٥٧ ؛ ابن سعد : ٢ / ١٣٤ ، ١٣٥ ؛ فُتُوح البُلدَان ، ٥٠ ـ ٥١ .

لم يعجب الأنصار هذا الاتفاق فقال بعضهم لبعض : ((أما الرجل فأدركته رغبة في قرابته و رأفة بعشيرته)) ؛ فكان جواب مُحَمَّدٍ لهم مهدئاً ، بقوله : ((كلا إني عبد اللَّه و رسوله هاجرت إلى اللَّه و إليكم ؛ فالمحيا محياكم و الممات مماتكم)) ؛[١٥] لقد كان من الصعب عليهم تقبل أبعاد هذا القرار و الَّذِي كان يهدف ـ إضافة إلى جملة أهداف ـ إلى حرمان القرشيين الرافضيين لاستسلام مكّة من الضَّرُوْرَة الأخيرة لإشهار السلاح بوجه جيش المسلمين بحجة الدفاع عن القرشيين من التنكيل بهم ، أو خوفاً من تخريب مدينتهم . فمنح الأمان يجعل مسألة الدفاع عن مكّة بالنسبة لهؤلاء الرافضين أمراً لا معنى له ما دام تم الحفاظ على المدينة و أهلها .

كانت راية مُحَمَّدٍ بيد سعد بن عبادة ؛ فلما وصلت الجيوش إلى مشارف مكّة ، زُعم بأن سعداً قال : ((اليوم يوم المَلْحَمَة ، اليوم تُستَحَلُّ الحُرْمَة ، اليوم أذلّ اللَّه قُرَيْشاً)) ؛ و قيل إن سعداً قالها أمام أبي سفيان ، بينما كان مُحَمَّدٌ يستعرض أمامه القوات ، و يبدو أن ما دفع سعداً لقول ذلك أنه لم يكن قد نسي كيف أن قُرَيْشاً قد قبضت عليه عقب بيعة العقبة الثانية بينا كان يغادر مكّة ، و جاءوا به إلى مكّة مربوطاً يضربونه ، و يجرونه بشعره ، و لم يتحرر منهم إلا عندما حرره جبير بن مطعِم ،[١٦] و الحارث بن أميّة اللذان كان يوفر لهما الحماية في يثرب .

أقلق هذا القول المهاجرين ، فأبلغ أحدهم مُحَمَّداً ،[١٧]مما دفع عثمان ، و عبد الرحمن بن عوف للتحذير من نتائج هذا الوعيد ؛ و خوفاً من ذلك طلب مُحَمَّدٌ من عليّ بن أبي طالبٍ أخذ الرّاية ، و استلام القيادة ، و يُقال أمّر الزبير ، و قيل أعطاها لقيس بن سعد بن عبادة .[١٨]

---

[١٥] فُتُوح البُلدَان ، ٥٢ ، ٥٣ .

[١٦] مطعم بن عدي ، ابن سعد ، أو أُمية بن خلف ، د حسان .

[١٧] قال ابن هشام هو عمر بن الخطاب ، و حسب أسد الغابة و الواقدي ـ أبو سفيان ـ .

[١٨] تاريخ الطبري : ١ / ٥٦٤ ـ ٥٦٥ ، ٢ / ١٥٩ ؛ السّيرة النَبَوِيّة ، ابن هشام ، تحقيق : مصطفى السقا ، إبراهيم الأبياري ، عبد الحفيظ شلبي ، دار ابن كثير ، دمشق ـ بيروت ، د. ت. ، م ٢ / ص ٤٠٦ ـ ٤٠٧؛ أُسد الغابة في معرفة الصحابة ، عز الدين بن الأثير ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٣ ـ ١٩٩٥ م ، م ٢ / ص ٢٢٣ ؛ تاريخ ابن خلدون ، دار البيان د. ت. ، و مكان الطبع ، م ٢ ، ج ٢ / ص ١٣ ، ٤٣؛ تفسير البغوي ،الحسين بن مسعود الفراء البغوي ، سورة النصر : ١ ؛ ابن سعد : ١ / ٢٢٣ ، ٢ / ١٣٥ ؛ عيون الأثر : ١ / ١٩٣ ؛ شرح نهج : ٤ / ٢٠٩ ؛ د حسان : ١ / ٢٢٤ .

كما كان متوقعاً لم تلقَ جيوش المسلمين مقاومةً من القرشيين ، خلا مجموعة حاولت التصدي لهم بالخَنْدمة بمشاركة صَفْوان بن أُميَّة ، و عِكْرمة بن أبي جهل ، و سُهَيْل بن عمرو، لكنها سَرْعانَ ما انهزمت على إثر مناوشات بسيطة مع جيش خالد بن الوليد ، الَّذِي كان قد دخل مكّة من المجنبة اليمنى ، حسب أوامر مُحَمَّدٍ ، و كان جيشه يضم مقاتلين من أسْلم ، و غِفار ، و مُزينة ، و جُهينة ، و قبائل من العرب ، و كانت هذه المرة الأولى الَّتِي يكلّف فيها مُحَمَّدٌ خالداً مهمة قيادية .

يمكن أن يُفسر سبب مقاومة صفوان بعدائه الشديد لِمُحَمّدٍ و تقديره بأنّه سيهدر دمه لشدة عدائه من جهة ، و لدوره في خرق الصلح من جهة ثانية ، و بالفعل عندما دخل مُحَمَّدٌ مكّة ، طلب من جنده قتل ثمانية رجال و أربع نسوة ، و كان اسم صفوان على لائحة المطلوبين للقتل ؛ لكنه هرب إلى جدّة ، فطلب عُمَير بن وهب الجَمَحيّ فيما بعد من مُحَمَّدٍ الأمان لصفوان ، فوافق مُحَمَّدٌ على منحه إياه ، و أعطاه عمامته الَّتِي دخل بها مكّة علامة على منح الأمان له . فلما رجع صفوان ، طلب من مُحَمَّدٍ شهرَين يراجع فيها حساباته و لتقرير موقفه نهائياً من إعلان الإسْلام ، و الحركة الإسْلاميّة ؛ فمنحه مُحَمَّدٌ أربعة أشهر .[١٩]

زفْرَات القرشيين الغاضبة

لا شك إنّ استسلامَ مكّةَ أغضب بعضاً من وجوهها البارزة ، الَّتِي شعرت بأنّ هيبتها الاجتماعيّة أمام مجتمعها قد تقوضت بعدما دانت للفاتح ، و هي إذ لم ترغب بإعلان رفضها لسلطة مُحَمَّدٍ بشكل مباشر ، إلاّ أنّها لم تستطع كبح جماح سخطها على ما آلت إليه حالها كنخبة ، فعبرت عن ذلك حين أذّنَ بلالٌ على ظهر الكعبة بأمر من مُحَمَّدٍ ، فاستنكرت هذه الوجوه أنْ يؤذّن على ظهرها رجلٌ أسود ، و قالت جويرية بنت أبي جهل : ((لقد أكرم اللَّه أبي حين لم يشهد نهيق بلال فوق الكعبة)) ، و قيل إنها قالت : ((لقد رفع اللَّه ذكر مُحَمّدٍ ، وأمّا نحن فسنصلي و لكنّا لا نحب مَنْ قتلَ الأحبة)) ، و أضافت ـ حسب الأزرقي ـ ((و لقد جاء إلى أبي الَّذِي كان جاء إلى مُحَمّدٍ من النُّبُوَّة فردّها و لم يرد خلاف قومه)) .

---

[١٩] الكامل : ٢ /٢٤٦ ، ٢٤٨ ـ ٢٤٩ ؛ ابن سعد : ٢ / ١٣٦ ؛ عيون الأثر : ٢ / ٢٢١ .

و قال خالد بن أسد [٢٠] : ((لقد أكرم اللَّه أبي فلم يرَ هذا اليوم)) ، و كان والده توفي عشية الاسْتِيْلاء على مكّة ، و قال الحارث بن هشام : ((ليتني متّ قبل هذا اليوم)) ، أو ((وا ثكلاه ! ليتني متّ قبل أنْ أسمع بلالاً فوق الكعبة)) أو ((ما وجد مُحَمّدٌ غيرَ هذا الغراب مؤذناً)) ، أو : ((أما و اللَّه لو أعلم أنّه محقٌ لا تبعته)) ، و قال بعض بني سعيد بن العاص : ((لقد أكرم اللَّه سعيداً إذ قبضه قبل أن يسمع هذا الأسود على ظهر الكعبة)) ، و ثمة آخرون قالوا كلاماً يحمل نفس المضمون . [٢١]

مما لا ريب فيه أن هذه التعليقات الخشنة وصلت مُحَمَّداً ، لكنّه آثر التغاضي عنها على اعتبار أنّها لا تشكل تهديداً جدياً له بعد الاستسلام غير المشروط ، و ارتأى أن يترك لهذه الوجوه بعضاً من كرامة أمام أنفسهم ، و مجتمعهم ، و لتكون ترياقاً يداوون به جراح الهزيمة ، و هذا ما يتطابق مع سياسته تجاه مكّة الهادفة لدمجها في مشروعه ، و سيثبت التاريخ صوابية تصرفه عندما تقف مكّة إلى جانب يثرب عقب وفاته ، و تشكّلان معاً مشروعَ دولةٍ بقيادة النخبة القرشيّة ضد أجزاء الجَزِيْرة العَرَبِيّة الرافضة للاندماج في الدّوْلَة الناشئة .

التعليق الأول لِمُحَمَّدٍ

فور دخوله مكّة أعلن مُحَمّدٌ رفضه لكلِّ ما يمكن أن يؤثر على استقرار النّظام الدّاخليّ في مكّة تحت السيادة الإسْلاميّة ، و حذّر من ذكر مَآثِر القبائل ، و المأثرة هي مكارم القبيلة ، و مفاخِرُها الَّتِي تؤثر عنها أي تُذكر و تُروى . [٢٢] كان الإعلانُ يهدف للتخلص من الإرث المأثوري ـ الشّفويّ الَّذِي كانت تختزنه الذاكرة الجمعية القبليّة ، و الَّذِي يمكن أن يلهب نار الصراع بسرعة بين القبائل ؛ كان مُحَمّدٌ يدرك تمام الإدراك خطر هذا الإرث ، كونه سمح له بنقض صلح الحُدَيبيَة .

---

[٢٠] أسيد ، الأزرقي ، عتاب بن أسيد عند القرطبي و ابن كثير .

[٢١] الكامل : ٢ / ٢٥٤ ؛ أخبارُ مكّة ، و ما جاء فيها من الآثار ، أبي الوليد محمد بن عبد اللَّه بن أحمد الأزرقي ، تحقيق : رشدي الصالح ملحس ، دار الثقافة ، مكة ، ط ٦ ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ ، م ١ / ٢٧٤ ـ ٢٧٥ ؛ سيرة ابن كثير ؛ تفسير القرطبي ، القرآن الكريم ، الإصدار السابع CD (ق ك) ، سورة الحجرات : ١٣ .

[٢٢] الكامل : ٢ / ٢٥٢ ؛ شرح نهج : ٤ / ٢١٢ ـ ٢١٣ ؛ لسان العرب ، CD ، مادة : **أثر** .

الحفاظُ على الوَضْعِ القائمِ

بعد هذا الانتصار أخذ مُحَمَّدٌ مفتاح الكعبة من عثمانَ بن طلحة العبدري ، فدخل الكعبة فصَلّى فيها ركعتين ، و عندما انتهى من صلاته طلب منه أحد الهاشميين ـ منهم من يقول إنّه عليّ بن أبي طالبٍ ، و منهم من يقول العباس بن عبد المطلب ـ أن يجمع الحِجابة مع السِّقاية لبني هاشم ، لكنّ مُحَمَّداً رفض ، و قال لهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأماناتِ إلى أَهْلِهَا ﴾،[٢٣] ثم استدعى عثمان بن طلحة ، فقال له : ((هاكَ مِفتاحك يا عثمان ،اليومُ يومُ برّ و وفاء))[٢٤] .

لم يحاول مُحَمّدٌ بأيّ شكلٍ من الأشكال تغيير الوَضْعِ القائم انسجاماً مع المعنى الضّمنيّ للاتفاق مع أبي سفيان ، و لا حَتّى في مسألة تخص إزالة مَظْلَمةٍ بحقٍّ مسلم ؛ إذ كان أبو سفيان صخر بن حرب قد قام بمصادرة دار بني جحش بعد هجرتهم للمدينة على خلفية أن بنتاً له ـ الفارعة ـ كانت زوج أبي أحمد بن جحش ، فلما دخل مُحَمَّدٌ مكّةَ فاتحاً ، طلب منه أبو أحمد رد داره المُصادرة ، لكنّ مُحَمّداً أبطأ في الجواب مما دفع بالبعض لأنْ ينصح أبا أحمد بنسيان داره ، و قالوا له : ((يا أبا أحمد ، إنّ رسول اللّهِ يكره أنْ ترجعوا في شيءٍ أصيب منكم في اللّهِ)) ، فكفّ الرجلُ عن مطالبته .[٢٥]

تحطيمُ الأصْنامِ

لم يشمل مبدأُ الحفاظِ على الوَضْع القائم الجوانب الَّتِي تبقي على الوثنيّة القرشيّة و مظاهرها ؛ فطلب مُحَمَّدٌ من القرشيين التخلّص من أصنامهم ، و حَظّرَ عليهم بيعها . كانت الأصنام موجودة في كل بيوت مكّة ؛[٢٦] و لهذا كانت إزالتها مسألةً لا بد منها بالنسبة إليه ، إذ إنّه دخل مكّة تحت راية الإسْلامِ ، بوصفه العقيدة الَّتِي يتوجب على القرشيين اعتناقها ، و كان الاسْتِيْلاء عليها يهدف إلى توحيدها مع المدينة تحت قيادة موحدة ، يشرف هو على إدارتها ، و بهذا صار

---

[٢٣] النساء : ٥٨ .

[٢٤] ابن هشام : ٢ / ٤١٢ ؛ الأزرقي : ١ / ١١٠ ـ ١١١ ؛ ابن سعد : ٢ / ١٣٦ ـ ١٣٧ ؛ تفسير لآية ٥٨ من سورة النّساء عند : القرطبي ، ابن كثير (ق ك) ، البيضاوي ، عبد الله بن عمر الشيرازي ، CD ؛ البغوي .

[٢٥] عيون الأثر : ١ / ٢٠١ .

[٢٦] الأزرقي : ١ / ١٢٣ ؛ ابن سعد : ٢ / ١٣٧ .

الإسْلام منذ هذه اللَّحْظَة رايةً عقائديةً للتوحيد السياسِيّ ؛ و كان من الطبيعي أن يعارض بشدة بقاء الأصْنام الَّتِي ترمز للتفتت الاجتماعيّ ، و التعارض السياسِيّ ، و تقف بوصفها عائقاً روحياً في وجه توحيد مكّة مع المدينة ، و وجودها يعني وجود الحواجز الروحيّة بين القبائل العربيّة ؛ و لهذا سَرْعانَ ما وجّه السَّرايا للمناطق المجاورة لمكّةَ من أجل تحطيم الأصْنام ، فقام بإرسال :

١ ـ خالد بن الوليد إلى العُزّى (٢٥ رمضان ، ٨ هـ) ، و العُزّى أحدث من مَنَاة، و اللاّت ، و كانت تُمثل في شجيرات في وادي نخلة القريب من مكّة ؛ و بلغ من تعظيم العرب و قُرَيْش إياها أن كانوا يسمون أبناءهم عبد العُزّى . و كان سَدَنَتها بنو شيبان من بني سُلَيم .

٢ ـ عمرو بن العاص إلى سُوَاع (رمضان ، ٨ هـ) صنم هذيل . و يقع سُوَاعٌ بأرض ينبع ، و هي منطقة قرب المدينة ، و قد قام بنو لحيان على سدانته .

٣ ـ سعد بن زيد الأشْهَلي (٢٦ رمضان ، ٨ هـ) في عشرين فارساً إلى مَنَاة ، وهي أقدم الأصْنام ، و هي آلهة القضاء ، و لاسيما قضاء الموتِ ، و لعل اشتقاق الاسم ـ حسب الحموي في معجمه ـ من المَنَا ، هو القدر ، و يجوز الموت ؛ و كان العرب يسمون أبناءَهم عبد مَنَاة ، و زيد مَنَاة . و قد نُصبت على ساحل البحر بالمُشَلّل . و كانت تعظمها الأزد و الأوس ، والخزرج .

٤ ـ و قبل أن يتجه إلى حصار الطائف أرسل مُحَمَّدٌ الطُّفيل بن عمرو الدَّوْسي إلى ذي الكَفّين (شوّال ، ٨ هـ) ، و هو صنم عَمْرِو بن حُمَمَة الدّوْسي ، و كان قائد السرية من نفس بني عَمْرِو ، و طلب منه مُحَمَّدٌ أنْ يجييش أفراداً من قومه ، و يتبعه للطائف ، و قد رجع و معه من قومه أربعمئة .[٢٧]

ما نلاحظه بصدد هذه السرايا أنّها تمت بعددٍ قليلٍ من المقاتلين ، وهذا يدل على أنّ محيط مكّة و المدينة استسلم لحركة الإسْلامِ بعد أن استسلمت الحاضرة نفسها .

دموية خالدِ بنِ الوليدِ بعيد الاسْتِيْلاء

ما إنْ رتّب مُحَمَّدٌ شئونَ مكّةَ و هَشَّمَ الأصنام حَتّى وجه السّرايا حول مكّة من أجل الدعاية للإسْلام ، و لم تكن الأوامر المُعطاة للقائدة تنصّ على القتال ؛ و كان

---

[٢٧] ابن سعد : ٢ / ١٤٥ ـ ١٤٦ ، ١٥٧ ؛ معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، CD ، **مَنَاة** ، **سُوَاعٌ** ، **العُزّى** ؛ تاريخ الإسْلام السيّاسيّ و الثّقافيّ و الاجتماعيّ ، د. حسن إبراهيم حسن ، دار الجيل ، بيروت ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ١٤ ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م ، م ١ / ص ٦١ ـ ٦٢ .

ممّن بعث خالد بن الوليد على إثْر عودته من مهمة هَدْم العُزّى ، و أمره أن يسير بأسفل تِهامة داعياً للإسْلام ، و قد زوّده بثلاثمئة و خمسين مقاتلاً من المهاجرين و الأنصار و بني سُليم . فلما وصل إلَى بني جذيمة بن عامر ، وجدهم متنكبين السّلاح ، فطلب خالدٌ منهم ترك أسلحتهم ، و أكّد عدم جدوى المقاومة لأنّ مَكّة أعلنت ولاءها ، لكن رجلاً منهم يُقال له جَحْدَم، حذرهم من الاستسلام لخالد ، و أضاف بأنه لن يضع سلاحه .

في النهاية رضخت بنو جذيمة لطلب و وضعت السلاح ، و ما إنْ فعلت ذلك ، حَتّى أصدر خالدٌ أوامره بتكتيف رجالهم ، و قتلهم ، و على الرَّغْم مِن أنَّهم قالوا : ((صَبأْنا صَبأنا !)) ؛[٢٨] فنفذ مقاتلو بني سُليم الأمر ، فقتلوا من كان في أيديهم ، أمّا المهاجرون والأنصار فتركوا أسراهم .

لما علم مُحَمَّدٌ بالخبر رفع يديه إلى السماء ، قائلاً : ((اللَّهمَّ إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد !)) ، ثم دعا عليّ بن أبي طالبٍ ، فطلب منه أداء الدّيَة ؛ و من جهة أخرى أتهم عبد الرّحْمَن بن عوف خالداً بأنه كان يصفي حسابات ترجع للزمن الجاهلي ، لأن ما دفعه لارتكاب جريمته رغبته بأخذ ثأر عمه الفاكه بن المُغِيرَة ، الَّذِي كان قد قُتل على يد أحد رجال بني جذيمة ، فسبّه خالد ، و قال لعبد الرحمن : ((تستطيلون علينا بأَيام سبقتمونا بها)) ، فلما علم مُحَمَّدٌ بأمر المشادة حذرّ خالداً من سب صحابته .[٢٩]

غزوة حُنَيْنَ في (شوّال ، ٨ هـ)

كانت العداوة ضاربة الجذور بين هَوَازن و ثقيفٍ من جهة و بين قُرَيْش من جهة أخرى ، و قد نمت تلك العداوة في تربة المنافسة التجاريّة بين مكّة و الطائف ـ مدينة ثقيف ـ . و كانت ثقيف مؤلفةً من جماعتيْن قبليتيْن : بني مالك ، و الأحلاف ، و الأخيرة كانت على علاقة طيبة مع القرشيين .[٣٠]

---

[٢٨] صبأنا : دخلنا في دين مُحَمّدٍ ، و كانوا يسمون مُحَمَّداً الصابئ ، لأنّه خرج عن دينهم ، يقال : صبأ الرجل ، إذا خرج من دين إلى دين .

[٢٩] ابن هشام : ٢ / ٤٢٨ ـ ٤٣١ ؛ تاريخ الطبري : ٢ / ١٦٤ ؛ أسد الغابة : ١ / ٦٧٠ ، ٣ / ٣٧٨ ـ ٣٧٩ ؛ ابن سعد : ٢ / ١٤٧ ـ ١٤٨ ؛ البخاري ، ٣٩٩٤ ، ٦٦٥٣ ؛ د حسان : ٢ / ٢٦٥ .

[٣٠] وات ، ١٠٥ ـ ١٠٦ .

أحدثت أنباءُ تحركِ جيش المسلمين نحو مكّة قلقاً في هَوَازن و ثقيف خشية أن تكونا مستهدفتيْن من هذا التحرك ؛ فجرت استعدادات لمواجهة الهجوم المحتمل ، لكن الأخبار جاءت بنبإ الاسْتِيْلاء على مكّة ، و إذ صارت هَوَازن و ثقيف بمنأى عن الخطر ، إلاّ أنّهما شعرتا بأن الأمور ستسير باتجاه سيئٍ على المستوى التجاري بالنسبة لثقيف ، و من المحتمل أن ثَقيفاً فكرت بإمكانيّة التخلص من مكّة ، أي التخلص من المنافس التجاريّ الوحيد لها في الحِجَاز ، و حيازة تجارة العبور للطائف ، أو قدرت أن المواجهة آتية لا ريب فيها مع المسلمين ، فقررت مع هوازن المبادرة إليها ؛ و لهذا جمّع مالك بن عوف النصَّرْي ـ زعيم هَوَازن و كان عمره يومئذ ثلاثين سنة ـ هَوَازن مع ثقيف كلَّها . و اتباعاً لقاعدة كانت سائدة في الجَزِيْرة العَرَبِيّة في المعارك المصيريّة طلب ابن عوف من المقاتلين اصطحاب أموالهم ونسائهم و أبنائهم ، لأنّه أراد أن تكون المعركة داميةً ، و نهائيةً ، و كي لا يفكر أحد من مقاتليه بترك ساحة المعركة ؛ لكن كعباً و كلاباً ـ من هَوَازن ـ لم تشاركا .[٣١]

لم يكن مُحَمَّدٌ قد مكث في مكّة نصف شهر حين تحركت قوات ثقيف و هَوَازن إليه ؛ فوصل جيشاهما ، اللذان كانا مؤلَّفيْن من حوالي ثمانية آلاف مقاتل ، فتمركزوا بحُنَيْنَ ؛ فخرج مُحَمَّدٌ لمواجهة القوات القادمة باثني عشَر ألف مقاتل : ألفان من أهل مكّة مع عشرة آلاف مقاتل ، و هم الَّذين قدموا معه إلى مكّة ؛ فجعلت هذه الأفضليّة العدديّة الملحوظة جيشَ مُحَمّدٍ يثق بحتميّة النَّصْر .

جرى الصدام في وادي حُنَيْنَ ؛ فدارت الدوائر على قوات مُحَمَّدٍ إذ انهزم في البدء بنو سُليم ، و تبعهم أهل مكّة ، ثم بقيّة الفصائل المقاتلة ، فعبّر أبو سفيان بن حرب عن شماتته ، فقال : ((لا تنتهي هزيمتهم دون البحر)) ، و علقّ جَبَلة بن الحنبل [٣٢] : ((ألا بطل السِّحْرُ اليومَ !)) ، فرد عليه صفوان ـ أخوه لأمه ـ : ((اسكت فضَّ اللَّه فاكَ ، فو اللَّه لأن يَرُبَّني رجلٌ من قُرَيْش أحبُّ إليّ من أن يَرُبَّني رجلٌ من هَوَازن)) .[٣٣]

---

[٣١] ابن سعد : ٢ / ١٥٠ ؛ أيام إسْلام : ١٠٤ .

[٣٢] عند ابن هشام : كَلَدةُ بن الحنبل .

[٣٣] القرطبي ، التوبة : ٢٥ ؛ ابن سعد : ٢ / ١٥١ ؛ هشام : ٢ / ٤٤٣ ـ ٤٤٤ ؛ أسد الغابة : ٢ / ٤٢١ ؛ و في د حسان : ٢ / ١٣٣ فإن حنبل قال : ((بطل سحرُ بن أبي كبشة)) . و **أبو كبشة** لقب كانت تطلقه قريشٌ على مُحَمَّدٍ ، و سبب التسمية غامضٌ .

استدعى الموقف الحرج ، و تقهقر قوات المسلمين من مُحَمّدٍ أنْ يبادر إلى تجميع مجموعة متماسكة ، كي تكون نواةَ استقطابٍ للمجموعات المبعثرة ؛ فطلب من العباس بن عبد المطَّلب ، الَّذِي كان جهير الصوت أنْ ينادي الأنصار للتجمع حوله ، ثم إن النداء اقتصر على الخزرج ، الَّذِين كانوا مشهورين بحسن البلاء في الحرب .

ساعدت هذه النواة على إعادة التراص العسكريّ في جيش مُحَمَّدٍ ، مما سمح بعكس اتجاه المعركة ، فصار النصرُ في النهاية حليفاً لقوات المسلمين ، فانهزمت هَوَازن ، في حين أن بني مالك ـ الجناح الثقفي الثاني ـ تعرضوا لأكبر الخسائر البشرية ، إذ قُتل منهم سبعون رجلاً ، وكان من بين القتلى عثمان بن عبد الله بن ربيعة ، فعلق مُحَمَّدٌ على مقتله ، قائلاً : ((أبعَدَه الله ! **فإنه كان يبغض قُرَيْشاً**)) .[٣٤] في هذه اللَّحظات الحرجة ، و مُحَمَّدٌ في ساحة المعركة ، و النّصر الَّذِي تحقق بالكاد بفضل الأنصار ، تكلم مُحَمَّدٌ بعفوية ، و ببساطة ، و قد كشف تعليقه هذا عن أنّه بقي يوالي قُرَيْشاً حَتّى عندما كان النصر ابن هنيهاته ، و الَّذِي تحقق بفضل تماسك الأنصار .

من الملاحظ أن انتصار قوات مُحَمَّدٍ لا يعود إلى هذه النواة الأنصاريّة المتراصة وحسب ، و الَّتِي طالب مُحَمَّدٌ بتشكيلها ، بل أيضاً إلى عدم التماسك الداخلي في ثقيف ، والَّتِي كانت منقِسْمَة سياسِيّاً ، و هذا ما تدل عليه واقعة أنه لم يقتل من الأحلاف ـ الجناح الثقفي الآخر و الَّذِي ارتبط بعلاقة جيدة مع قُرَيْش ـ إلاّ رجلان [٣٥] مقابل سبعين رجلاً من الجناح الثاني . كما أن هَوَازن كانت تشكو من ضعفٍ في تماسك قواتها ، و يبدو أنّها لم تتمكن من تجاوز مسألة الحساسيات الداخلية ، إذ غابت كعب و كلاب عن المعركة ، و هما فرعان رئيسان منها ؛ في حين أن قوات المسلمين ، و على الرَّغْم مِن غياب التجانس بين عناصرها كانت أكثر تماسكاً بالمقارنة معهما . إضافةً لكون نسبة القوى كانت ٣ مقابل ٢ لصالح قوات المسلمين .

---

[٣٤] الطبري : ٢ / ١٦٩ ؛ ابن سعد : ٢ / ١٥١ ، ٤ / ١٨ ـ ١٩ .

[٣٥] أيام العرب في الإسلام ، محمّد أبو الفضل إبراهيم ، علي محمّد البجاوي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩١ م ، ص ١٠٩ .

حِصار الطائف (شوّال ، ٨ هـ)

أخذاً بعين الاعتبار الضَّرُوْرَة العسكريّة و الاقتصاديّة أصبح التوجه نحو الطائف بالنسبة لمُحمَّدٍ أمراً لا مفر منه ، إذ إنّ بقاء الطائف بعيداً عن السيطرة الإسْلاميّة ، يمكن أن يهدد الوَضْع الداخلي المَكّيّ ، لأنّ مكّة كانت تعتمد على منطقة الطائف في توفير جزء كبير من حاجتها الغذائية ؛ لأنّها كانت تتميز باعتدال حرارتها ، و طيب هوائها ، و جودة تربتها ، إضافةً لتوفّر المياه ، مما سمح لأهلها بمزاولة الزّرّاعة ، فُوجدت فيها النخل و الأعناب ، حَتّى إنه كان يُضرب المثل بزبيبها .[٣٦]

كان قرارُ مُحَمَّدٍ بملاحقة الجيش المهزوم ، و محاولة الاسْتِيْلاء على الطائف مبنيّاً على الاعتبارات التّالية : أولاً ، من الممكن أن تقوم الطائف بضرب الحصار على مكّة مما سيؤثر على الأوضاع المعيشية ، و مكّة لم تنسَ بعد قطع القمح عنها ؛ ثانياً ، كان لعامة قُرَيْش أموال بالطائف ، و منها أرض للعباس ،[٣٧] و كان ثمّة احتمال في أنّ خضوعَ مكّة للسيطرة الإسْلاميّة قد يؤدي إلى ضياع هذه الأموال في حال ناصبت الطائف العداء لحركة الإسْلام ، و كونها كانت المنافس الأقوى لقُرَيْش يبقي احتمالات المواجهة قوية معها ، و قد يحدث انقلاب داخلي في مكّة في حال تمت مصادرة أموال القرشيين ، لا سيما أن قرشياً ـ أبا سفيان ـ قام بهذه السابقة من قبل ؛ و كل ذلك لن يكون بلا أثر على يثرب نفسها ، و لهذا تأتى على مُحَمَّدٍ الآن مواجهة هذه الاحتمالات بمطاردة الفلول ، و الاسْتِيْلاء على الطائف إن أمكن ذلك .

تراجعت فلول ثقيفٍ نحو الطائف ، و استعدوا لمواجهة قوات المسلمين الزاحفة ، والَّتِي سَرْعانَ ما عسكرت قريباً من مدينتهم ، شارعةً بضرب الحصار عليهم . دام الحصارُ ما بين ١٧ إلى ٢٩ يوماً ؛ و لم يجرِ أيُّ اشتباكٍ مباشرٍ ، بل اكتفت ثقيفٌ بالمناوشات من وراء الحِصْن ؛ و تجنبت الصدام المباشر مع قوات مُحَمَّدٍ .

---

[٣٦] معجم البلدان ، **الطائف** ؛ قُرَيْشٌ : من القبيلة إلى الدّوْلَة المركزية ، خليل عبد الكريم ، سينا للنشر ، القاهرة ، ١٩٩٣ م ، ص ١٩٢ . و تقول الأسطورة الإسْلاميّة ، إن إبراهيم دعا لمكّة أن يرزق أهله من الثمرات ، فنقل اللَّه أرض الطائف من الشّام ، فوضعها هنالك رزقاً للحرم (الأزرقي : ١ / ٧٧).

[٣٧] فُتُوح البُلدَان ، ٦٨ .

أدرك مُحَمَّدٌ استحالة الاسْتِيْلاء على المدينة ، فقرّر وقف الحصار لأنّه عندما يدخل جيشٌ في معركة فعليّة ، و كان النّصْر بعيدَ المنال ؛ فإنّ أسلحة المقاتلين ستَتَثلّم ، و لهيب حماسهم سيخبو . و إذا فرض القائد حصاراً على مدينةٍ فإنّه يستنفد قوته .[٣٨] لكنّه قبل أن يأمر بفك الحصار أعلن أنّ كلَّ رقيقٍ يهرب من المدينة المُحَاصَرة سينال حريته فوراً ، فجاءه أقل من عشرين رجلاً رقيقاً ،[٣٩] و يبدو أن الإعلان كان يهدف إلى إضعاف النشاط الزّرّاعي لا إلى تدميره ، لأنّه كان في مكنة مُحَمَّد إصدار أوامره بتهشيم المزروعات الَّتِي خارج الحصن، لكنه لم يفعل . كان منبع تصرفه بعد رؤية ، و تقديراً منه إلى أن الطائف ستأتي له طائعةً قريباً ، و من الأفضل الحفاظ على قدرتها الإنتاجية من أجل تلبية حاجة رقعته الإسْلاميّة المتنامية ، و إضافةً إلى ذلك فإنّ عامل الخوف على هذه الأموال سيدفع بثقيف للاستسلام حفاظاً على أموالها ، أما إذا دُمرت مزروعاتها فلا يبقى لها إلا خيار الصراع مع الحركة الإسْلاميّة .

صحيح إنّ مُحَمّداً لم يتمكن من الاسْتِيْلاء على الطائف ، بيد أنّه حقق من وراء حصاره مكسباً مهماً ، فنتيجة لهذا الحصار أعلنت القبائل الضاربة حول الطائف إسْلامها ، وهذا ما سيكون له الأثر الأعظم في استسلام ثقيف فيما بعد .

قِسْمَةُ غَنائِم معركة حُنَيْنَ

توجه مُحَمَّدٌ بعد ذلك إلى منطقة الجِعْرانَة حيث كان بها سبي هَوَازن ، و الَّذِي بلغت حصيلته ستة آلاف من نساءٍ و أبناءٍ ، علاوة على أعدادٍ كبيرة من الإبل و الشّاء . و هناك وافاه وفدُ هَوَازن برئاسة زهير بن صُرَد ، و هو لم يشرع بعد بتوزيع الغَنائِم على المقاتلين ، فأعلن الوفدُ استسلام قومهم ، و اعترف بمُحَمّدٍ نبياً ، و أقرّ بالإسْلام .

تم الاتفاق بين مُحَمَّدٍ و بين الوفد على إرجاع النساء و الأبناء فقط ، و لأن مُحَمَّداً كان يقدّر حساسية هذه المسألة بالنسبة للمقاتلين ، و أنه ليس من السهل

---

[٣٨] The Art Of War, Sun Tzu, trans., Lionel Giles, 1910, Library of future, 4th edition, ver. 5.0, Historical Document, (II , 2).

[٣٩] ابن سعد : ١٥٨ ـ ١٥٩ ؛ مسند أحمد (م ح ش) ، رقم : ٣٠٩٧ .

عليه فرض الاتفاق عليهم ، فقد طلب من أعضاء الوفد القول بعد الصَّلاَة : ((إنّا نستشفع برسول اللَّه إلى المسلمين ، و بالمسلمين إلى رسول اللَّه في أبنائنا و نسائنا)) ، فلما صلّى الظهر ، قاموا بتنفيذ ذلك ؛ فقال مُحَمَّدٌ : ((ما كان لي و لبني عبد المطلب فهو لكم)) ، فاقتدى المهاجرون و الأنصار بتصرف مُحَمَّدٍ . أما مقاتلو القبائل البدوية فقد رفضوا بلسان زعمائهم الاقتراح الضّمنيّ لمُحَمَّدٍ بإرجاع السبي ، فرفض الأقرع بن حابس الطلبَ بالنيابة عن بني تميم ، و كذلك عُيَيْنَة بن حِصْن عن فزارة ؛ بيد أن عبّاس بن مِرْداس وُضع في موقف حرج عندما استجاب بنو سُلَيم لطلب مُحَمَّدٍ خلافاً لإرادته ، فقال لهم العباس : ((وهنّتموني)) ، و لاَ توجد معلومات عن دوافع تصرفهم ، و لماذا أردوا إحراجه ، و سبب عزلة ابن مرداس في قومه .

لما رأى مُحَمَّدٌ أن الأغلبية ترفض التنازل عن مغانمها ، أعلن أن مَنْ تمسك بسبيه ، فله على كل إنسانٍ سِتُّ أبْعِرَة ،[٤٠] من أوّل معركة يحصل فيها على مغانم ، و أمر برد الأبناء و النساء ، و قد تأتى على مُحَمَّدٍ التثبت من تنفيذ القرار ، و أن حكمه قد نال موافقة المقاتلين، فطلب منهم أن ينقلوا موافقتهم عبر العُرفَاء ـ قواد المجموعات القتالية الصغيرة ، و بالفعل نقلوا إليه موافقة المقاتلين على اقتراحه ، و تنفيذهم لطلبه .[٤١]

عَطاء المؤلفة قلوبهم

كانت غَنائِم المعركة وفيرةً ، و لم يضيّع مُحَمَّدٌ الفرصةَ المواتية من أجل كسب زعماء القبائل العربية لجانبه ، و للحصول على اعترافهم بسلطته ، و ضمان ولائهم لحركته الناهضة، فقرر أن يستميلهم بتقديم عطايا خاصة لهم ، و لأشراف قُرَيْش ، فأعطى مئة بعيرٍ لكل من أبي سفيان بن حرب و ابنه معاوية ، و صفوان بن أميّة ـ العدو اللدود السابق ، والَّذِي لم يقر بالإسْلام بعد ـ ، و حكيم بن حِزام ،

---

[٤٠] **البَعِيْر** ، ج **أبْعِرَة** ، و **بُعْران** : الجمل الَّذِي انشقت نابه ، و قوي و صلح للركوب ، للذكر و الأنثى .

[٤١] ابن سعد : ٢ / ١٥٣ ، ١٥٦ ؛ تاريخ الطبري : ٢ / ١٧٤ ؛ الكامل : ٢ / ٢٦٩ . يورد ابن سعد (٢ / ١٥٢ ، ١٥٤) ترتيباً مختلفاً ، و هو أنّ مُحَمّداً قسم الأموال الغَنائِم ، و أعطى المؤلفة قلوبهم ، و تريث بالسبي كي يقدم عليه وفد هَوَازن ؛ و لهذا شرح فيما بعد للمقاتلين بعد أن جاءه الوفد بأنه لم يقسم السبي لأنه كان يتوقع مجيئهم ، و اختيارهم أبناءهم و نساءهم .

و الحارث بن الحارث بن كَلَدة ، و الأقرع بن حابس ، و عُيَيْنَة بن حِصْن ـ اللذين رفضا التخلي عن السبي ـ . كما أعطى دون المئة آخرين منهم العبّاس بن مِرْداس ، لكنّه احتُجّ على قلّة عددها ، و طالب بزيادة عطائه ، فأعطاه مُحَمَّدٌ أكثر حَتّى أرضاه ؛ ربما كي لا ينكسر بعد أن رفض قومه طاعته ، و يزداد وهنه على وهن . و قد قارب عدد المؤلفة قلوبهم الأربعين.[٤٢] و لنفس الهدف أرسل مُحَمَّدٌ إلى مالك بن عوف ـ زعيم هَوَازن ـ يعرض عليه اتفاقاً ينصّ على أنْ يعلن ابن عوف إسْلامه ، مقابل رد أفراد أسرته ، و ماله ، إضافة لحصوله على مئة بعير ؛ فأُخبر ابن عوف بالعرض ، فخرج من الطائف ، و أعلن الإسْلام . فأقره مُحَمَّدٌ زعيماً على قومه ، و طلب منه الإشراف على مَنْ أسلم من القبائل الَّتِي حول الطائف ، و بهذا صار عدو الحركة الإسْلاميّة حليفاً لها ، و انقلب على حلفائه الثقفيين . فقام بدور كبير لصالح الحركة الإسْلاميّة فيما بعد حينما شرع يشن الغارات على قوافل و ماشية ثقيف ، بمَنْ معه من القبائل الَّتِي أعلنت ولاءها لِمحمّدٍ من ثُمالة ، و فهم ، و سَلَمة حَتّى ضيق عليهم الخناق ، و قد أجبر هذا الحصار ثقيفاً على الاستسلام فيما بعد .[٤٣]

أثار إعطاء مُحَمَّدٍ زعماءَ القبائلِ حنق بعض المقاتلين ، فجاء رجل من بني تميم يُقال له ذو الخُوَيْصِرَة إلى مُحَمّدٍ ، و أتهمه بأنه لم يعدل في ذلك اليوم ،[٤٤] و لكي نقدر حساسية مسألة توزيع الغَنائِم يكفي أنْ نعلم أنّ مُحَمَّداً و على أثر تسوية مسألة سبايا حُنَيْنَ اتَّبعه المقاتلون يطالبون بقِسْمَة الفيء من الإبل و الغنم ، حَتّى أَلْجَئُوه إلى شجرةٍ ، فتشبكت بردائه حَتّى نزعته عن ظهره ؛ و هذا ما أثار غضبه .[٤٥]

ردة فعل الأنصار

ردّة الفعل الأخطر جاءت من الأنصار ، العمود الفقريّ للحركة الإسْلاميّة حَتّى ذلك الوقت ، إذ سَرْعانَ ما انتشرت فيما بينهم الاحتجاجات جراء عطايا مُحَمَّدٍ أولاً ، و لأنه لم يعطهم شيئاً من الغَنائِم ثانياً ، فسُمعت عبارات الاحتجاج ،

---

[٤٢] الكامل : ٢ / ٢٧٠ ؛ تاريخ ابن خلدون ، م ٢ ، ج ٢ / ٤٨ .
[٤٣] الكامل : ٢ / ٢٦٩ .
[٤٤] الكامل :٢ / ٢٧١ ؛ تاريخ الطبري : ٢ / ١٧٦ .
[٤٥] موطأ مالك (م ح ش) ، رقم : ٨٦٦ .

مثل : ((لقد لقي واللَّه النَّبِيّ قومه)) ، و قالوا : ((سيوفنا تقطر من دمائهم و غَنائِمنا تقسم فيهم)) ،[٤٦] و قيل ما هو أشد من ذلك ، فقال أحدهم : ((ما أراد بها وجه اللَّه)) ،[٤٧] و تساءلوا فيما بينهم : ((أما من قاتله فيعطيه ، و أما من لم يقاتله فلا يعطيه ؟ !)) ،[٤٨] و حَتّى إن حسانَ بن ثابت ـ شاعر مُحَمَّدٍ ـ احتج بقصيدةٍ على حرمان الأنصار من غَنائِم حُنَيْنَ ؛[٤٩] و إن كان لا يمكن الجزم أبداً أنه ألقاها و هو في ساحة المعركة ، بل الأرجح أنه نظمها عندما آب إلى المدينة ، هذا إذا كان حاضراً أصلاً في هذه المعركة بسبب ما كان يعرف عنه من عزوف عن القتال لتقدم سنه .[٥٠] إن قصيدة حسانَ الاحتجاجية و الَّتِي نظمها في المدينة دون شك تدل على مبلغ الألم الَّذِي سببه عطاء المؤلفة قلوبهم لعموم الأنصار ، و لم يتمالك حسان نفسه ورغم كونه شاعرَ مُحَمَّدٍ من عدم التنديد بتجاوزه للأنصار .

توجه سعدُ بنُ عبادةَ إلى مُحَمَّدٍ من أجل أنْ ينقل إليه احتجاجات الأنصار على قِسْمَة الفيء ،[٥١] و حين سأله مُحَمّدٌ عن موقفه الشّخصيّ من القضيّة ، أجابه بأنّ موقفه مرتبط بموقف قومه ، ففي المجتمعات القائمة على أسس قبلية لا توجد الشخصية الفردية المستقلة ، إنّ شخصية الفرد تتماهى بشخصية القبيلة ، حيث القبيلة هي الأنا ، أو بالأحرى انصهار أنوات المجموع في أنا عليا ، و حَتّى ذاك الَّذِي يتبوأ موقعاً مرموقاً في التركيبة الاجتماعيّة ـ مثل سعدٍ ـ لا يملك هذه الأنا الخاصة (الشخصية الفردية) الَّتِي يمكن فصلها عن مجموع أفراد القبيلة ، و لهذا أيضاً شارك حسان بن ثابت قومه انزعاجهم لأنه لا يستطيع التضحية بمصالح أناه القبليّة (الرئيسة) على مذبح أناه الخاصة (الثّانويّة) .

هل كان مُحَمَّدٌ يقدر ردّة فعل الأنصار ؟

نحن لا نشك أبداً في أنّه كان مستعداً لمواجهة الاعتراضات الَّتِي كانت تنتظره جراء نتائج القِسْمَة ، و أنّه كان يدرك مسبقاً ردة فعل الأنصار قبل قدوم

---

[٤٦] تاريخ ابن خلدون ، م ٢ ، ج ١ / ٢٩٣ .
[٤٧] البخاري ، ٢٩١٧ ، و ٣١٥٣ .
[٤٨] سيرة ابن كثير .
[٤٩] ابن هشام : ٢ / ٤٩٧ ، د حسان : ١ / ٢٦٥ .
[٥٠] استغل بعض الرواة هذا الإحجام لإلصاق صفة الجبن به .
[٥١] تاريخ الطبري : ٢ / ١٧٦ .

سعدٍ ، لأنه كان أختبر سابقاً حالات مشابهة بسبب خلافات على توزيع الغَنائِم عقب المعارك ، فبعد أن هُزمت قُرَيْش في معركة بدر (رمضان ٢ هـ / آذار (مارس) ٦٢٤ م) ، نشأ خلاف بين المقاتلين على أحقية حيازة الغَنائِم ، فأدعى من جمع الغَنائِم من أرض المعركة حقه بالاحتفاظ بها ، بينا أكّد الَّذِين كانوا يقاتلون في الميدان حقهم بالقِسْمَة ، فلولا قتالهم لما تمكن الأوّلون من جمع الغَنائِم ، و الفريق الثالث الَّذِي كان يقوم بحراسة مُحَمَّدٍ ، أكد بدوره حقه بالقِسْمَة لأنه لم يغادر مواقعه كي لا يفسح الفرصة لمقاتلي قُرَيْش بالنيل من مُحَمَّدٍ . و لم يُحلّ الإشكالُ إلا عندما تدخل مُحَمَّدٌ ، و قسّم الغَنائِم بالتساوي اتباعاً لنص الآية الأولى من سورة الأنفال .[٥٢]

أما المرة الثّانية فكانت في ميدان معركة أُحد (شوال ٣ هـ / آذار (مارس) ٦٢٥ م) ، عندما لاحت بشائر النصر ، و بدأت قوات قُرَيْشٍ تنسحب تاركة أمتعتها ، فغادر أغلب الرماة مواقعهم من أجل المشاركة في النهب ، و قد كان منوطاً بهم مهمة حماية مؤخرة قوات المسلمين من الفرسان القُرشيين ، و قد استغل خالد بن الوليد ـ قائد فرسان قُرَيْش في تلك المعركة ـ الموقف ، فغيّر بذلك نتيجة المعركة ، و أُلحقت بقوات المسلمين هزيمة فادحة ، و قد علقّ ابن مسعود على ذلك ، فقال : ((ما شعرت أنّ أحداً مِنْ أصحاب النَّبيّ كان يريد الدنيا ، و عرَضها حَتّى كان يومئذ)) ، و قد ندّد القرآنُ بِمَنْ تركَ ، و أتهمهم بأنّهم أرادوا الدنيا ، فقال : ﴿ منكم مَنْ يُريد الدنيا و منكم من يريد الآخرة ﴾ .[٥٣]

بل كان ثمة حادثة احتجّ الأنصار فيها بالذات على قِسْمَة مشابهة ، فبعد أنْ سلّم بنو النضير في ربيع الأول ٤ هـ / آب (أغسطس) ٦٢٥ م أموالهم إلى مُحَمّدٍ على أساس اتفاق الاستسلام معه ، قرر مُحَمَّدٌ قِسْمَة الأموال بين المهاجرين مستثنياً الأنصار ، فاعترض بعض الأنصار على ذلك ، فعاتبهم القرآن في الآية التاسعة من سورة الحشر ، و اضطر مُحَمَّد لشرح قراره بأنّ المهاجرين تركوا أموالهم و أولادهم للهجرة ، فردّ الأنصار عليه بأنّ أموالهم مباحة للمهاجرين ، فبين لهم من جديد بعداً آخر لقراره ، قائلاً إن مساعدتهم كانت على أساس أن المهاجرين لا يجيدون العمل .[٥٤]

---

[٥٢] تاريخ الطبري : ٢ / ٣٧ ـ ٣٨ ؛ الكامل : ٢ / ١٣٠ ؛ سيرة ابن كثير .
[٥٣] تاريخ الطبري : ٢ / ٦٢ ؛ القرطبي ، آل عمران : ١٥٢ .
[٥٤] تفسير الطبري (ق ك) ، و ابن كثير ، الحشر : ٩ .

هذه السوابق تجعلنا نفترض بأنّ مُحَمّداً كان قد درس الموقف بدقة ، و استعد جيداً لمواجهته ، و كل ما فعله سعدٌ بقدومه أنّه حدّد موعدَ تحركِ مُحَمَّدٌ لنزع فتيل الأزمة ، و لهذا طلب مُحَمَّدٌ الأنصار لاجتماع خاص معهم ، ثم خطب بهم ، قائلاً :

((و اللّه لو شئتم لقلتم فصدقتم : أتيتنا مكذّباً فصدّقناك ، و مخذولاً فنصرناك ، وطريداً فواسيناك ، أوَجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لُعاعة [٥٥] من الدنيا تألّفت بها قوماً ليُسْلموا ، و وكلتكم إلى إسْلامكم ، أفلا ترضون أن يذهب الناسُ بالشاة و البعير ، وترجعوا برسولِ اللّه إلى رحالِكم ؟ و الّذِي نفسي بيده لولا الهجرة لكنتُ امرأً من الأنصار ، ولو سلك النّاس شِعباً و سلكتِ الأنصار شِعباً لسلكتُ شِعبَ الأنصار)) .

تمكن مُحَمَّدٌ من استرضائهم بخطابه ، و قيل إن القوم قد بكوا حَتّى بلوا لِحاهُمْ بالدموع، و قالوا : ((رضينا برسول اللّه قسماً و حظاً)) .[٥٦]

حَمْلَة تَبُوكَ (رجب ٩ هـ / ٦٣٠ م)

بعد إقامة مُحَمَّدٍ في المدينة ثمانية أشهر ـ ما بين ذي الحجَّة إلى رجب ـ ، أصدر أوامره بالتَّهيُّؤ للقيام بحَمْلَةٍ نحو بلاد الشّام ، و قد أخبر عن مقصده خلافاً لعادته ؛ فأعلنَ سببَ قيامِ الحَمْلَة أنباءً بلغته بأنّ هرقل ملك الروم ، و حلفاءه العرب المسيحيين قد عزموا على التوجه إليه [٥٧] .

كان الحرُّ شديداً ، و أوضاع النّاس الماديّة سيئةً بسبب الجَدْب ، فتجهّز المقاتلون على كره ، و لذلك سُمي الجيشُ **جيشَ العُسْرَةِ** ، و سميت الحَمْلَة **غزوةَ العُسْرَةِ** لقول القرآن : ﴿ الَّذِين اتَّبَعُوهُ في سَاعَةِ العُسْرَةِ ﴾ .[٥٨] و زاد من مصاعب تجهيز الجيش أنّ قرار الحَمْلَة جاء و الحالة الداخليّة في المدينة كانت شديدة الحساسيّة ؛ إذ تعقّد الوَضْع في المدينة سياسِيّاً واجتماعيّاً ، و برزت أعراض أزمة

---

[٥٥] اللّعاعُ : نبات الهِنْدباء ، و الجَرْعة من الشَّراب ، و الكلأ الخفيف ، و هي هنا كناية عن الغَنائِم .
[٥٦] الكامل : ٢ / ٢٧١ ـ ٢٧٢ ؛ هشام : ٢ / ٥٠٠ .
[٥٧] تاريخ الطبري : ٢ / ١٨١ ؛ الكامل : ٢ / ٢٧٧ .
[٥٨] التوبة / ١١٧ .

خطيرة هدّدت بتقويض استقرار المركز الراسخ و الوحيد للإسْلام حينئذٍ ، و حيث يوجد جنين الدّوْلَة الإسْلاميّة المقبل ، و قد برزت أعراض هذه الأزْمَة
عبر انتشار النفاق ـ المعارضة ـ في المدينة بعد اسْتِيْلاء مُحَمَّدٍ على مكّة ، و انتصاره في معركة حُنَيْنَ ، إذ أُصيب الأنصار بالخيبة بسبب من المعاملة الخاصّة الَّتِي حظي بها المَكّيّون بُعيد الاسْتِيْلاء على مدينتهم ، و بعد موقعة حُنَيْنَ ؛ سِيّما أنّ الأحداث جرت خلافاً لتوقعات الأنصار ، أو ربّما لآمال الَّذِين أرادوا صنع مَلْحَمةٍ بالقرشيين كما عبّر عن ذلك زعيمهم سعد؛ كما لم يكن الأنصار يشعرون بالرضى على إعلان مُحَمَّدٍ قُبيل دخول مكّة ، و الَّذِي نصّ على أنّه : ((مَنْ دخل دارَ أبي سفيان فهو آمن ، و مَنْ أغلقَ بابه فهو آمن ، و مَنْ ألقى السلاح فهو آمن)) ، فقال بعضهم لبعض : ((أمّا الرّجُل فأدركته رغبة في قرابته و رأفة بعشيرته)) .[٥٩]

كان الأنصار يأملون بالحصول على غَنائِم تعوضهم تكاليف سنوات الصراع الثّمَانية مع قُرَيْشٍ ، و لتكون أيضاً اعترافاً بمركزيّة نضالهم في تحقيق النصر الكبير عليها ؛ لكنّ دهشة الأنصار كانت كبيرةً بصدور قرار العفو دون الرجوع إليهم ، و دون أنْ يسفر الاسْتِيْلاء على مكّة عن أيّة غَنائِمَ ؛ و زادت معركةُ حُنَيْنَ من تعقد الوَضْع ، و الَّتِي أبلى فيها الأنصار بلاءً حسناً ، و بفضلهم حقق جيش مُحَمَّدٍ النّصْر ، بعد أنْ كادت قوات المسلمين تُمنى بالهزيمة ، و مُحَمَّدٌ نفسه هو من استنجد بهم بعدما رأى فرار مقاتليه ؛ فعبّر الأنصار عن هذه المفارقة ، فقالوا بعد قِسْمَة غَنائِم حُنَيْنَ : ((إنّ هذا لهو العجب أنّ سيوفنا تقطُر من دمائهم و إنّ غَنائِمنا تُرَدُّ عليهم)) .[٦٠]

كانت غَنائِمُ حُنَيْنَ كافيةً لتعويض الأنصار ـ و لو نسبيّاً ـ عن نتائج مكّة المخيبة لآمالهم ، لكنّ مُحَمَّداً وفق حسابات سياسِيّة دقيقة تُراعي مجمل العوامل السيا ـ اجتماعيّة ، الَّتِي تحيط به ، قرّر أنْ يقدّم ثمن الاسْتِيْلاء على مكّة للقبائل المشاركة في صنع هذا الحدث ، و الَّتِي شاركت من أجل الحصول على الغَنائِم و حسب ؛ و أحد أبرز الأمثلة هو عُيَيْنَة بن حِصْن الَّذِي شارك قُرَيْشاً في غزوتها الفاشلة للمدينة ـ الخَنْدق ـ ، كما شنّ في السّنة السادسة للهجرة هجوماً على مشارف المدينة ، و استطاع الاسْتِيْلاء على إبلٍ لِمُحَمّدٍ نفسه ، وقتل راعيها ،

---

[٥٩] فُتُوح البُلدَان ، ٥٢ .
[٦٠] مسند أحمد ، رقم : ١٢٢٦٩ .

و خطف زوجه .[٦١] و في حصار الطائف علّل عُيَيْنَة مساعدته مُحَمَّداً برغبته في الحصول على فتاةٍ منهم كي تنجب له ولداً ، لأن ثقيفاً كانت مشهورة بالدهاء و الفطنة .[٦٢]

شرع مُحَمَّدٌ يوزع الغَنائِمَ على هذه القبائل ، و أعطى بسخاءٍ لقياداتها ، مثل عُيَيْنَة الَّذِي وصفه بـ ((الأحمق المطاع))[٦٣] مستثنياً الأنصار ، كما كان مضطراً لرشوة القرشيين ، و لتهدئتهم من أجل كبح نزعات التمرّد لديهم على سلطته ، بوصفهم حديثي العهد بالإسْلام كما شرح للأنصار .[٦٤] و إذ تمكّن مُحَمَّدٌ من السيطرة على انفعالات الأنصار بخطبةٍ مؤثرةٍ في ساحةِ المعركةِ ، و منع الحدث من التفاعل سلبياً في الميدان ، إلاّ أنّه لم يستطع إنهاء تداعيات هذه القضيّة ، و أخفق في إخماد جذوة الغضب الثاوي في نفوس الأنصار . كان هذا الوَضْع بلا شك بيئةً خصبةً لمشاعر الإحباط و الغضب ، و الشّعور بالظّلْم ، و ربّما لبروز أسئلة مشروعة من قِبل الأنصار عن مصيرهم بعد كلّ ما قدموه من تضحيات للحركة الإسْلاميّة ؛ ولهذا بالضبط قرر مُحَمَّدٌ القيام بحَمْلَة تَبُوك ، بالرغم من تبرّم النّاس منها ، و بروز معارضة جديّة لها ، و كانت إحدى الحجج الرئيس لمعارضي الحَمْلَة هي شدة الحر ، و عدم ملائمة الطقس للقيام بهذه المهمة ، لكنّ القرآنَ رفض هذه الحُجّة و حذرهم من نارٍ أشد حراً ، فجاءت الآية تقول : ﴿ و قالوا لا تنفِرُوا في الحرِّ ، قُل نَارُ جَهَنّم أشدُّ حرّاً لو كَانُوا يَفْقَهُون ﴾ .[٦٥] كما كان بعض المعارضين يجتمعون في **بيت سويلم اليهودي** ، يثبّطون النّاسَ عن المشاركة فيها ؛ و إذ كان الوَضْع السياسِيّ لا يحتمل التساهل فقد بعث مُحَمَّدٌ إليهم طلحة بن عبيد الله في مجموعة من أتباعه و أمرَهُ أن يُحرّق البيت على المجتمعين .[٦٦]

يقدم د. شوفاني تفسيراً إضافياً ، و هو مستخلص من رواية عن ابن عباس ، واردة في تاريخ ابن عساكر ، و تفيد الرِّوايّة بأنّ مُحَمَّداً بعد رجوعه من الطائف ،

---

[٦١] ابن هشام : ٢ / ٢١٥ ، ٢٨١ ؛ تاريخ الطبري : ٢ / ١٠٥ .
[٦٢] ابن هشام : ٢ / ٤٨٥ ؛ تاريخ الطبري : ٢ / ١٧٥ .
[٦٣] ابن هشام : ٢ / ٢١٤ ، هامش " ٤ " .
[٦٤] البخاري ، رقم : ٣٩٨٩ .
[٦٥] التوبة : ٨١ .
[٦٦] ابن هشام : ٢ / ٥١٧ ؛ تاريخ الطبري : ٢ / ١٨٢ .

انتشر النفاق في المدينة ، و كثر ((أصحاب الصُّفَّة)) ،[٦٧] و أصحاب الصفة كانوا ناساً من المسلمين لا مَنازل لهم ، فكانوا ينامون في المسجد ، لأنهم كانوا لا يملكون مأوى غيره ، و ليس لهم عشائر توفر عنهم مذلة الحاجة ، و قد بلغ عددهم حوالي الأربعمئة .[٦٨] و يفهم من رواية ابن عباس أن عدد الفقراء بين المسلمين قد ازداد ، و لم يكن مُحَمَّدٌ يملك الموارد لإعالتهم . و من أجل الإسراع بتجهيز الحَمْلَة ، حثّ مُحَمَّدٌ أغنياءَ المسلمين على تمويلها ، وقد أدركت هذه النّخبة الماليّة خطورة الموقف الداخلي ، و استشعرت إرهاصات الانفجار الاجتماعيّ ؛ فقامت بواجبها ، و كان عثمانُ بنُ عفانَ أبرز المموّلين لها .[٦٩]

تجمّعت القوات المتجهة إلى تَبُوك ، و توزعت إلى قسمين : القسم الأول مع مُحَمَّدٍ ، و تمركز في ثنيَّة الوَدَاع ، و القسم الثاني مع عبد اللَّه بن أبيّ ابن سلول ، و تمركز أسفل قوات مُحَمَّدٍ ؛ كانت قوات ابن سلول لا تقلّ عدداً عن قوات مُحَمَّد ، فلمّا سار مُحَمَّدٌ بقواته ، تخلّف عنه ابن سلول ، و ينقل الطبري قول الحسن البصري إن فيهم جاءت الآية : ﴿ لقد ابتغوا الفِتْنةَ مِنْ قَبْلُ ، و قلّبوا لكَ الأمُورَ ﴾ .[٧٠] و حسب سيرة ابن كثير فإن ابن سلول تخلف هو ((و طائفة من المنافقين ، و أهل الريب)) ، فهل يعني أن القوات الَّتِي كانت تحت أمرته تابعت المسير تحت قيادة مُحَمَّدٍ ؟ يمكن أن يكون هذا الاحتمال صحيحاً ، و يمكن أن لا يكون على أساس أن جزءاً كبيراً من قوات هذه الحَمْلَة كان من القبائل البدوية ، و ربما كانت مشاركة بعضهم متأتية من العلاقة الوثيقة بشخصيات يثرب النافذة ، علاوة على الطمع في الغَنائِم ، و نحن نرجح الاحتمال الثاني ، دون أن نصل به درجة اليقين .

وصل مُحَمَّدٌ إلى تَبُوكَ ، و هناك عقد اتفاقاً مع يُوحَنَّا بن رُؤبة صاحب أيْلَة [العقبة اليوم] ، مقابل إعطاء الجِزْيَة ، و أتاه أهل جَرْباء و أذرُح ، فأعطوه الجِزْيَة ، مقابل اتفاقات محددة و صالح أهل مَقْنا على ربع ثمارهم و كانوا يهودَ .[٧١] ثُمّ أقام

---

[٦٧] حروب الرَّدة (دراسة نقديّة في المصادر) ، د. الياس شوفاني ، دار الكنوز الأدبية ، بيروت ، ١٩٩٥ ، ص ٥٤ ، ٥٦ .
[٦٨] القرطبي : النور / ٣ .
[٦٩] ابن هشام : ٢ / ٥١٧ ـ ٥١٨ .
[٧٠] تفسير الطبري ، التوبة : ٤٨ ؛ تاريخ الطبري : ٢ / ١٨٢ .
[٧١] الكامل : ٢ / ٢٨٠ ؛ فُتُوح البُلدَان ، ٧١ .

في تَبُوك حوالي العشرين يوماً ، و لم يحدث الصدام المفترض مع الروم و العرب المسيحيّين، فعاد إلى المدينة .

عملياً لم تغنمْ هذه الحَمْلَة شيئاً ذا بال ، و كان يمكن أن توفّر لأصحاب الصفة حاجاتهم، و تعوض الأنصار عن نتائج الاسْتِيْلاء على مكّة و معركة حُنَيْنَ العقيمة ، و أرضت قُرَيْشاً الَّتِي خسرت في سنوات العداء مع المسلمين . لكن تواجد هيركليوس في حمص آنئذ هو الَّذِي ردع المسلمين على المغامرة و التوغل في سوريا .[٧٢] و مع ذلك فإنّ الحَمْلَة عادت على حركة الإسلام بفائدتيْن ؛ الأولى ، و هي الهدف الرئيس ، إذ خففت من احتقان الأنصار ، ومكّنت مُحَمّداً من تجاوز مخاطر وقوع صراع داخلي في مَثابَته . و سيتمكن مُحَمَّدٌ من تجاوز هذه المعضلات عند رجوعه المدينة مع بدء وفود القبائل العربيّة بالقدوم إليه ، و اضطرار مجتمع المدينة إلى أن يظهر تماسكاً داخلياً من أجل المحافظة على النفوذ الصاعد للمدينة ؛ و الفائدة الثّانية ، تعكسها وجهة النظر التالية ، و هي عندما يهاجم الأمير الشديد الميل لخوض الحروب دولةً قويةً ؛ فإنّه ينشر الذّعْر في صفوف خصومه و حلفائه ، مما يحول بينهم و بين الاتحاد ضده .[٧٣]

محاولة اغْتِيال مُحمَّدٍ

في طريق عودته أمر مُحَمَّدٌ الجيش بالمسير من وادٍ ، و صعد هو طريقاً في أعلى الجبل ، و كان معه عمار بن ياسر ، و حذيفة بن اليمان .

اغتنمت مجموعة معادية لِمُحَمَّدٍ الفرصةَ ، فتوجهت إليه و كانت ما بين اثني عشَر إلى خمسة عشَر فرداً ، و كان أفرادها متلثمين ، فحاولوا طرحه في الطريق من رأس هذه العقبة، لكنَّ المحاولة باءت بالفشلِ لأن حذيفة لوح أمام وجوه رواحلهم بمِحْجَنه ،[٧٤] فأسرعوا بالفرار ، و دخلوا بين الجند ، فقال القرآن : ﴿ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ﴾ .[٧٥] و لا يُعرف أحدٌ مِنَ المشاركين في هذه العملية الفاشلة ،[٧٦] الَّتِي

---

[٧٢] شوفاني / ٥٥ ، ٥٦ .

[٧٣] Sun Tzu, op.cit. , (XI , 54).

[٧٤] المِحْجَن : العصا المعقّفة الرأس .

[٧٥] التوبة / ٧٤ .

[٧٦] سيرة ابن كثير ، غزوة تَبُوك ؛ تفسير ابن كثير و البيضاوي ، البغوي ، التوبة : ٧٤ . ألصقت الرّوايَات المتأخرة التهمة بعبد اللّه بن أُبي ، و سعد بن أبيّ سرح (د حسان : ١ / ١٦٤) دون إثباتٍ .

جاءت في سياق الأزمة السياسِيّة في المدينة ، فأبرزت بجلاء حدتها ، و الَّتِي كانت تهدد بإعصار يكتسح المركز الإسْلاميّ من الداخل .

لما اقترب مُحَمَّدٌ من مشارف المدينة أمر مجموعةً من جنده بالتوجه إلى مسجدٍ من أجل هدمه ، و قد أُطلق على المسجد اسم **مسجد الشقاق** ، و كان هذا المسجد قد أُنجز بناؤه عشية حَمْلَة تَبُوك ، و طلب بُناته من مُحَمَّدٍ القدوم إليهم ليصلي فيه ، لكنّه أعتذر منهم ، و وعدهم عند رجوعه ؛ و عِوَضاً عن الصَّلاَة فيه أمر بتحريقه على أساس المؤشرات الَّتِي كانت بحوزته ، و الَّتِي تشير إلى أن بُناته يرتبطون بعرىً وثيقةٍ بأعدائه السياسِيّين ، و كان أبو عامر الراهب ـ أحد أعداء مُحَمَّدٍ العنيدين ـ ملهماً روحياً لبُناة المسجد ، و قد لعب المناخ السياسِيّ العاصف في المدينة دوراً رئيساً في بنائه .[٧٧]

عند أوبة مُحَمَّدٍ إلى يثربَ كان التوتر السيا ـ اجتماعيّ مازال مهيمناً على الحياة فيها كما تبرزه قضية مسجد الشقاق ؛ و لهذا كان يتأتى عليه معالجة الموقف بحكمة ، و روية ، للسيطرة على مسارات التوتر ؛ لكنّه سَرْعانَ ما تجاوز هذه الأزمة عندما بدأ يحصد نتائج سنوات نضاله ، و كانت أبرز هذه النتائج استسلام ثقيف بعد أن جاءهُ وفدها عقب رجوعه من تَبُوك ، فساعد إعلان ثقيف الإسْلام بشكلٍ كبيرٍ على تهدئة أجواء المدينة السياسِيّة المتوترة .

ثقيف تعلن الإسْلام (رمضان ٩ هـ / كانون الثاني (يناير) ٦٣١ م)

حُوصرت ثقيف بعد تراجع قوات مُحَمَّدٍ عنها ، إذ شرعت القبائل المحيطة بها ، والَّتِي أعلنت ولاءها لحركة الإسْلام تشن الغارات عليهم باسم الإسْلام بقيادة مالك بن عوف ، فكانت تهاجم القوافل ، و المواشي خارج محيط الطائف ، مما جعل حياة ثقيف معقدةً بكافة جوانبها بعدما ألحقت هذه الهجمات أضراراً فادحةً باقتصادِهم ، و لذلك قرروا الاستسلام ، فبعثوا وفداً برئاسة عبد ياليل بن عمرو لِمُحَمَّدٍ من أجل الاتفاق على شروط الاستسلام . و يبدو أنّ المُغِيرَة بن شعبة لعب دوراً في التمهيد لهم إذ تخبرنا المصادر أنّه التقي بالوفد قُبيل لقاء أعضائه

---

[٧٧] لمزيد من التفاصيل عن قضية " مسجد الشقاق " يمكن الرجوع إلى دراستنا المنشورة في " النّهج " ، صيف ٢٠٠٠ ، ص ٣٠ ـ ٤٥ .

بمُحَمَّدٍ ، و ذلك بحكم جذوره الثقفية ، و كان المُغِيرَة قد أعلن إسْلامه على إثْر قتله في مصر رفاقاً ثقفيين له في التّجارة ، و دون أن نعرف السبب الحقيقي لهذا التصرف ، و التجأ بعد ذلك للمدينة و هناك أعلن إسْلامه قبيل الحُدَيبيَة ، فأمّن لنفسه حمايةً من انتقام أقارب التُّجّار .

طلب الوفدُ من مُحَمَّدٍ السماح لهم بترك اللاّت ثلاث سنين ؛[٧٨] لكن مُحَمَّداً رفض طلبهم، و حاول الوفد مفاوضته على تركها سنةً ، ثُمّ على شهرٍ ، و مُحَمَّدٌ يرفض تركها مهما قصرت المدة الزمنيّة ؛ و يرجع سبب طلبهم لرغبتهم بعدم إثارة أفراد ثقيف ، و لتجنب ردود أفعالهم أو نقدهم على الأقل . و طلبوا منه كذلك أن يعفيهم من الصَّلاَة ، و ألاّ يكسروا أوثانهم بأيديهم .

وافق مُحَمَّدٌ على إعفائهم من كسر أوثانهم بأيديهم و رفض إعفاءهم من الصَّلاَة ، و إذ أُسقط بأيدي أعضاء الوفد بسبب صلابة موقف مُحَمّدٍ بوجه مطالبهم ، فإنهم أعلنوا : ((يا مُحَمّد ، فسنؤتيكها ـ أي الصَّلاَة ـ ، و إن كانت دناءة)) .

بعث مُحَمَّدٌ أبا سفيان بن حَرب و المُغِيرَة بن شعبة ليهدمها ؛ فلما شرع المُغِيرَة بن شعبة يضربها بالمعول ، طَّفِقّ أبو سفيان يقول و المُغِيرَة يضربها بالفأس : ((واهاً لك !)) ،[٧٩] بينا خرجت نساء ثقيف حُسّراً يبكين عليها .[٨٠] و إذا أخذنا بعين الاعتبار طبيعة المنافسة بين ثقيف و قُرَيْش فالمؤكد أنّ أبا سفيان يسخر من اللاّت في هذا الموقف ، أو أنّ الرّوايَات المتأخرة عزت إليه كلمة التأسف هذه للإساءة إلى الأسرة الأموية .

في نفس شهر عودته من تَبُوك أيضاً ، وصلت رسالةٌ إلى مُحَمَّدٍ من ملوك حِمْيَر ويبدو أنها لإقامة الصلة مع الزعيم البارز للتو ، و إن كانت المصادر التّاريخيّة تزعم أنّ نصها يتضمن إقراراً بالإسْلام [٨١] دون أنْ تورد ما يثبت هذا الزعم .

---

[٧٨] تعني اللاّت الإله ، و قد عرفت في آثار تدمر ، و النبط ، و كانت صخرة مربعة أقيم عليها بناء ، و قامت على سدانتها ثقيف . و بلغ من تعظيم العرب اللاّت أن كانوا يسمون أبناءهم زيد اللاّت ، و تيم اللاّت (تاريخ الإسْلام : ١ / ٦١ـ ٦٢) .

[٧٩] واهاً لك : كلمة تقال في معنى الأسف و الحزن .

[٨٠] ابن هشام : م / ٥٤٠ ، ٥٤٢ ؛ تاريخ الطبري : ٢ / ١٨٠ ؛ الكامل : ٢ / ٢٨٤ .

[٨١] تاريخ الطبري : ٢ / ١٩١ ؛ عيون الأثر : ٢ / ٣٠٣ .

تعزّز القوى ـ سنة الوفودِ (٩ هـ / ٦٣١ م)

حدثت تغيراتٌ ملموسةٌ في موازينَ القوى لصالح مُحَمّدٍ مما سمح له بتطوير وسائل نضاله ، فانتقل إلى إستراتيجية هجوميّة محضة ، هذه الإستراتيجية المرتكزة على أفضليات وضعه العامة (تماسك القيادة ، عقيدة دينيّة تتحرك تحت لوائها جيوشه ، توسع رقعة نفوذه السياسِيّ) ، و لهذا قام بإرسال عليّ بن أبي طالبٍ في سرية (ربيع الآخر ٩ هـ) مؤلفةٍ من خمسين و مئة رجلٍ من الأنصار إلى ديار طيِّىءٍ و أمره بهدم صنمهم الفُلْس ؛ فسار إليهم وأغار عليهم مع انبلاج الفجر ، حيث تمكن من كسر الصنم و الحصول على غَنائِم و سبي ، و كانت أخت عَدِيّ بن حَاتِمٍ من جملة السبي و قد هرب عَدِيّ بن حَاتِمٍ إلى الشّام .[٨٢]

سمحت هذه الاستراتيجية الجديدة بإبراز ظاهرة جديدة كل الجُدَة في الجَزِيْرة العَرَبِيّة ، و نعني بها إرهاصات تكّون دولة على قاعدة الحركة الإسْلاميّة الَّتِي تتبع استراتيجيات هجومية فعالة ، و الَّتِي بدأت معالمها بالتوضح في المدينة مع تزايد النزعة الهجومية لهذه الحركة ؛ فأدركت القبائل العربيّة جبروت هذا المركز الصاعد بسبب من عدة عوامل :

١ ـ الانتصار على مكّة ، وهي أهم معقل للوثنيّة العربيّة في الجَزِيْرة العَرَبِيّة ، و قد كانت القبائل العربيّة تراقب باهتمام الصراع الدائر بين قُرَيْشٍ و حركة المسلمين ، فلمّا استولى مُحَمَّدٌ على مكّة أدركت القبائل العربيّة جبروت هذه الحركة ، بعدما أقرت قُرَيْش بالإسْلام ، و هم أهل الحرم ، الَّذِين حماهم الله من اجتياح الأحباش لهم في غزوة الفيل المعروفة ؛ و قد أُعتبرت سورة النصر : ﴿ إذا جاء نصر الله و الفتح ﴾ تتعلق باستسلام مكّة، و إن كان بعض الرواة يرون أنها جاءت بمجيء أهل اليمن .[٨٣]

٢ ـ تجرأ قادتها على التحرك باتجاه بلاد الشّام مرتين (مُؤتَة ، و تَبُوك) ، هذا بغض الّنظر عن طبيعة هذا التحرك و نتائجه العمليّة .

---

[٨٢] الكامل : ٢٨٥ ؛ ابن سعد : ٢ / ١٦٤ ؛ عيون الأثر : ٢ / ٢٥٧ .

[٨٣] تفسير ابن كثير ، و القرطبي ، و تفسير الطبري ، البغوي : سورة النصر .

٣ ـ استسلام ثقيف ، و هي الحاضرة القوية في الحِجَاز و صنو مكّة ؛ مما يعني أن الحِجَاز قد دان برمته لنبيِّ الإسْلام ، و أعلن ولاءه له .

دفعت هذه العوامل زعماء القبائل العربيّة للاتصال بمُحَمَّدٍ ، من أجل فهم طبيعة الحركة الجديدة ، و إبعاد شبح هجمات المسلمين على قبائلهم ، فبدأ وصول الوفود إلى المدينة في السّنَة التاسعة الهجرية (٦٣١ م) ، و لهذا سميت هذه السَّنة **سنة الوفود** .

سنلقي نظرةً على الوفود الَّتِي قدمت إلى مُحَمَّدٍ ، كما سنحاول تفهّم دوافع مجيئهم مُحَمَّداً . و لنبدأ بتعداد الوفود الَّتِي زارت مُحَمّداً ، و سنروي ما قالته المصادر عنها .

وفْدُ بني أسدٍ ـ مطلع السّنَة التاسعة

جاء وفدُ بني أسدٍ مُحَمَّداً سنة تسع هجرية ، و كان مؤلَّفاً من عشَرة أشخاص ـ و قيل إنّ فيهم طُلَيْحَة بن خُوَيْلِد ، الَّذِي سيعلن النُّبُوَّة لاحقاً ـ ؛ فمنّ الوفدُ على مُحَمَّدٍ بأنّهم لم يشاركوا أعداءه معاركهم ضده ، و أنّهم يرغبون في إعلان الإسْلام دون إكراه منه ؛ لكنّ القرآن رد عليهم فوراً : ﴿ يمنّون عليك أن أسلموا قُل لا تمنّوا عليَّ إسْلامكم بل اللّه يمن عليكم أن هداكم إن كنتم صادقين ﴾ ؛[٨٤] لقد أصبح موقع مُحَمَّدٍ السياسِيّ قوياً بما فيه الكافية ، و صار يملك إمكانية مفاوضة زعماء القبائل من موقع السيد الأول للحجاز ، و لم يعد يحتاج بعد الآن لأساليب الدّعْوة التبشريّة ، بل في وسعه التصرف بحرية أكبر ، و دون خشية من رفض القبائل العربيّة لدعوته ، و يقول لهم إنّ اللّه هو الَّذِي يمنّ عليكم أن هداكم . كان مضمون الآية متسقاً مع حقيقة أنّ إعلانهم الإسْلام جاء لدرء مخاطر وقوع هجوم عليهم من قِبل الحركة الإسْلاميّة ، و المحافظة على النّظام القبلي الدّاخليّ لكلِّ قبيلةٍ ، و قد لاحظ القرطبي في تفسيره لهذا الآية بأنّ هذا لا يدل على أنهم كانوا مؤمنين ، لأن تقدير الكلام : ((إنْ آمنتم فذلك منة اللّه عليكم)) .

---

[٨٤] الكامل : ٢ / ٢٨٧ ؛ ابن سعد : ١ / ٢٩٢ ؛ عيون الأثر : ٢ / ٣١٣ ؛ تفسير كثير ، و تفسير الطبري ، القرطبي الحجرات : ١٧ .

وفْدُ بني تميمٍ و سورة الحجرات

في منحى مشابه للدور الَّذِي لعبه مالك بن عوف في استسلام ثقيف ، شنّ عُيَيْنَة الفزاري غارةً على بني تميم في خمسين فارساً ليس فيهم مهاجري و لا أنصاري (محرّم ، ٩ هـ) بتكليف من مُحَمّدٍ ، فتمكّن من أسر أحد عشَر رجلاً و إحدى عشْرة امرأةً و ثلاثين صبيّا مما دفع بني تميم لإرسال وفدٍ إلى مُحَمَّدٍ ، و لما قدم وفدهم المسجد نادوا مُحَمَّداً من وراء حُجُراته طالبين منه الخروج إليهم ، و قالوا : ((إنّ مدحنا زين و ذمنا شين)) ، و كان الوفد مؤلَّفاً من أعراب بني تميم برئاسة الأقرع بن حابس ؛ فآذى صياحهم مُحَمَّداً ، فخرج إليهم ، ثم إنهم أعلنوا ولاءهم له ، فقدم لهم مُحَمَّدٌ الهدايا ، و ردّ لهم الأسْرَى و السَّبْيَ، ومع ذلك نذّد بهم القرآن ، بقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾.[٨٥]

تزايد إدراك القبائل العربيّة إلى أهميّة إقامة الروابط الوديّة مع القوة البازغة ، وقدّرت أنّ عيشها بسلامٍ سيكون مستحيلاً دون ضمان علاقة معينة مع المدينة و قيادتها المتمثلة بالحركة الإسْلاميّة ؛ فشرعت الوفود تَتْرى على مُحَمّدٍ .

سنسرد أسماء الوفود الَّتِي جاءت مُحَمّداً ، و سنرى ماذا قالت المصادر عنها ، ثم نقدم رأينا ، و الوفود هي :

١ ـ ضِمام بن ثعلبة وافداً عن بني سعد بن بكر ، فرجع إلى قومه و أظهر إسْلامه ، فتبعه جميع قومه .

٢ ـ الجارود بن عمرو [٨٦] في وفد عبد القيس ، و كان الجارود نصرانيّاً ، فأعلن إسْلامه ، و أسلم من معه . و لاحقاً بعد وفاة مُحَمّدٍ سينضم الجارود إلى المسلمين في صراعهم ضد القبائل الرافضة للخضوع لهم في أزمنة الصراع بين الحركة الإسْلاميّة ، والقبائل العربية (حروب الردة) .

٣ ـ زيد الخيل في وفد طيِّىءٍ ، و كان زعيماً فيهم ، فلقبه مُحَمَّدٌ ((زيد الخير)) .

٤ ـ رسول ملوك حِمْيرَ ، مخبراً عن إسْلامهم ، فبعث مُحَمّدٌ إليهم مُعاذ بن جَبل .

---

[٨٥] ابن سعد : ١ / ٢٩٣ ـ ٢٩٣ ، ٢ / ١٦٠ ـ ١٦١ ؛ الكامل : ٢ / ٢٩٠ ؛ تفاسير : القرطبي ، و كثير ، الطبري : الحجرات : ٤ .

[٨٦] الجارود بن بشر بن المعلى ، عيون الأثر .

٥ ـ بعث مُحَمَّدٌ خالدَ بنَ الوليدِ إلى بني الحارث بن كعب بنَجْرَان في ربيع الآخر أو جمادى الأولى من السّنَة العاشرة هجريّة ، و كانت الأوامر إليه تنصّ على أن يقاتلهم بعد ثلاثة أيام من الدعوة للإسْلام ، فانصاعوا للتهديد . و بناءً على تعليمات مُحَمَّدٍ قدم خالد بن الوليد مع وفدهم على مُحَمَّدٍ ؛ ثم بعث مُحَمَّدٌ مع الوفد عمرو بن حَزْم ، ليعلمهم شرائع الإسْلام، و يأخذ صدقاتهم .

٦ ـ أما نصارى نَجْرَان فقد أرسلوا وفداً للمدينة ، و عقدوا مع مُحَمَّدٍ صلحاً مقابل جزية معلومة ، و على عَارِية ثَلاثين درعاً ، و ثَلاثين رمحاً ، وثَلاثين بعيراً ، و ثَلاثين فرساً، إنْ استدعت الضرورات وجود قوات إسْلاميّة ، مقابل السلام الدائم بين الطرفين ، و قد بقى نصارى نَجْرَان على ذلك إلى أن تسلّم عمر بن الخطاب الحكم ، فأجلى أهل الكتاب عن الحِجَاز ، و أجلى أهل نَجْرَان ، بعد أن أشترى منهم ممتلكاتهم ؛ فتوزعوا في الأمصار ، حيث ذهب بعضهم إلى العراق ، فاستقروا بالنَجْرَانية الَّتِي بناحية الكوفة ، و بهم سُميت ، و نزل بعضهم الشّام ، و قد طلب عُمَر من أمراء الشّام و العراق العناية بهم و توفير الشروط الضرورية لتوطينهم .

٧ ـ قدم وفد الأزد في السّنة العاشرة هجرية برئاسة صُرَد بن عبد اللَّه ، فأشهر إسْلامه ، فأمّرَه مُحَمَّدٌ على مَنْ أسلم من قومه ، و أمره أن يقاتل بمن أسلم من أهل بيته الوثنيين من قبائل اليمن .

٨ ـ أرسل فَرْوة بن عمرو الجُذامي (١٠ هـ) رسولاً إلى مُحَمَّدٍ ، لينقل إليه قرار إسْلامه ، و كان فروة عاملاً للروم على أهل منطقته ، و كان منزله مُعان في بلاد الشّام ، فألقى الروم القبض عليه لمّا بلغهم إسْلامه ثم قُتل في سجنه .[٨٧]

ما يمكن ملاحظته حول الوفود هي أنها :

أ ـ إن الوفود كانت تشتكي حسب المصادر من جدب البلاد ، و يبدو أنها كانت سنة مجدبة ، و هذا يعنى أنه كان ثَمّة سبب اقتصاديّ يدفع بعض الشخصيات القبلية للقدوم على مُحَمَّدٍ ، و يبدو أنّهم كانوا يرغبون بتلقي مساعدات منه بوصفه زعيماً يساوي في نظرهم زعيم قبيلة قوية ، حيث كانوا ينظرون ـ حسب مقاييسهم ـ للحركة الإسْلاميّة على أنها قبيلة. كان دَيْدَن زعماء القبائل

---

[٨٧] تاريخ الطبري : ٢ / ١٩٦ ؛ ابن سعد : ١ / ٣٥٨ ؛ فُتُوح البُلدَان ، ٧٧ ؛ الكامل : ٢ / ٢٩٣ ـ ٢٩٤ ، ٢٩٧ ـ ٢٩٨ ؛ عيون الأثر : ٢ / ٢٩٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٥ .

البدوية، و كبار الشعراء الذهاب لملوك الدول المجاورة للجزيرة العربيّة من أجل تلقي العطايا و المساعدات .

ب ـ بالفعل كان مُحَمّدٌ يتصرّف وفق تلك الرؤية ، فكان يقدم الجوائز و العطايا لأعضاء الوفود بسخاء ، و كان يقدر أهمية ذلك بالنسبة لمجتمعات الجَزِيْرة العَرَبِيّة ، و تقول الرّوايَات إنه أوصى و هو على فراش الموت بالاستمرار بهذه العادة .

ج ـ لم تكن الوفود مخولّة بالتّفاوض مع مُحَمَّدٍ على الإقرار بالإسْلام ، بل كان أغلب الوفود مبادرات فردية من أصحابها لا غير ، و لا يتمتع أفرادها بأية صفة تمثيليّة ، و إذا حدث أن أعلن وفدٌ إسْلامه ، فإنّ ذلك لم يعنِ بأي شكلٍ بقية أعضاء القبيلة الَّتِي ينتسب إليها الوفد ، كما حدث مع وفد من غسان (١٠ هـ) حيث أعلن الوفد إسْلامه لكنه لم يستتبعه إقرار غسان بالإسْلام .[٨٨] و يعود عدم تمتع الوفود بصفة تمثيلية إلى طبيعية التكوينات القبلية الَّتِي تغيب فيها أشكال السُّلْطَة السياسِيّة .

د ـ كانت بعض هذه الوفود مدفوعة بهواجس داخلية ، حيث سعت بعض الشخصيات لإنشاء تحالفات خارجية من أجل إحداث انقلاب في مواقع السُّلْطَة داخل قبيلتها . و كان هذا سلوكاً متبعاً في الأزمات القبليّة الداخلية كما سنرى مع قصي بن كلاب ، و الأوس والخزرج أيضاً .

إن المصادر التأريخية تتجاهل هذه الحقائق ، و لهذا ترى في مجيء الوفود إقراراً بالإسْلام من قبل القبائل الَّتِي تنتسب إليها الوفود . و الحقيقة كانت تكمن في أنهم سعوا لعقد علاقات مع جارٍ قوي بارزٍ للتو ، و هي لم تكن ولاءً للإسْلام كدين ، أو لمُحَمّدٍ كنبي ، بل علاقة مع مُحَمّدٍ كزعيم لمجتمع ناهض ، لا يجوز من الآن تجاهله ؛ و الأحداث اللاحقة الَّتِي سندرسها محاولة لإماطة اللثام عن طبيعة العلاقات القبليّة ـ السياسِيّة في عربيا العهد المُحَمّدي .

---

[٨٨] عيون الأثر : ٢ / ٣٢١ .

البَرَاءَة ـ اكتمال القوة (٩ هـ / ٦٣١ م)

في السّنَة التاسعة هجرية (٦٣١ م) بعث مُحَمَّدٌ أَبَا بَكْر أميراً على الحجّ ، و ليشرف على شئون المسلمين فيه ، في حين كان الوثنيون العرب يتجهون للحجّ وفق شعائرهم الوثنيّة . و بينا أَبُو بَكْر في طريقه إلى مكّة حدث انقلاب كبير في ذهن مُحَمَّدٍ ؛ لكنّه كان ينسجم تماماً مع حالة القوى السياسِيّة في الجَزِيْرة العَرَبِيّة ، إذ قرر إلغاء تواجد الوثنيين كلياً في مكّة ، ومحو طابعها الوثني . كان هذا القرار يأخذ بعين الاعتبار ما استجد من الأوضاع ، فإلى جانب ما سبق من عناصر قوة كانت وراء استسلام ثقيف ، أُضيف عنصرٌ آخرُ لجبروت الحركة الإسْلاميّة ، و هو قدوم وفود القبائل ، فتزايدت حوافز مُحَمَّدٍ لتطوير استراتيجيته الهجوميّة .

دعا مُحَمَّدٌ عليَّ بن أبي طالبٍ ، و طلب منه تبليغ قراره بأنّ هذا العام آخر عام يحجّ فيه الوثنيون ، و من العام القادم سيُمنعون من الحج ، و بعث معه بآيات من سورة « **براءة** »، ما بين الثلاثين و الأربعين آيةً ، فقرأها عليٌّ على الحُجّاج يوم عرفة ، و في مواقع إقامتهم.[٨٩]

لقد تحقق اليوم الحلم الكبير ، انتهى العهد الوثني لمكّة ، و بدأ عهدها التوحيدي ، ولتكون لا قبلة المسلمين الروحيّة و حسب ، بل قبلة التوحيد السياسِيّ لقبائل الجَزِيْرة العَرَبِيّة ، و الَّذِي بدأ يتبلور أكثر فأكثر في ذهنه مع انتصارات حركة الإسْلام .

فرض الزّكاة

في نفس الوقت ، بدأت تبرز مشكلات جديدة لمُحَمّدٍ ، و هذه المرة تتعلق بالتمويل اللازم لإدارة المدينة ، و توفير حاجات الحركة الإسْلاميّة بعدما قلّت عوائد الغارات مع توسع نفوذ الإسْلام ، و انحسار المساحة الَّتِي يمكن القيام فيها بالغارات ، و قد استدعت مسألة توفير مصادر مالية للحركة الإسْلاميّة من مُحَمَّدٍ انتهاج طريقيْن : الأولى ، توسيع النشاط العسكريّ، ليشمل مناطق أبعد فأبعد عن مركز الإسْلام ، مثلما كان في مُؤتَة و تَبُوك ، و كانت الظروف غيرَ مهيأةٍ بعد

---

[٨٩] تاريخ الطبري : ٢ / ١٩٢ .

للانتقال إلى هذه الاستراتيجية ، و هي لن تتهيأ إلا في عهد خليفته أَبي بَكْر ؛ الثانية ، توفير مصادر تمويل من الداخل ، و لهذا فُرضت الزّكاة (أو الصّدَقة) في السّنَة التاسعة هجرية ، و تعيّن الفرض الجديد بالآية : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ ﴾ .[٩٠]

من أجل جمع الزّكاة عيّن مُحَمَّدٌ عُمّاله في كلِّ الأنحاء الَّتِي أعلنت خضوعها للحركة الإسْلاميّة ، و فيما يلي قائمة بأسمائهم :

١ ـ أرسل المهاجر بن أبي أميَّة بن المُغِيرَة إلى صنعاء ، لكنّه سيواجه فيها تحركاً معادياً بقيادة الأسود العَنْسيّ .

٢ ـ وجّه زياد بن لبيد الأنصاري إلى حَضْرَمُوْتَ .

٣ ـ عيّن عَدِيّ بن حَاتِم الطائي على طيِّيءٍ ، و على بني أسدٍ .

٤ ـ عين مالك بن نُويرة على صدقات بني حنظلة ، و ينتمي ابن نويرة إليهم .

٥ ـ كما طلب من زعيمَيْن من بني سعد جمع الزّكاة ؛ فبعث الزّبرقان بن بدر على ناحية منها ، و قيسَ بن عاصم على ناحية .

٦ ـ بعث العلاء بن الحضرميّ على البَحْرين .

٧ ـ بعث عليّ بن أبي طالبٍ إلى أهل نَجْرَان ، ليجمع صدقَتهم و يَقْدَم عليه بجِزْيَتِهِم.[٩١]

لكنْ لن يُقدّر لِمُحَمَّدٍ أنْ يتسلّم أموال الزّكاة (الصدقة) إذ لن يلبث إلاّ أنّ يغادر العالم الأرضي .

حِجَّة الوَدَاع
(ذو الحجة ١٠ هـ / آذار (مارس) ٦٣٢ م)

في ذي القعدة من السّنَة العاشرة للهجرة (٦٣٢ م) ، خرج مُحَمَّدٌ لأداء الحجّ ، و هي حجته الوحيدة ، و الأخيرة ، و لم يكن قد حجّ منذ إعلانه النُّبُوَّة ؛[٩٢] فحدّد فيها طقس الحجِّ حسب المنظور الإسْلاميّ ، و أثناءها ألقى خطاباً أرسى فيه إِسْلاميّاً مَعالِم النّظام الاجتماعيّ ، الَّذِي بدأ بالتكوّن في الجزيرة العربيّة ؛ و لهذا

---

[٩٠] التوبة : ١٠٣ .

[٩١] ابن هشام : ٢ / ٦٠٠ ؛ الكامل : ٢ / ٣٠١ . يورد ابن سعد ٢ / ١٦٠ قائمة مختلفة .

[٩٢] ابن سعد : ٢ / ١٧٣ .

فإنّ نصّ خطاب حِجّة الوداع يحتاج إلى وقفةٍ تحليليةٍ للكشف عن دلالته السيا ـ اجتماعيّة .

المَعَالِم السيا ـ اجتماعيّة لخطاب حجّة الوَدَاعِ

إلغاء الثَّأْر

نشأ نظام الثَّأْر بسبب من غياب السُّلْطَة في مجتمعات الجزيرة العربيّة ، و افتقاد القبائل لأجهزة إدارة داخليّة تسيّر أمورها ، و تمثّل إرادة أفراد القبيلة ؛ كانت هذه الوَضْعية تعني افتقاد الجزيرة العربية لقانون عام مكتوب ، و لهذا كان تحقيق العدالة ، و حفظ النّظام الاجتماعيّ في القبيلة يتم عبر القوانين المرعيّة المتوارثة ، ذات الطبيعة الشفوية في كل منها (العادات و التقاليد) ؛ أما على المستوى الأوسع ـ مستوى العلاقة بين القبائل ـ ؛ فإن الثَّأْر كان الضمانة الوحيدة للاقتصاص من منتهكي حُرْمات القبائل ، فعلى خلفية غياب سلطة مرجعية عامة للقبائل ، و عدم وجود السُّلْطَة القهرية المتمثلة بالدّوْلَة ؛ لم يكن متاحاً لأسرة القتيل توسل تطبيق العَدالَة إلا عبر آليات أخرى ، و كان الثَّأْر الآليةَ الوحيدة لتطبيق العدالة ، و إذ كان الفرد جزءاً من أنا القبيلة ، و لا يشكل كياناً إنسانياً مستقلاً بذاته ، فإن مهمة الأخذ بالثَّأْر كانت منوطة بالأنا الأكبر (الأسرة ، العشيرة ، أو حَتّى القبيلة) ، أي الكيان الأعم و الأنا الحقيقي للفرد ، و كان القصاص يقع بدوره على الفاعل العام (أي فرد من الأسرة أو العشيرة أو القبيلة) و ليس شرطاً على الفاعل الفرد (الجاني) ، الَّذِي كان يُنظر إليه كعضو في جسم القبيلة ، أو كجزءٍ من الأنا .

وفر الثَّأْر حمايةً فعالةً نسبيّاً من الانتهاكات ، مع إدراك القبائل أنّ كلَّ مجرمٍ لا بد وأن ينال عقابه ، مما كان يدفع بالقبائل لمراقبة أعضائها تجنباً للثّأْر ، و الثَّأْر المضاد ؛ لكن من الجهة المقابلة ، كان الثَّأْر يفتح أحياناً أبواباً واسعةً للانتقام و الانتقام المضاد ، و قد يطول الصّراع سنوات و سنوات و تسيل الدماء أنهاراً قبل أن يتمكن الحكماء من الجانبين أو من طرف ثالث خارجي من إنهاء سلسلة الثَّأْر و الثَّأْر المضاد .

إذاً ، كان الثَّأْر معادلة ذات عاملين يتبادلان التأثير ، فمن جهة نشأ عن غياب السُّلْطَة السياسِيّة في القبيلة ، و التفكّك الاجتماعيّ و غياب السُّلْطات العامة في الجَزِيْرة العَرَبِيّة ، ومن جهة ثانية فإنّ استمراره يعنى تعزيز أسس التفكك الاجتماسِيّ ، كما كان بقاؤه يعني بقاء عامل نابذ للوحدة لا يمكن التقليل من خطره على مشروع تأسيس مجتمعٍ متماسكٍ بقيادة حركة عقائديّة دعْ عنك دولة .

منذ الاسْتِيْلاء على مكّة كان مُحَمّدٌ يعمل على إزالة عناصر التجزئة ، و قد أمر بتحطيم الأصنام بوصفها عائقاً روحيّاً ، و كان من الطبيعي أنْ يطالب لاحقاً بوقف الثَّأْر بوصفه عائقاً بوجه الوحدة الناشئة على الصعيد الاجتماسيّ ، و معارضاً خطيراً لسيرورة تكّون سلطة قهرية ، تُعنى بمسألة إدارة جميع عمليّات المجتمع ؛ و لهذا أعلن في الخطاب : إنّ ((كلّ دمٍ في الجاهليّة موضوعٌ ، و إنّ أوّل دمائكم أضع دمُ ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وً كان مُستَرضعاً في بني ليث ، فقتله هُذَيل فهو أوّل ما أبدأ به من دماء الجاهلية)).

المرأة

ثمة تطورات لفت مُحَمَّدٌ النظر إليها بصدد المرأة ، و قد تعيّنت بكلماته التالية :

((أما بعد أيّها النّاس ، فإنّ لكم على نسائكم حقّاً ، و لهنّ عليكم حقاً ، لكم عليهنّ ألاّ يوطئن فُرشَكُمْ أحداً تكرهونه ، و عليهنّ ألاّ يأتين بفاحشة مُبَيّنة ، فإن فعلن فإنّ اللّه قد أذن لكم أن تهجروهنّ في المضاجع و تضربوهنّ ضرباً غير مُبَرَّح ، فإن انتهين فلهنّ رزقهنّ وكُسوتهنّ بالمعروف و استوصوا بالنساء خيراً فأنهنّ عندكم عَوَانٍ [٩٣] لا يمْلكن لأنفسهنّ شيئاً، و إنّكم إنّما أخذتموهنّ بأمانة اللّه ، و استحللتم فرُوجَهنّ بكلمات اللّه)) .[٩٤]

و في نص آخر مروي عن عمرو بن خارجة قال مُحَمَّدٌ :

((لا تجوز وصيّة لوارث ، و الولد للفراش ، و للعاهر الحَجَر ، و من ادّعى إلى غير أبيه ، أو تولى غير مواليه ، فعليه لعنة اللّه و الملائكة أجمعين ، لا يقبل اللّه منه صَرْفاً و لا عدلاً)) .[٩٥]

---

[٩٣] عوان ، ج عانية ، الأسيرة .
[٩٤] ابن هشام : ٢ / ٦٠٣ ـ ٦٠٤ ؛ تاريخ الطبري : ٢ / ٢٠٥ ـ ٢٠٦ ؛ و في الكامل باختصار : ٢ / ٣٠٢ .
[٩٥] ابن هشام : ٢ / ٦٠٥ ؛ ابن سعد : ٢ / ١٨٣ باختلاف الألفاظ .

في هذا القسم من خطاب مُحَمَّدٍ يظهر بشكلٍ جلي جوهر الإسْلام الذّكوريّ ، فقد نشأ الإسْلام في طور الأخير للمشاعيّة الصحراويّة [٩٦] في الجزيرة العربية ، و انعكست المشاعيّة في أشكال زواج ، و علاقات جنسيّة كانت باقية في الجَزِيْرة العَرَبِيّة حَتّى زمن الإسْلام الأول، و كانت الأشكال الّتِي تعبر عن بقايا المشاعيّة :

١ ـ **نكاح العُمْرة** : حيث ينتقل الزوج إلى بيت زوجه .[٩٧]

٢ ـ **الرَّهْط** : الرَّهْطُ ما بين الثلاثة إلى التسعة ؛ حيث تمارس المرأة الجنس معهم برضى منها ، و اتفاق بينهم و بينها ، و في حال حملت فإنها تستدعي هؤلاء الرهط لاجتماعٍ، ثم تختار أحدهم قائلةً : ((هذا ابنك يا فلان)) ، و لا يستطيع هذا الشخص رفض قرارها .

٣ ـ **المُبَاضَعة (الاسْتِبْضَاع)** : و هو أن يطلب الزّوج من زوجته دعوة رجلٍ معروف بصفاته البدنيّة أو الخُلقية لممارسة الجنس معه ، و لا يمارس الزّوج الجنسَ مع زوجته حَتّى يتبين حملها ، و تهدف المباضعة إلى الحصول على ولد يحمل سمات المُبَاضِع .

٤ ـ **الخِدان** : المرأة ذات الخِدْنِ ، الّتِي تقيم علاقة جنسيّة سريّة مع رجلٍ واحدٍ (خليل ، صديق) ، على عكس البغاء ؛ و لم تكن هذه الممارسة مستنكرة في الجَزِيْرة العَرَبِيّة قبل الإسْلام ، و قد رفض الإسْلام هذا السلوك و إليه تشير الآية : ﴿ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ﴾.[٩٨]

٥ ـ **زواج المُتْعة** : و قد بقي في الإسْلام . و ربما آخر ما بقي من المشاعيّة في المنظومة الإسْلاميّة .

٦ ـ **البَدَل** : حيث يقترح الرّجل على آخر تبادل الزوجات ، فيقول له : ((انزل لي عن امرأتك و أنزل لك عن امرأتي)) .

---

[٩٦] من المؤكد أنّ توصيف النّظام الاجتماعيّ على أنّه الطور الأخير للمشاعيّة الصحراويّة سيثير جدلاً بسبب عموميته ، و ليس بوسعنا هنا مناقشة هذه القضية كونها مسألة خارج سياق الكتاب ؛ لكنّني فضلت عدم الأخذ بمصطلح **نمط الإنتاج الأسيويّ** هنا ؛ و ذلك لأنّ هذا النمط خاص بمناطق الأنهار الكبرى ، حيث تتركز بأيدي الدّوْلَة الوظائف الضروريّة للنضال ضد الفيضانات ، و تأمين الري ، و هذا ما يسمح للطبقة الحاكمة بقيادة المستبد بالاستئثار بالمحصول الزائد ، و هو أمرٌ لم يكن موجوداً في الحجازِ . ثمّ إنّه ليس من السهل تبني توصيف واحدٍ لمختلف مناطق الجزيرة العربيّة .

[٩٧] فصول عن المرأة ، هادي العلوي ، دار الكنوز الأدبية ، بيروت ، ١٩٩٦ م ، ص ٢١ .

[٩٨] النساء / ٢٥ .

٧ ـ **البغاء** : حيث تضع المرأة راياتٍ أمام بيتها ليكون لها عَلَماً ، و تمارس الجنس مع الرجال الراغبين ، و إذا حملت ، و وضعت المولد ، تأتي القّافَة ، و تحدّد لِمَنْ يرجع الولد، حيث يلحق به ، و إلى هذا المسلك يشير القرآن : ﴿ الزَّاني لاَ يَنكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً و الزَّانِيَةُ لاَ يُنكِحُهَا إلاّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ﴾ (النور : ٣) .[٩٩]

مع الإسْلام كانت هذه العلاقات قد قاربت على الاضمحلال في الجَزِيْرة العَرَبِيّة بتفسخ التّشكيلة الاجتماعيّة المشاعيّة فيها ، و الإسْلام كان يستجيب للمسار التطوري في الجزيرة العربيّة ، و إذ وسمته الذّكوريّة بمِيْسَمها فإنّ ذلك كان مَلْمَح المرحلة الَّذِي انبثق فيها ، مرحلة كانت تريد التخلص من آثار ماضٍ مشاعي أموميّ لصالح مستقبل ذكوري حيازي ، و كان مطلوب منه تلبية متطلباتها ، و بنفس الوقت كان عليه التعبير أيديولوجياً عن هذا التّطور الاجتماعيّ . و على ضوء هذه الاعتبارات لا يمكن النظر إلى الإسْلام مفصولاً عن البيئة التاريخيّة الخاصة بنشأته ، و إذا تجنبنا الاسقاطات المعاصرة للنّسوية ، فإن ذكوريّة الإسْلام كانت نقلة تقدميّة في الحركة الاجتماعيّة ، و في الوَعْي الاجتماعيّ آنذاك ، و هو كان يسعى إلى إزالة البقايا الأموميّة ، الَّتِي قاربت على التآكل في الجَزِيْرة العَرَبِيّة ، و استنفدت مرحلتها، و لم يعد بإمكانها أن تلبي حاجات الجَزِيْرة العَرَبيّة المستقبلية .

على ضوء هذه الاعتبارات تعيّن الموقف من المرأة في خطاب مُحَمَّدٍ ، و هي المَعَالِم الجديدة في الجَزِيْرة العَرَبِيّة و الَّتِي شرع الإسْلام يعكسها أيديولوجياً ، و يدفعها إلى الأمام .

النَّسِيء

ثَمّ مَعْلَم ملفت في خطاب حِجّة الوَدَاعِ ، و هو إلغاء نظام النَّسِيء ، بقول مُحَمّدٍ :

((أيّها الناس : ﴿ إنّمَا النَّسِيءُ زِيَادةٌ في الكُفْر ، يُضَلُّ به الَّذِين كَفَرُوا ، يُحِلُّونَهُ عَاماً ، و يُحَرّمُونَهُ عَاماً ، لِيُواطِئُوا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللّه ، فَيُحِلُّوا ما حّرَّمَ اللّه ﴾ ،[١٠٠]

---

[٩٩] بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، محمود شكري الألوسي البغدادي ، منشورات أمين دَمَج ، و دار الشرق العربي ، بيروت ، د. ت ، م ٢ / ص ٣ ـ ٥ ؛ تفسير الآية (٢٥) من سورة النساء عند القرطبي ، الطبري ، ابن كثير ؛ مادة **بضع** في لسان العرب .

[١٠٠] التوبة / ٣٧ .

و يُحَرّمُوا ما أحَلّ اللّه ، و إنّ الزّمان قد استدار كهيئته يوْمَ خَلَقَ اللّه السَّمَواتِ و الأرضَ ؛ و ﴿ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللّه اثْنَا عَشَرَ شَهْراً في كِتابِ اللّه يَوْمَ خَلَقَ السَّمَواتِ و الأرْضَ مِنْها أرْبعةٌ حُرُمٌ ﴾ ،[١٠١] ثلاثة متوالية ؛ و رجب)) .[١٠٢]

فما هو هذا النّظام و ما دواعي إلغائه ؟

كان النّظام التّقويميّ السائد في الجَزِيْرة العَرَبِيّة هو النّظام الَّذِي يعتمد على الشّهور القمريّة ، و مجموع الشهور العربية القمريّة ثلاثمئة و أربعة و خمسون يوماً ، و هي أقل من الشهور السريانيّة بأحد عشَر يوماً ، مما يعطي فرقاً كل ثلاث و ثلاثين سنة ؛ و لهذا كان العرب في الجاهلية تكبس في كل ثلاث سنين شهراً و تسميه **النَّسِيء** ، و كان ولاة البيت الحرام هم وحدهم من يحق لهم تأخير هذه الشهور عن مواعيدها ، و كان الَّذِين يتولون المهمة يسمون **النّسأة** .[١٠٣]

كان النَّسِيءُ يُمارس لاعتبارات تتعلق بمواسم الحصاد سواء في الجَزِيْرة العَرَبِيّة أو في شرق إفريقيا أو الهند ، و من أجل تسهيل الحركة التّجاريّة ، و لكي تتطابق مع السّنَة الشمسيّة الَّتِي ترتبط بها تلك الشئون و مواسم الحج ـ التجارة ـ .[١٠٤]

لاشك إنّ إلغاء النَّسِيء سبب إرباكاً لعمل الأسواق ، و يقدم شُلْحُد تعليلاً لهذا الإلغاء،[١٠٥] و على الرَّغْم من أهميته إلاّ أنّه غير كافٍ ؛ فيقول إنّه تنازل قدّمه الإسْلام للبداوة، بالعودة إلى تقويم قمري ؛ فهذا النوع من الحساب كان في طريقه إلى الزوال ، عشيّة الهجرة، لأنّه لم يعد مناسباً لضبط مواقيت الأسواق أو المعارض السنوية الكبرى ، و على الأقلّ كان المدنيّين من بين العرب القدامى قد توصّلوا إلى اعتماد السّنَة الشمسيّة كما يدل على ذلك اسم بعض الأشهر ،[١٠٦]

---

[١٠١] التوبة / ٣٦ .
[١٠٢] ابن هشام ٢ / ٦٠٤ ؛ تاريخ الطبري : ٢ / ٢٠٥ ـ ٢٠٦ .
[١٠٣] مُروُج الذّهَب و مَعَادِن الجَوْهَر ، أبي الحسن علي بن الحسين المسعودي ، تحقيق : سعيد محمّد اللحّام ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م ، م ٢ / ٦٢ ، ٢٠٧ .
[١٠٤] حروب دولة الرّسول (بَدر ـ أُحُد) ، سيّد محمود القمني ، سينا للنشر ، القاهرة ، ١٩٩٣ م ، ص ١٤.
[١٠٥] بُنى المقدَّس عند العرب ـ قبل الإسلام و بعده ، يُوسف شُلْحُد ، ت : خليل أحمد خليل ، دار الطليعة ، بيروت ، حزيران (يونيو) ، ١٩٩٦ م ، ص ١٨ ـ ١٩ ، ١٦٠ .
[١٠٦] بالفعل إن اشتقاقات بعض الأشهر القمرية تشير إلى ثبات مواعيدها ، فاشتقاق **جمادى** من تجمد الماء في هذا الشهر الشتوي ، و **رمضان** من الرَّمضاء : شدة الحر .

فيما كان البدو يحسبون الزّمان بحسب أدوار القمر ؛ و بهذا الصدد كتب غودفروا ـ دمومبين: ((كانت النتيجة الاقتصاديّة لذلك الإلغاء القضاء الواضح على معارض مكّة ، و هذا ما لم يكن يجهله و تالياً أراده بقوّة أو قبله)) . من الممكن أن يكون مُحَمَّدٌ قد توّقع أو تقبل النتائج الاقتصاديّة للعودة الكاملة إلى تقويم قمريّ . و لكنْ في الإمكان إيجاد تفسير آخر لمبادرته ، لأنّنا لا نرى حقاً مغزى سعيه الحازم إلى تدمير أسواق مسقط رأسه بعدما انقادت له مكّة في آخر المطاف ، و الأرجح أنه بعدما أسّس صوم رمضان أدرك بسرعة صعوبة التقيد بتقويم شمسي ـ قمري ، و لتجنب كلّ خطإٍ في الحساب ، كان لا بد من ضوابط ومعايير ثابتة . و كان مُحَمّدٌ يعرف بالخبرة العقبات و الأخطاء الَّتِي يفضي إليها العملُ بالشهر الإضافي ، الثالث عشر ، و لضمان ثبات الزمن المقدس ، كان له الخيار في اعتماد كلي على التقويم الشمسي ، أو الرجوع الكامل إلى السّنَة القمريّة . و الحال ، كان ينبغي استبعاد أول هذين الحلَّيْن ، لأنّه كان يستلزم حسابات دقيقة ، و لم يكن مناسباً لِمَنْ اعتاد على ضبط وقته بوتيرة القمرِ .

من الجلي للعيان أن إبطال نظام النَّسِيء جاء في إطار تطور الحركة الإسْلاميّة ، وبعدما توسعت آفاقها السياسِيّة في الجَزِيْرة العَرَبيّة ، و صارت القوة الأولى في الحِجَاز ، وكانت المهمة الَّتِي قرر مُحَمّدٌ تنفيذها هي نشر الإسْلام في أوساط القبائل البدويّة ، و كان عليه أن يطابق الإسْلام في نواحٍ معينة مع البيئة البدوية ، و يجعله أقرب منها ، و بالفعل يمكن اعتبار إلغاء نظام النَّسِيء تنازلاً للبداوة عندما قام مؤسس الإسْلام بعوربة الدِّين هنا ، فصارت بَدوَنَته المقدمة الممهدة لعولمته . و يبدو أنّ هذا القرار أثار علامة استفهام كبيرة عند سكان الحواضر ، فقدمت الرّوايَات تبريراً له فيما بعد ، بأنَّ العربَ كانت لا تمارس النَّسِيء ، و أنّها أرادت أن يكون حجهم في أخصب وقتٍ من السّنَة و أسهلها للتردد في التجارة و لا يزول عن مكانه فتعلموا ذلك من اليهود ؛[١٠٧] فأسطرت التواريخ الإسلامية منشأ النظام بجعله درساً يهودياً لا يجدر بالمسلمين تعلمه من أجل تقديم تعليلٍ مقنعٍ لمنع النَّسِيء من قِبَل مُحَمَّدٍ .

نلاحظ أن مُحَمَّداً كان يتطلع إلى تأسيس كيان إسْلاميّ ممتد إلى أكبر مساحة على الجَزِيْرة العَرَبِيّة ، و لم يكن في ذهنه ، و ذهن أصحابه حَتّى ذلك الوقت هدف

---

[١٠٧] بلوغ الأرب : ٣ / ٧١ .

بناء دولة ، بكل ما تعنيه الدّوْلَة من تنظيم و مؤسسات ؛ لأنّ نظام الشهور القمريّة لا يصلح للحياة المدنية ، و الَّتِي تحتاج إلى تقويم دقيق ، لم يكن يفي باحتياجاتها إلا التقويم الشمسيّ ، ومُحَمَّدٌ في قراره كان ينطلق من متطلبات المرحلة الَّتِي وصل إليها مجتمعه ، و إجابته على هذا النحو في السّنَة العاشرة هجرية على أسئلة واقعه كانت في إطار إستراتيجية مؤسِّسيّ الإسْلام المتوجهة نحو تثبيت أسس المجتمع الماديّة (البناء العمودي) ، و الانتشار الجغرافي (البناء الأفقي) .

الاعتبار الثّاني الَّذِي حدا بمُحَمَّدٍ لإلغاء النَّسِيء يتعلق ببنيّة الإسْلام نفسه ، فنظرة الإسْلام إلى نفسه هي أنه عَوْدَة إلى الأصول الإبراهيميّة ، فالله يأمر مُحَمّداً أن يتبع مِلَّة إبراهيم (النحل / ١٢٣) ، الَّذِي اتخذه خليلاً له (النساء / ١٢٥) ، و أن يقرّ بأنّ الصّراط المستقيم الَّذِي هدا مُحَمّداً إليه هو دين إبراهيم (الأنعام / ١٦١) ، الَّذِي لم يكن من المشركين (النحل / ١٢٠ ؛ البقرة / ١٣٥) ، كما لم يكن يهوديّاً أو نصرانيّاً (آل عمران / ٦٧) ؛ و تعود هذه النظرة إلى أنّ الإسْلامَ يتوق للعَوْدة إلى الينابيع الأولى مما يجعل الزّمان الإسْلاميّ زماناً دائريّاً، و هذا ما أفصح عنه مُحَمَّدٌ في خطاب حجة الوداع ، بقوله : « **إنّ الزّمان قد استدار كهيئته يوْمَ خَلَقَ اللّه السَّمَواتِ و الأرضَ** » . أي إنّ رغبة مُحَمّدٍ في إلغاء نظام النَّسِيء لا تتسم ببعد سياسِيّ يقضي بمحاولة التقرب من البدو و كسبهم لصالح الحركة الإسْلاميّة و حسب ، بل يمكن اعتبار هذا الهدف قليل الأهمية بالنسبة إلى ضرورة التأكيد على البعد الإلهي للزمان ، و إعادة الاعتبار لقدسيته ، الَّتِي خرقها القرشيون ـ اليد البشرية ـ .

لقد كان الإنسان القديم يتخيّل هذه الحياة الكونيّة على هيئة مسار دائري ، متواحد مع السّنَة ، و كانت السّنَةُ دائرةً مغلقةً : كان لها بداية ، و كان لها نهاية ، لكنْ كان لها أيضاً خاصيّة أنّها تستطيع أنْ « تولد ثانيةً » .[١٠٨] و إلغاء النَّسِيء من قِبل مُحَمَّدٍ يستهدف المحافظة على الحركة الدائريّة للزّمان ، و استرجاع النّموذج الأوّل ، و التّأكيد على شرعيّة الإسْلام الَّذِي جاء ليعيد الدين الحنيفيّ الحقيقي ، دين إبراهيم ، إنه رفض لمس الزّمان ، و التدخل في مساره الدائري ، و كل تدخل في الزّمان قد يؤدي بالقرشيين للابتعاد مجدداً عن ملة إبراهيم ، الَّتِي عاد إليها الإسْلامُ ، و بعثها من مرقدها ، فعلى عرب الجَزِيْرة العَرَبِيّة منذ اليوم أنْ يعترفوا

---

[١٠٨] المُقَدّس و الدّنْيَوِيّ ، ص ٧٤ .

بإلهيّة الزّمان ، و دائريته من أجل أن يعترفوا بالإسْلام كعَوْدة للأصول . إنّ هذه الرؤية تعكس جوهر العقيدة الإسْلاميّة المتناقض ، و إذا كان مُحَمَّدٌ قد نهض بمهمة قيادة الّتقدم التّاريخيّ للجزيرَة العربيّة على المستوي السيا ـ اجتماعي ، إلاّ أنّه أعلن عن عَوْدَته للأصل الإبراهيمي ، و أنّ الإسْلام ليس إلاّ بعثاً لدينه ، و لهذا فعلى المسلمين في كل الأزمنة أن يعودوا بدورهم إلى الينابيع الأولى ، إلى العصر الذهبي ، عصر مُحَمَّدٍ و الخلفاء الراشدين ، إن هذه الرؤية المتمسكة بالعودة إلى الزمن الأول في الإسْلام ـ كما في اليهوديّة و المَسِيْحِيّة ـ تشكّل عائقاً معرفياً في الإسْلام أمام التّقدم الاجتماعيّ ، إن كلّ تقدم هو عَوْدة ، و بالتالي من الطبيعي أن تكون طريق الخلاص بالنسبة للمؤمن تتجه به نحو الزمن الأول ، و هذا من أبرز التناقضات الَّذي يتسم به الإسْلام ، فرغم كونه أيديولوجيا نهوض الجَزِيْرة العَرَبِيّة ، فإنه بدوره يكبح الوَعْي بالمستقبل ، و تعود هذه السّمة المتناقضة إلى اللّحظة التاريخيّة الَّتِي نشأ فيها ، و الثّقافات الَّتِي دمجها في بنيته .

[Blank Page]

الرَّحِيْل و ردود الفعلِ

إصدار الأمر لأسَامةَ بنِ زَيْدٍ بقيادة حَمْلَة عسكرية

بعد حوالي الثلاثة أشهر من رجوعه من حجّه أمر مُحَمَّدٌ في (٢٦ صفر ، ١١ هـ) بتجهيز حَمْلَةٍ إلى الشَّام ، و هي آخر حَمْلَة عسكريّة يأمر بها ، و غداة إصداره القرار عيّن أسَامةَ بن زَيْدٍ قائداً لها ، و ليس واضحاً الجهة المقصودة من هذه الحَمْلَة ، و كل ما يُقال إنّ مُحَمَّداً طلب من أسامةَ التوجه صوب أُبْنَى ، و هي منطقة تقع على حدود بلاد الشَّام المتاخمة للجزيرَة العربيّة ؛ فتجهز المقاتلون ، و تقول الرّوايَات بأن المهاجرين الأولين اشتركوا في هذه الحَمْلَة تحت قيادة أسَامةَ بن زَيْدٍ ، و إنّ من بينهم أَبَا بَكْر ، و عمرَ بن الخطّابِ ، و أبا عُبيدة بن الجرّاح ، و سعدَ بن أبي وقّاص .[١] و إنْ كنّا لا نرى بأنّ هذا التّفْصِيْل يملك أيّة واقعيّةٍ تاريخيّةٍ ، و من الواضح أنه أُضيف في العهد العباسيّ ، في إطار الصّراع على شرعيّة المطالبة بالخِلافَة ، و هذا الحَبْكُ القَصصيُّ يخدم الدّعاوى الشّيعيّة ، و لا يستبعد أنّ العباسيين وظفوه خدمةً لهم ، و سنرى لاحقاً السبب الّذِي يدعونا لرفض هذا الجزء من رواية تجهيز حَمْلَة أسامة .

بينا كان المقاتلون يستعدون للحَمْلَة ، بدأ المرض يلف مُحَمَّداً بقبضته ، و من الأرجح أنّه كان داء الملاريا ، الّذِي كان من أمراض المدينة المألوفة ؛[٢] فتباطأت وتيرة استعدادات المقاتلين ، لكنّ مُحَمَّداً أصرّ على تنفيذ المهمة ، و تقول الرّوايَات إنّه خرج إلى المقاتلين ، عاصباً رأسه و هو لم يزل مريضاً ، و حثّهم على الإسراع ؛ و بالفعل غَذّ المقاتلون الخُطى للحَمْلَة ، و خرج أسامة يقود جزءاً من القوات فعسكر بالجُرْفَ ، وهي منطقة تقع على مشارف المدينة ، و تبعد حوالي

---

[١] ابن هشام : ٢ / ٦٠٦ ؛ تاريخ الطبري : ٢ / ٢٢٤ ؛ ابن سعد : ٢ / ١٨٩ ـ ١٩٠ ؛ الكامل : ٢ / ٢١٧، ٣٣٤

[٢] تاريخ بروكلمان ، ٦٧ .

الفَرْسَخ (نحو ثمانية كيلومترات) عنها ، و تتابع المقاتلون على المعسكر ؛ في غضون ذلك كانت وطأة المرض تشتدّ على مُحَمَّدٍ ، فقرر المقاتلون الانتظار إلامَ يئول الأمر .

في هذه الأجواء المشحونة بالقلق خرج مُحَمَّدٌ إلى المسجدِ من أجل إلقاء كلمةٍ ؛ فأشاد في كلمته بأَبِي بَكْر بشكلٍ خاصٍ ، و أشهرها قوله ، الَّذِي ستحفظه الذاكرة أبداً : « فإني لو كنت متّخِذاً من العباد خليلاً لاتَّخذت أَبَا بَكْراً خليلاً ، و لكن صحبة و إخاءُ إيمان حَتّى يجمع الله بيننا عنده » . ثمّ إنّه أمر بأن يصلّي أَبُو بَكْر بالنّاس ؛ و أصرّ على ذلك ، و سيُعتبر هذا القرار عند أهلِ السُّنّة إشارةً إلى أنّ أَبَا بَكْر هو أفضل الصّحابة على الإطلاق ، و أحقّهم بالخِلافَة ، و أولاهم بالإمامة .[٣]

من الواجب أن نشير إلى أنّ طلب مُحَمَّدٍ من أَبِي بَكْر إمامة الناس بالصلاة لم تكن لوحدها ما دعتنا في بداية هذا الفصل لرفض أن يكون أَبُو بَكْر و غيره من كبار الصحابة مشاركين في الحَمْلَة ، بل الأسس الَّتِي بنينا عليها وجهة نظرنا متعلقة بشخْصيّة أَبِي بَكْر ودوره في الحركة الإسلاميّة ، و حيث لا يمكن أن يُبعد عن المدينة في فترة حرجة جداً ، فترة مرض مُحَمَّدٍ .

العبَّاس وعليّ ـ مسألة الخِلافَة

في يوم الاثنين ـ يوم رحيل مُحَمَّدٍ ـ خرج عليُّ بن أبي طالبٍ من لدن مُحَمَّدٍ ، فسُئل عن حال نبيّ الإِسْلام ، فأجاب بأنّه على ما يرام ، لكنّ العباس قال له بأنّه يعرف علامات الموت في وجوه بني عبد المطلب ، و أقترح عليه الذهاب إلى مُحَمَّدٍ لتعيين الخليفة ، أو على الأقلّ لمعرفته .

لكن علياً رفض الطلب ، و قال : « إني و الله لا أفعل ، و الله لئن مُنعناه لا يؤتيناه أحدٌ بعده » . و تقول رواية ثانية إنّ رجلاً جاء لعليّ ، و طلب منه الذهاب لمُحَمَّدٍ من أجل معرفة الخليفة ، فكان جواب علي على ذاك النحو ، و إن هذا الرجل اقترح على علي مبايعته.[٤]

---

[٣] ابن هشام : ٢ / ٦٤٩ ـ ٦٥٠ ؛ تاريخ الطبري : ٢ / ٢٢٧ ؛ الكامل : ٢ / ٣١٧ ـ ٣١٩ ؛ تاريخ الخلفاء، جلال الدّين السّيُوطي ، تحقيق : إبراهيم صالح ، دار البشائر ، دمشق ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م ، ص ٨٣ .

[٤] تاريخ الطبري : ٢ / ٢٢٩ ؛ الكامل : ٢ / ٣٢١ ؛ ابن سعد : ٢ / ٢٤٥ ـ ٢٤٦ .

لا شك إنّ نفي صحة الرّواية ، القائلة بأنّ العباس طلب من علي سؤال مُحَمَّدٍ عن الخِلافَة أمر منطقي ، و مبني على الاعتبار أنّها مصنوعة من أجل الرد على ادعاءات الشيعة بأحقيّة علي ؛[٥] و نحن نرى أنّها جاءت تحديداً في إطار الصراع العباسيّ ـ الهاشميّ ، بعد استيلاء العباسيّين على الخِلافَة ، إذ تجعل الرّواية العباس صاحب المبادرة ، و علياً المتواني عن حقه ، و كونه أحجم عن اقتراح عمّه ، فمن حقِّ أحفاد عمّه ـ العباسيين ـ استلام زمام الأمور . و لم يجدْ الشيعة بداً من الردّ على هذه الرّواية براويةٍ توضيحيّة ، فتقول رواية شيعيّة إنّ العباس اقترح على عليٍّ مبايعته أثناء جهاز مُحَمَّدٍ المتوفى ، حيث سيكون المُبَايْع عمَّ النَّبِيِّ و المُبَايِع له ابن عمه ، فمن يجرؤ على رفض ذلك ، لكنّ عليّاً رفض ذلك، و تساءل : ((أو يطمع يا عم فيها طامع غيري)) .[٦]

لكنْ هذه الاعتبارات لا تلغي المضمون العام للرّواية فلم يكن الهاشميون ليقفوا مكتوفي الأيدي ، و مُحَمَّدٌ يحتضر دون أن يحاولوا ترتيب مسألة الخِلافَة ، أو على الأقل معرفة لِمَنْ تُنقل السّلْطَة ، أمّا من ناحية التّفْصِيْل الرّوائي فإنّنا نوافق على رفضه ، آخذين بعين الاعتبار أن الظرف الموضوعي لتلك اللّحظة ؛ فعليّ لم يكن ليطلب من مُحَمَّدٍ ما هو خارج عن حدود سلطته على المجتمع الإسلاميّ آنذاك ، و قد أختبر بتجربةٍ سابقةٍ صعوبة تجاوز المعايير الاجتماعية بُعيد الاستيلاء على مكة عندما طلب هو أو العباس ـ حسب اختلاف الرّوايَات ـ مفتاحَ الكعبة ، و رُفض الطلبُ ؛ و من هذه التجربة كان يدرك أنّ فرصةَ بني هاشم في استلام زمام السلطة عقب وفاة مُحَمَّدٍ ضئيلةٌ . و مما لا شك فيه أنّ الصراع العصبيّ كان يحرك و منذ هذه اللّحظة الشّخصيّات الفاعلة في المدينة و قد تجسدت في الرّوايَات العديدة و المتعارضة المضمون عن تعيين عليٍّ أو أَبِي بَكْر ، و عن اقتراح العباس . و في الحقيقة فإننا لا نجد من مجمل السّيرة العامّة لِمُحَمَّدٍ ما يوحي بأنّه كان يرغب باستخلاف هذا أو ذاك من الصحابة ، و أقصى ما نجده هو إشادة بشخصيّاتٍ محددةٍ ، مثل أَبِي بَكْر ، و عمرَ بن الخطّابِ ، و عليٍّ بن أبي طالبٍ ، و عبيدةَ بنِ الجرّاح ، و لا تبلغ درجة تعيين خليفة له ، كما أنّ عليّاً نفسه لم يكن يثق بإمكانية تعيينه من قِبل مُحَمَّدٍ خليفةً .

---

[٥] الشيخان ، طه حسين ، دار المعارف ، مصر ، ط ٨ ، ١٩٨٦ ، ص ٣٠ ـ ٣١ .
[٦] شرح نهج : ١ / ٥٣ .

لقد أصبحت أيام مُحَمَّدٍ الأخيرة مادةً روائيةً سعى المؤرّخون الإسلاميّون إلى توظيفها، كلٌّ حسب رؤيته المذهبيّة ، و لهذا فنحن نجد تفاصيل متعارضة تماماً بما يتعلق بقضيّة الكتاب الَّذِي أراد مُحَمَّدٌ كتابته ، و هو على فراش المرض ، و لم يتمكن من كتابته قطّ ؛ إذ تقول الرّوايَات بأنّ مُحَمَّداً ، و قبيل وفاته بأربعة أيام ، و كانت صحته قد ازدادت تدهوراً ، طلب مِمَن حواليه مادة ليكتب عليها ، و علل طلبه ((أكتب كتاباً لا تضلّوا بعدي أبداً)) ؛ فأحدث الطلب بين المجتمعين خلافاً عن غايته ، و أعادوا على مُحَمَّدٍ السؤال ، و ثمة من علّق بـ : ((أنّ النَّبِيّ يَهْجرُ)) ،[٧] فسألوه مجدداً عن طلبه ، حينئذٍ غضب مُحَمَّدٌ إحساساً منه بالإهانة ، فقال : ((دعوني فما أنا فيه خيرٌ مما تدعونني إليه)) ،[٨] و يُنسب القول بأن النَّبِيّ يهجر لعمر بن الخطّابِ .[٩] و نحن نلاحظ أن ابن سعد يورد ثلاث روايات عن هذه اللحظة الحسّاسة ترجع لابن عباس ، و واحدة لأنصاريّ ، و من حقنا أن نفتقد فيها الصدق التّاريخيّ ، فإمّا أنّ ابن عباس أراد نزع الشرعيّة عن أَبِي بَكْر ، و قد أيده الرّاوي الأنصاريّ بسبب من تذمره من انتقال زمام القيادة إلى مهاجريٍّ ، و إمّا أنّ رواتها متقربون من الدّوْلَة العباسيّة أيْ أنها مصنوعة في فترة متأخرة عن الحدث الفعلي .

من جهة أخرى نجد روايات أخرى تفيد بأنّ مُحَمَّداً أراد الكتاب من أجل أنْ يوصي بالخِلافة إلى أَبِي بَكْر ، إذ ((يأبى الله و المؤمنون إلا أَبَا بَكْر)) حسب ما تنسبه إليه هذه الرّوايَات ، و في رواية أخرى دعا مُحَمَّدٌ عبد الرّحمن بن أَبِي بَكْر ، و طلب منه كتفاً من أجل أن يكتب لأَبِي بَكْر كتاباً لا يُخْتَلَفَ عليه ، و وصل الأمر في إحدى الرّوايَات أن طلب من عائشةَ دعوة عبد الرّحمن بن بكر ، ثم عدل عن رأيه ، و قال لها : ((معَاذ الله أنْ يختلف المؤمنون في أَبِي بَكْر)) ،[١٠] و من

---

[٧] **الهُجْرُ** : القبيح من الكلام . و **هَجَرَ** في نومه و مرضه يَهْجُرُ هَجْراً . و هجر المريض يَهْجر هُجْراً ، فهو هاجرٌ ، و هَجَر به في النوم يُهْجرُ هَجراً : حَلَمَ و هَذَى (لسان العرب : **هجر**) .

[٨] تاريخ الطبري : ٢ / ٢٢٨ ـ ٢٢٩ ؛ الكامل : ٢ / ٣٢٠ ؛ ابن سعد : ٢ / ٢٤٢ .

[٩] ابن سعد : ٢ / ٢٤٣ ؛ مقالات الإسلاميين ، أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الحداثة ، ط ٢ ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ، ج ١ / هامش رقم ٣٥ .

[١٠] ابن سعد : ٣ / ١٨٠ ـ ١٨١

الملاحظ أنّ هذه الرّوايَات عند ابن سعد تعود كلّها إلى عائشةَ ، و بالتالي إمّا أنّ عائشة قد قامت بالرد على روايات ابن عباس ، و إمّا أنّ بعضاً من رواة السُّنَّة صنعوا الرّواية رداً على الرّوايات الّتِي صنعها العباسيّون ؛ و مجمل الرّوايات المتعارضة تجعلنا نرفض احتمال أنْ يكون مُحَمَّدٌ قد أراد أن يكتب اسم خليفته .

الساعات الأخيرة

لَمّا كان يومُ الاثنين من شهر ربيع الأول ١١ هـ / حزيران (يونيو) ٦٣٢ م ،[١١] والمسلمون يصلّون صباحاً ، اتجه مُحَمَّدٌ نحو الباب ، فرفع الستر ، و فتح الباب ، فوقف ينظر منه ، فحدث اضطرابٌ بين المصلين ، فأشار إليهم أنْ تابعوا الصلاة ، ثم تبسّم سروراً و هو يتأمّل هيئة أتباعه المصلين . كان مُحَمَّدٌ يشع وهجه الأكثر تألقاً ككلِّ نجم يوشك على الانطفاء، و قد وصف أنس بن مالك هذه الإشراقة بقوله : ((و ما رأيت النَّبِيّ أحسنَ هيئة من في تلك الساعة)) . ثم رجع ، و انصرف الناسُ و هم يعتقدون أنّ مُحَمَّداً قد برئ من مرضه

حوالي الظّهْر من ذلك اليوم ، خبت شعلة لطالما أنارت الطريق لحركة الإسلام ، لقد خمدت روحُ مَنْ قاد صُنَّاع فجرٍ جديدٍ لبلاد العرب ، في ذلك اليوم غادر نبيُّ الإسلام العالم الأرضي عن عمرٍ يتجاوز الستين : ستون سنة ، ثلاث و ستون سنة ، خمس وستون ـ حسب مختلف الرّوايَات .[١٢]

أَبُو بَكْر يتحرك لطمأنة النّاس

بالرّغم من أنّ مُحَمَّداً عاش أيامه الأخيرة و هو يحتضر إلاّ أنّ البعض لم يكن مستعداً بعد للتعامل مع حقبة ما بعد وفاته ، و قد ظهر ذلك جلياً عندما وقف النّاس يراقبون بقلقٍ عمرَ بن الخطّابِ الّذِي رفض تصديق موت مُحَمَّدٍ .

---

[١١] تختلف الرّوايَات عن تاريخ اليوم ، لكنها تتفق على أنّه كان يوم الاثنين .

[١٢] ابن هشام : م ٢ / ٦٥٢ ـ ٦٥٣ ؛ تاريخ الطبري : ٢ / ٢٤٠ ؛ الكامل : ٢ / ٣٢٢ ؛ ابن سعد : ٢ / ٣٠٨ ـ ٣١٠ .

كان عمرُ بنُ الخطّابِ قد دخل على مُحَمَّدٍ مع المُغيرة بن شُعْبة ، و شاهد جسدَ مُحَمَّدٍ بلا حراكٍ ، فظنّ أن ذلك غَيْبُوْبَةً ، فقال : ((وَا غَشْيَا ! ما أشدّ غَشْيَ رسول الله)) ، لكنّ المغيرة أكّد له بأنّ مُحَمَّداً قد مات ، فرفض عمر قولَه ، و اتهمه بالنفاق .

كان إصرار عُمرَ على أنّ مُحَمَّداً حيٌّ شديداً ، فخرج إلى النّاس شارحاً لهم بأنّ مُحَمَّداً غائبٌ ليس إلاّ ، و أنّه سيرجع كما رجع موسى بن عمران ، و أنذر القائلين بموته : ((واللهِ ليرجعنّ رسولُ اللهِ كما رجع موسى ، فليقطعن أيدي رجال و أرجلهم زعموا أنّه مات)) ؛ وكانت وجهة نظره مستندة إلى تفسيره الخاص للآية القرآنية : ﴿ وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَ يَكُونَ الْرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ ،[١٣] و كان يظن ـ حسب فهمه لها ـ بأنّ مُحَمَّداً سيبقى في أمّته حَتّى يشهد عليها بآخر أعمالها كما فسر ذلك لاحقاً .[١٤]

وصل نبأ موتِ مُحَمَّدٍ أَبَا بَكْر ، و كان موقف نخبة المهاجرين كالتالي : عُمَرُ يخطب بالنّاس و يقول إنّ مُحَمَّداً لم يمت ، و عثمان ملتزم بالصمت ، و عليّ بعيد عن دائرة الفعل ، و لا يوجد من يتحرك لطمأنة الناس إنْ من نخب المهاجرين أو من نخب الأنصار .

اتجه أَبُو بَكْر إلى بيت عائشة حيث مات فيه مُحَمَّدٌ ، و مُحَمَّد مُسجّى ، فعاينه ، ثم خرج و عمر يبسط على المجتمعين رؤيته ، فطلب من عُمرَ الإنصات ، لكنَّ عمرَ بقي يتابع حديثه ، و عند ذلك توجه أَبُو بَكْر إلى المحتشدين يريد خطابهم ، فلمّا شاهدوه اتّجهوا إليه ، و تركوا عمرَ ، فقال :

((أيّها النّاس ، إنّه مَنْ كان يعبد مُحَمَّداً فإنّ مُحَمَّداً قد مات ، و مَنْ كان يعبد اللَّه فإنّ اللَّه حيٌّ لا يموت)) . ثم أضاف لحديثه نصيْن قرآنييْن : ﴿ و ما مُحَمَّدٌ إلاّ رَسُولٌ قدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الَّرسُلُ ، أفإنْ مَاتَ أو قُتِلَ انقَلَبْتُمْ على أَعْقَابِكم ، و مَنْ يَنقَلِبْ على عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شيئاً ، و سيجزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ ،[١٥] و : ﴿ وَ مَا

---

[١٣] البقرة / ١٤٣ .
[١٤] ابن سعد : ٢ / ٢٦٧ ؛ ابن هشام : ٢ / ٦٥٥ ، ٦٦١ ؛ تاريخ الطبري : ٢ / ٢٣٢ ؛ الكامل : ٢ / ٣٢٣.
[١٥] آل عمران / ١٤٤ .

جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلدَ أَفإنْ متَّ فَهُم الخَالِدُونَ ، كُلُّ نُفْسٍ ذائقةُ المُوْتِ ﴾ .[١٦] و تضيف رواية أخرى الجزء التالي للخطاب :

((إنّ اللَّه قال لنبيّه : ﴿ إنّك ميّتٌ و إنّهم ميِّتون ، ثُمَّ إنّكم يومَ القيامةِ عِندَ ربِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ ،[١٧] ثم تابع : ﴿ و ما مُحَمَّد إلاّ رسُولٌ .. ﴾ إلى آخر الآية ١٤٤ من سورة آل عمران . و تابع كلمته ، قائلاً : ((فمن كان يعبدُ مُحَمَّداً فقد مات إلهه الَّذِي يعبُده ، و مَنْ كان يعبد اللَّه لا شريك له ، فإنّ اللَّه حيٌّ لا يموت)) .[١٨]

كان وقع كلمات أَبِي بَكْر شديداً على النّاس ، و أكثر ما أثار دهشتهم كما تتحدث الرّوايَات هو أنّ الآيات الَّتِي استشهد بها أَبُو بَكْر كانت غيرَ معروفةٍ لهم ، و في الحقيقة فإنّ ذلك لا يدعو للاستغراب لأنّ من كان بعيداً عن دائرة مُحَمَّدٍ ، و غير مشاركٍ في صنع قرارات الحركة الإِسْلاميّة المصيريّة أولى به ألاّ يعرفها إذا كانت شخصيّة مقرّبة من مُحَمَّدٍ ، و فاعلة في المجتمع كعمرَ بنِ الخطّابِ على غير علم بها ، و قد علّق عمرُ على النّصوص الَّتِي استشهد بها أَبُو بَكْر بأنّه لما سمع بها أقرّ بحقيقة وفاة مُحَمَّدٍ ، و وقع على الأرض لا تحمله رِجْلاه ؛ و لم يكن عمرُ وحيداً بل إنّ جماعةً من أصحاب مُحَمَّدٍ أكدت جهلها بهاتيْن الآيتيْن ، و قالوا إنهم لم يكونوا يعلموا بهما حَتّى قرأهما أَبُو بَكْر .[١٩] و لعل الشكوك كانت تساورهم لبعض الوقت بأنّ أبا بكر هو من ألفهم

---

[١٦] الأنبياء / ٣٤ ـ ٣٥ .
[١٧] الزّمر / ٣٠ ـ ٣١ .
[١٨] تاريخ الطبري : ٢ / ٢٣٣ ـ ٢٣٤ .
[١٩] تاريخ الطبري : ٢ / ٢٣٢ ـ ٢٣٤ ؛ ابن هشام : ٢ / ٦٥٦ ؛ الكامل : ٢ / ٣٢٤ ؛ تفسير ابن كثير و القرطبي ، آل عمران : ١٤٤ ؛ كتابُ الرَّدة ، أبي عبد اللَّهِ محمّد بن عمر الوَاقدي ، تحقيق د. محمود عبد اللَّهِ أبو الخير ، دار الفرقان ، عمّان الأردنّ ، د. ت. ، ص ٥٨ .

[Blank Page]

اجتماع السَّقِيْفة

الأنصار يسارعون لمناقشة قضيّة فراغ السُّلْطَة

صارت المدينة بعد وفاة مُحَمَّدٍ بلا زعيمٍ يشرف على إدارة شئونها ، و كان الأنصار هم أوّل من شعر بضرورة إملاء الفراغ الناشئ عن رَحِيْله ، كانت هذه المسألة شديدة الخطورة بالنّسبة إليهم ، بحكم أنّها تتعلق كلياً بمدينتهم ، و الشخصيّة التي ستشغل موقع السُّلْطَة هي التي ستقود المدينة ، و مصيرهم سيكون مرتبطاً بشكلٍ كبيرٍ بها ، و لهذا كان الأنصار هم أوّل مَنْ تحرك لمناقشة قضية فراغ السُّلْطَة ، و جثمانُ مُحَمَّدٍ ماً زال مسجىً .

لم تكن قد مضت سوى سُوَيْعات على موت مُحَمَّدٍ حَتَّى جاءت جموع الأنصار تَتْرَى إلى سقيفة بني ساعدة ؛ و بنو ساعدة ينتمون للخزرج ، و كانت سقيفتهم مكاناً يجتمعون فيه حين تستدعي الظروف تداول الرأي فيما بينهم ، و هي بمنزلة دار الندوة التي كانت لقريش في مكَّة . كان الاجتماع يهدف لمناقشة الحدث الخطير في حياة يثرب ، و اتخاذ قرارٍ سريع بصدد كيفيّة التعامل مع الحالة الناشئة للتو في بلدهم ، كما تقاطر المسلمون من كلِّ صوبٍ مِنْ أجل متابعة مجريات الاجتماع ، و النظر إلامَ يفضي النقاش المرتقب بين نخبة المهاجرين والأنصار .[١]

كان خُزَيْمَةُ بن ثَابِت ، و هو أوسيّ من بني خطمة أوّل من تكلّم من الأنصار في الاجتماع ، فطلب من اليثاربة الحاضرين الإجماع على مرشحٍ واحد يكون ذا نفوذٍ ، و يتمتع بالهيبة الضروريّة ، و الكفيلة بفرضه على القرشيّيْن من جهة ، و يقبل به عموم الأنصار من جهة ثانية ؛ فاتفق المجتمعون اليثاربة على سَعْدِ بنِ عُبَادَةَ ؛ مما سبب انزعاجاً واضحاً في صفوف المهاجرين المتواجدين .

---

[١] كتابُ الرَّدة ، ٥٩ .

على أنّ ترشيحَ سعدٍ لم يحظَ بإجماعٍ مطلق من الأنصار ، بل كان معسكرهم يفتقد وحدة الموقف و منذ البداية ، حيث كان واضحاً وجود تيار في صفوف اليثاربة يدرك ضرورة الإسراع بشغل موقع السُّلْطَة الشّاغِر ، خوفاً من خسارة المكتسبات التي بدأت تلوح في الأفق لصالح المدينة ، و قد مثّل هذا التيار مَالكُ بن التَّيِّهان (أوسي) ، الَّذِي قدم نصيحته بأنْ تكون الخِلافَة بيد قرشيّ عموماً ، أو في بني هاشم ؛ و بخلاف ذلك فسوف يتعرضون للهلاك بسبب الوَضْع العام في الجَزِيْرة العَرَبِيّة ، و المتمثل بوجود حركات ذات طابع دينيّ بقيادة طُليحة بن خُويلد الأسدي بنجدَ ، و مسيلمة باليَمَامَةِ ، و كي لا تتخلى القبائل العربيّة عن ولائها للدين الجديد ،[٢] و كان المقصود بالطبع الخوف من أنْ تتخلى القبائل عن خضوعها لهم ؛ و لم يكن الخوف من خسارة المكتسبات العاملَ الوحيد الَّذِي حدا بهذا التّيار لتبني هذا الموقف ، بل كانت ثمّة دوافع تتعلق بالعلاقة بين الأنصار أنفسهم دفعت بهذا التّيار للإحجام عن تأييد سَعْدِ بنِ عُبَادةَ ، و الدّعْوة إلى نقل السُّلْطَة لقرشيّ ، و فيما بعد سنرى العوامل التي حفزت هذا التيارَ على سلوك هذا الموقف المنافح عن تنصيب قرشيٍّ .

في بدء الاجتماع طالب أنصار آخرون (أُسيد بن حَضير الأوسي ، و بَشير بن سَعْد الخزرجيّ ، و عُوَيم بن سَاعِدَة الأوسيّ ، و مَعْن بن عَدِيّ من ضُبَيعة) بعدم اتخاذ قرار بشأن المرشح للخلافة ، بل التريّث لمعرفة وجهة نظر قريش ، و قبول مرشحها الَّذِي تختاره ؛[٣] في حين طالب بقية المجتمعين بدعوة سَعْد بن عُبَادةَ ، الَّذِي كان مريضاً ، و الَّذِي سيخرج إليهم فعلاً ، ثم جلس بينهم ملتفاً بكساء ، فشرع يتكّلم ، و ينقل واحد من أقربائه ما يقوله للحاضرين، و يُعتقد أنّ قيساً ـ ابنه ـ هو من كان ينقل كلامه للنّاس .[٤]

في خطبته قدم ابن عُبَادة تحليلاً لمسار الدّعْوة الإسلاميّة ، و قسمها إلى مرحلتيْن ؛ الأولى تبشيريّة ـ سلمية في مكَّة حيث كان مُحَمَّدٌ يبحث عن المؤمنين و حسب ، و لم يتمكن فيها إلا من كسب عددٍ قليل منهم ؛ مما لم يَحُلْ بينه و بين نشر الإسلام في مكَّةَ و حسب ، بل حال بين المسلمين ، و بين حماية أنفسهم

---

[٢] كتابُ الرَّدة ، ٥٥ ـ ٥٦ .

[٣] كتابُ الرَّدة ، ٦٠ ـ ٦٢ .

[٤] الإمامة و السياسة ، أبي محمد بن عبد الله بن مسلم ، ابن قتيبة ، مطبعة الأمة ، القاهرة ، ١٣٢٨ هـ ، ١ / ٩ .

من تعديات القرشيّين ؛ و المرحلة الثّانيّة مقاتلة ، عندما وجد محمّدٌ في اليثاربة أنصاراً مؤمنين برسالته السماويّة ، فانتقل إلى يثربَ ، حيث وجد هو و المسلمون المهاجرون فيها الحماية ، و الملاذ الآمن لهم ، كما عثر مُحَمَّدٌ على المؤمن المقاتل في المدينة ، و الَّذِي غيّر مسار الحركة الإسلاميّة و فتح أمامها سبلاً غير مطروقة من قبل ؛ فصار الأنصار ذراع محمّدٍ الضّاربة ، و أصبحت يثرب حصن المسلمين المتين ، و بفضل اليثاربة فقط تمكّن محمّدٌ من تحقيق انتصاراته ، و أقرّت له القبائل العربيّة ، إنْ طوعاً أو كرهاً ؛ و لهذه الأسباب دعا سعدٌ الأنصار إلى أنْ يتولوا زمام الأمور دون تردد .

أيد المجتمعون اليثاربة فحوى خطابه ، و اقترحوا بحضوره ترشيحه مجدداً . و نتيجة لذلك فُتح باب النقاش حول احتمالات ردود فعل المهاجرين على صدور قرار أحادي الجانب من قِبَل الأنصار يقضي بتنصيب سعدٍ ، دون التشاور معهم في المسألة .

دار النقاش أولاً عن الموقف الواجب اتخاذه في حال جادل المهاجرون بأنَّ مُحَمَّداً قرشيّ ، و أنهم ينتمون لعشيرته ، و أنّه لا يجوز لأحد أن ينازعهم أحقيّة الخِلافَة ، فكانت ردود طائفة منهم : « في هذه الحالة ، نطالب بتعيين أميرَيْن : واحدٍ من المهاجرين ، و الأخر من الأنصار » .

أدرك ابن عُبَادة ضعف جبهة الأنصار و أنّ قومَه لا يقفون موقفاً منسجماً ، و هذا علامة جلية على ضعف إرادتهم السِياسِيّة ، فقال معلقاً على اقتراح مبدإ الأميرَيْن : « هذا أوّل الوهن ! » .[٥]

انضمام نخبة المهاجرين للاجتماع

في هذا الأثناء كانت نخبةُ المهاجرين غائبةً بالكامل عن السَّقِيْفة ، و توزعت هذه النخبة إلى فئتيْن : الفئة الأولى ، و ضمت عليّ بن أبي طالبٍ ، و الزّبير بن العوام ، و طلحة بن عبيد الله ، و كانوا وقتها في بيت فاطمة ، و الفئة الثانية كانت في منزل مُحَمَّدٍ حسب بعض الرّوايات ، و اشتملت على أَبِي بَكْر الذي اجتمع إليه بقية المهاجرين ، كما انضم إلى هذه المجموعة أُسيد بن حَضير في بني عبد

---

[٥] تاريخ الطبري : ٢ / ٢٤١ ـ ٢٤٢ ؛ الكامل : ٢ / ٣٢٨ ؛ شرح نهج : ٢ / ٣ .

الأشهل ؛[٦] و هم بطن من الأوس ، فتعززت قوة فئة المهاجرين الثانية بالمقارنة مع الفئة الأولى ، لكن علينا أن نفترض أن انضمام أُسيد كان بعد اجتماع السَّقِيْفة ، لأنّه كان حاضراً في الاجتماع قبل وصول أَبي بَكْر و صحبه كما يتضح من بداية الحوار الَّذِي دار بين الأنصار ، و الإشكال لا يحل إلاّ إذا افترضنا أن البتَّ بقرار تعيين سعدٍ أُرجئ لبعض الوقت للتشاور ، أو أن أُسيداً انسحب لأسبابه الخاصة ، و سنرى لاحقاً أن الفرض الثاني أدنى للحقيقة .

لم يكن عُمرُ حاضراً مع الفئة الثّانية ، و لم تشر الرّوايات إلى مكان وجوده ، لكن الرّوايات تجمع على أنّه علم بالخبر من مصدر لم تعيّنه الرّوايات أيضاً ، و ينفرد ابن أبي الحديد بالقول إن مَعْن بن عَدِيّ هو مَنْ أوصلَ الخبرَ إليه ؛ و يبدو أن السبب يعود إلى أن عُوَيم بن سَاعِدَة ، و مَعْن بن عَدِيّ كانا على علاقة جيدة بأَبِي بَكْر ، و بنفس الوقت كانا على علاقة عدائية مع سَعْد بن عُبَادةَ ؛ و قد رفض عُوَيم بن سَاعِدَة بشدة في بدء الاجتماع تعيين سعدٍ ، فتعرضّ لشتم الأنصار ، و طُرد ، فانطلق مسرعاً حَتَّى أنضم إلى أَبِي بَكْر ؛[٧] في حين أن الرّوايات الأخرى لا تعطي هذا الدور لهما و تكتفي بالقول بأن أَبَا بَكْر و عمر و بينا كانا في الطريق إلى السَّقِيْفة التقيا بهما ، و عندها حثاهما على الإسراع .

ما إنْ علم عمرُ بالخبر حَتَّى سارع إلى أَبي بَكْر فأعلمه نبأ اجتماع الأنصار في سَقِيفة بني ساعدة ، و أنّ الاتجاه الغالب في صفوف الأنصار يميل لتَوْلية سَعْدِ بنِ عُبَادةَ زمام السُّلْطَة؛ و أن الاتجاه الأقّل تشدداً في صفوفهم يطالب بأنْ تكون السُّلْطَة منقسمة بين أميريْن : أنصاري و قرشيّ ؛ فتوجها مسرعين نحو السَّقِيْفة ، و توجه معهم أَبُو عُبَيْدَةَ بن الجَرَّاح ، ولا نعرف كيف أنضم إليهما ، أعن طريق الصدفة أم أخذاه معهما ، لأنّه لم يكن حاضراً مع أَبِي بَكْر ، و من المرجح أنّهما أرادا اصطحابه معهما لتقوية موقع القرشيّين بوجود الشخصيّات النافذة ، و صحب الثلاثة جماعة من المهاجرين ،[٨] و يضم النوبختي للثلاثة المغيرة بن شعبة الثقفي .[٩]

---

[٦] ابن هشام : ٢ / ٦٥٦ .
[٧] شرح نهج : ٢ / ٣ ، ٧ ـ ٨ .
[٨] تاريخ الطبري : ٢ / ٢٤١ .
[٩] فِرَق الشيْعَة ، أبي محمد الحسن بن موسى النوبختي ، تحقيق هـ . ريتر ، استانبول ، مطبعة الدّوْلَة ، ص ٣ .

وصل أَبُو بَكْر و صحبه إلى مكان الاجتماع ، فرانَ على السَّقِيْفة صمتٌ لبعض الوقت. ثم إن ثَابِت بن قَيْس بن شَمَّاس (الخزرجي) قام بقطع حبل الصمت ، فذكرهم بأنّ مُحَمَّداً أقام بمكَّة على الأذى و التكذيب ، و أنّ الأنصار قد استضافوا المهاجرين ، و قاسموهم الأموال ، و قدموا لهم المأوى ، و إنّ اللَّهَ قد ذكر فيهم : ﴿ الَّذِينَ تبوّءوا الدَّار و الإيمان مِن قَبْلِهم يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إليهم ﴾ ،[١٠] و كما ذكّرهم بأنّ مُحَمَّداً ذكر فيهم فضائل شريفة ، و ختم حديثه بملاحظة أنّ مُحَمَّداً لم يعيّن رجلاً بعينه خليفةً ، و لهذا فإنه يرى أنّ الأنصار هم أصحاب الحق بالإمامة [١١] على أساس دورهم الَّذِي لا يُستَهان به في الحركة الإسلاميّة . ويمكن أنْ نلاحظ أنّ مضمون خطاب ثابت مشابه لمضمون خطبة سَعْدِ بنِ عُبَادةَ و التي أُلقيت قبيل قدوم أَبِي بَكْر و عُمرَ مما يدلّ على أنّ نقاشات موسعة كانت تجري قبيل وفاة مُحَمَّدٍ بين نخب الأنصار ، و قد توصلوا إلى رأيٍ مشتركٍ كما تعكسها وحدة مضمون كلماتهم في الاجتماع .

أراد عُمَرُ أن يتكّلم ، فاستمهله أَبُو بَكْر ، و طلب الكلام ، و شرع بخطاب لا يمكن التقليل من قيمته الدبلوماسيّة ؛ فأقرَّ للأنصار بدورهم الفعّال في الحركة الإسلاميّة ، و اعترف بفضلهم ، حيث لم يترك شيئاً يتعلق بالأنصار قرآنيّاً ، و ذكره مُحَمَّدٌ إلاّ و ذكره هو نفسه ؛[١٢] لكنّه تابع شارحاً أنّ العربَ لا يمكن أنْ تقبل تَوْلِيَة أمرٍ بهذا الأهميّة لغير قرشيّ ، بسبب النفوذ السِياسِيّ و المعنويّ الَّذِي بحوزة قريشٍ ؛ فانطوت عبارات خطابه على تحذيرٍ من خطر انهيار الإنجازات التي حققتها الحركة الإسلاميّة في حال آلت مقاليد الأمور إلى غيرٍ قرشيّ . و بعد أن أنهى خطبته اقترح عليهم انتخاب عمر أو أبي عبيدة بن الجراح .[١٣]

---

[١٠] الحشر / ٩ .

[١١] كتابُ الرَّدة ، ٦٢ ـ ٦٣ .

[١٢] من الأحاديث التي ستروى على لسان أَبِي بَكْر « لو سلك النّاس وادياً و سلكَت الأنصار وادياً لسلكت وادي الأنصار » .

[١٣] كتابُ الرَّدة / ٦٤ ؛ ابن هشام : ٢ / ٦٥٥ ؛ تاريخ الخلفاء ، ١١٤ .

الجدل بصدد كلمة أَبِي بَكْر

بدأ الجدل بشأن كلمة أَبِي بَكْر عندما قام ثابت بن قيس ، فسأل المهاجرين إنْ كانوا يوافقون على مضمون كلمة أَبِي بَكْر ، فأجابوه بنعم . عند ذلك نقد ثابتٌ المهاجرين و أَبَا بَكْر سويةً ، و قد تمحور نقده على اقتراح سابق للمهاجرين بترشيح أَبِي بَكْر لمنصب الخِلافَة ـ كما تشير مُحاجّة ثابت ـ ، و قال لهم بأنّهم رشّحوه استناداً إلى أنّ مُحَمَّداً طلب منه إمامة الصّلاة في فترة مرضه ، و أنّهم فهموا هذا كاستخلاف له ، فإذا كان هذا الكلام صحيحاً فإنَّ اقتراح أَبِي بَكْر بتعيين عمرَ أو أبي عبيدة فيه مخالفة صريحة للقرار النَبَوِيّ ، أو أنّ المهاجرين قد افتئتوا على نبيّهم عندما حمّلوا إمامة أَبِي بَكْر الصّلاة معنىً أوسع مما قصد إليه مُحَمَّدٌ ، و بهذه الحجة شكّك ثابت بنزاهة المهاجرين بعد أنْ وافقوا على كلمة أَبِي بَكْر ، وتراجعوا عن موقفهم الأوّل الداعي إلى تعيين أَبِي بَكْر .

استمرّ النّقاش مفتوحاً فأقترح المهاجرون أنْ يكون الأميرُ منهم ، على أنْ تُناط مسئوليّة معونته بالأنصار ؛ لكن الحُبَاب بن المُنْذِر بن الجموح (خزرجيّ) رفض هذا الاقتراح ، و أعاد وجهة نظر الأنصار بأنّ انتصار الإسلام كان بفضل سيوف الأنصار ،[١٤] ثُمّ طلب من الأنصار حسم قرارهم لوحدهم ، و ذكّرهم بأنّهم هم أهل المدينة ، و أنّ المهاجرين ضيوفٌ عليهم ، و لن يتجرأ أحد منهم على تحديهم ، أو مجابهتهم ، بما يملكون من « عدد ، و منعة ، و تجربة ، و بأس ، و نجدة » ، و إنّ القرار النّهائيّ يعود للأنصار وحدهم ، بشرط المحافظة على وحدة صفهم ، و إذا رفض المهاجرون هذا القرار ، فأقلّ ما يقبل به الأنصار أميريْن .[١٥]

جاء رفض اقتراح الأميريْن من قبل أنصاريْن هما : أُسيد بن حَضير ، و بَشير بن سَعْد (خزرجيّ) ـ اللذين دعوا لترك الأمر لقريش من قبل ـ ، و حاجا باستحالة وجود أميريْن في بلدٍ واحدٍ ، فرد الحُبَاب عليهما بأنّه أراد عزّ الأنصار بهذا الاقتراح .[١٦] كذلك جاء رفضُ المهاجرين لاقتراح الأميريْن على لسان عُمرَ ، الَّذِي أكد استحالة إدارة بلد واحد من قبل قائديْن ، و عاد فذكر مضمون خطاب

---

[١٤] كتابُ الرِّدة ، ٦٤ ـ ٦٥ .
[١٥] الطبري : ٢ / ٢٤٣ ؛ الكامل : ٢ / ٣٢٩ ؛ شرح نهج : ٢ / ٤ .
[١٦] كتابُ الرِّدة ، ٦٦ .

أَبي بَكْر بصدد ضرورة قرشيّة الخليفة ، و خصوصاً أنّ مُحَمَّداً قرشيّ ، و هذا يمنح الخليفة القرشيّ المرتقب حجةً بوجه رفض القبائل العربيّة المحتمل .

حث الحُبَاب بن المُنْذِر الأنصار على التماسك ، و رفض وجهات نظر عُمرَ و غيره من المهاجرين ، لئلا تضيع منهم السُّلْطَة ، و دعا لإجلاء المهاجرين عن المدينة في حال رفضهم الإقرار بحقِّ الأنصار بالخِلافَة أو في المشاركة فيها ، و حثّ قومه على أخذ زمام المبادرة لأنّ فضل خضوع من خضع للإسلام يرجع للأنصار ؛ ثم انتضى سيفه ، و هدّد بإشعال الموقف بقوله :

((أما واللَّه لئن شئتم لنعيدنّها جَذَعَةً ،[١٧] و واللَّه لا يردّ أحدٌ علي بعد هذا إلا خطمت أنفه بالسيف)) ؛ فرد عليه عمرُ ، و قال له : ((إذاً يقتلك اللَّه !)) ، فأجابه الحُبَاب : ((بل إياك يقتل !)) ؛[١٨] و يمكن أن نفترض أنّ العلاقة غيرُ الوديّة التي كانت بينهما بسبب منازعة جرت في حياة مُحَمَّدٍ [١٩] لا نعرف سببها كانت السبب المباشر الَّذِي جعل النقاش حاداً بينهما ؛ فصار عُمَرُ و الحُبَاب نقطةَ صدامٍ وجهتيْ نظر الأنصار و المهاجرين ، مما هدد بقلب الأمر رأساً على عقب .

بعد ذلك حاول عُمرُ التخفيف من حدة النقاش ، فشرع يناقشهم بلغة مشوبة بالرفق ، ويحذرهم من أن يكونوا سبباً لحدوث انشقاقات داخل المجتمع الإسلاميّ ، و أنْ يسببوا تفتت الحركة الإِسْلاميّة ، كما ادعى أنّ سعداً فاقدٌ لأهليّة القيادة ؛ فرفض ثابت قوله فوراً ، و أكد أهليّة سعد لها ، و أضاف أنّ ما يزيد من أهليّته أنّه في بلده ، بينا المهاجرون في ضيافته .

اشتدّ التوتر بين المهاجرين و الأنصار ، و بدا كأنّ معركةً ستنشب بينهما ؛ فوثب مَعْن بن عَدِيّ ـ الحليف السريّ للمهاجرين ـ فسكّن الحضور ،[٢٠] و تدخّل أبو عُبيدة ، وطلب من الأنصار ألاّ يكونوا أوّل من بدّل و غيّر و هم أوّل من نصر و آزر .

كما قام بَشير بن سَعْد بن بشير ، فقال لقومه الأنصار ، إن كفاحَهم مع المهاجرين كان بسبب العقيدة الإسلاميّة ، و إنّ مُحَمَّداً قرشيٌّ ، و ((قومه أحقُّ به

---

[١٧] أعدت الأمرَ جَذِعاً : أي جديداً كما بدأ . و إذا طُفِئت حربٌ بين قوم فقال بعضهم : ((إن شئتم أعدناها جَذْعَةً)) ، أي أوّل ما يُبتدأ فيها ، لسان العرب .

[١٨] تاريخ الطبري : ٢ / ٢٤٣ ـ ٢٤٤ ؛ الكامل : ٢ / ٣٢٩ ـ ٣٣٠ ؛ تاريخ الخلفاء ٨٧ ـ ٨٨ ؛ كتابُ الرَّدة ، ٦٨ ؛ مقالات الإسلاميين : ج ١ / هامش رقم ٤١ .

[١٩] الإمامة و السياسة ، ١ / ٩ .

[٢٠] ردة الواقدي / ٧٠ .

وأولى)) ،[٢١] في حين طلب زَيْد بن ثَابِت (الخزرجي) من قومه أنْ يبقوا أنصاراً للمهاجرين كما كانوا أنصاراً لمُحمَّدٍ المهاجر القرشيّ .[٢٢]

هنا ينهض أَبُو بَكْر و يقترح مجدداً مبايعة عمر بن الخطاب ، أو أبي عبيدة ؛ فيرفض عُمرُ الاقتراح و يلحّ على البَيْعَة لأَبِي بَكْر . ثم إنّ عمرَ و أبا عبيدة يمما وجههما شطر أَبِي بَكْر لمبايعته ، فإذا ببَشير بن سَعْد يسارع إلى بيعته ، فيسأله الحُبَابُ و المرارة تنضح من كلماته : ((أَنَفِسْتَ على ابن عمّك الإمارة !)) ؛ و بهذا يكون بَشير بن سَعْد أول من بايع أَبَا بَكْر [٢٣] رغم كونه خزرجياً ، و يعود هذا إلى عداوة مستحكمة بينه و بين سَعْد بن عُبَادةَ دفعته لتأييد أَبِي بَكْر .[٢٤]

إسراع الأوس للبَيْعَة

لاحظنا أنّ معسكر الأنصار لم يكن متماسكاً ، و السبب يعود إلى أنّ الأوس لم يدعموا ترشيح سَعْد بن عُبَادةَ خوفاً من أن تُضاف أفضليات لخصومهم القدماء ـ الخزرج ـ في حال إنتقال القيادة إليهم ، و خوفهم من أن يستأثروا بالقيادة أبداً ؛ فسارعوا لبيعة أَبِي بَكْر ، بتشجيع أُسيد بن حَضير . عند ذلك تضعضع موقف سَعْد بن عُبَادةَ ، و الخزرج ، و كان الَّذِي شجّع الأوس على الإقدام على البَيْعَة لأَبِي بَكْر أن بَشير بن سَعْد قد بايع و هو شخصية خزرجيّة بارزة ، مما جنّب الأوس المجابهة مع الخزرج . و يبدو أن قبيلة أَسْلَم البدويّة تحركت بدورها للمشاركة في اختيار الخليفة حَتَّى تضايَقَت بهم الطرق المؤديّة للسقيفة ؛ فأعلنت تأييدها لاختيار أَبِي بَكْر ، و قد علّق عمرُ لاحقاً على مبايعتها ، قائلاً : ((ما هو إلاّ أنّ رأيتُ أَسْلَم ، فأيقنت بالنّصر)) . لن تغفر لها مدرسة المدينة في التاريخ مشاركتها فتورد روايةً تفيد بأنّ معاوية بن أبي سفيان لما حجّ نظر إلى بيوت أَسْلَمَ شوارع في السّوق ، فقال : ((أَظْلِموا عليهم بيوتهم أَظْلَمَ اللّه على قبورهم قتلةَ عثمان)) .[٢٥]

---

٢١ تاريخ الطبري : ٢ / ٢٤٣ ؛ الكامل : ٢ / ٣٣٠ .
٢٢ ابن سعد : ٣ / ٢١٢ .
٢٣ الكامل : ٢ / ٣٣٠ ـ ٣٣١ ؛ ابن سعد : ٣ / ١٨٢ .
٢٤ شرح نهج : ٢ / ٤ .
٢٥ ابن سعد : ٣ / ٧٨ .

سارع المهاجرون الحاضرون إلى بيعة أَبِي بَكْر من غير أن يُطلب منهم ذلك ؛ فنتج ازدحام جراء تدفق الناس للبيعة ، و كاد المزدحمون يطئون سَعْد بن عُبَادةَ بأرجلهم ، فحذر رجل من الأنصار أن يؤدي ذلك إلى مصرعه ، بسبب مرضه الشديد ؛ فقال عمر : ((اقتلوه قتله الله !)) ؛ إلاّ أنّ أَبَا بَكْر طلب منه التحلّي باللين فهو أكثر فعاليةً في هذا الظرف .[٢٦]

كان الحُبَاب بن المُنْذِر أكثر الأنصار غضباً لما تمخض عنه الاجتماع ، فاستلّ سيفه من غمده ، لكنّ الأنصار طوقوه و منعوه من فعل أي شيء ، و حاولوا تهدئته ، فقال : ((أتسكنونني و قد فعلتم ما فعلتم ؟ أما والله و كأنّي بأبنائكم و قد وقفوا على أبوابهم يسألون الناس الماء فلا يُسقون)) .[٢٧]

مع سيطرة الأنصار على الحُبَاب انتهى اجتماع السَّقِيْفة بتولية أَبِي بَكْر خليفةً لِمُحَمَّدٍ ، و زعيماً للحركة الإسلاميّة ، و عند هذا المفصل في تاريخ الإسلام يمكننا أن نحدد منعطفاً كبيراً في تاريخ الحركة الإسلاميّة ، و قفزة في مسارها . و سيبقى اجتماع السَّقِيْفة مادة للنقاش و التأويل عند مختلف التيارات ، و الاتجاهات الفكريّة للإسلام ؛ لكنّنا نعتقد أنّ كل نقاش للسقيفة يجب أن يكون في إطار دارسة شاملة لجذور هذه اللحظة التاريخية ، و يهدف عملنا الحالي إلى تقديم المادة التاريخيّة و فحصها للخروج منها بأجوبة عن ميلاد الدّوْلَة الإسلاميّة ، أما الجوانب المتعلقة بالقراءة السِياسِيّة للاجتماع ، و كيف وُظفت مختلف القراءات في سياق الصّراع السِياسِيّ المذهبيّ فهي خارج نطاق الكتاب الحالي ، و إنْ كان كتابنا سيوفر المادة التاريخيّة الضروريّة لأيّة معالجة من هذا القبيل .

في هذا السياق يجب أن نشير إلى أنّ طه حسين يرفض تفاصيل الاجتماع ؛ أولاً ، لأنّ الرّوايات قد دُونت بعد انقضاء عهد الخلفاء الراشدين ؛ ثانياً ، إنّ نقل الرّوايات تم مشافهةً، و قد لعبت الذاكرة دوراً في تشويه الأحداث ، ثم يتساءل طه حسين في إطار نقده تفاصيل الاجتماع : ((فغريب أن تعود إليهم جاهليتهم بكل ما كان فيها من الحقد و الحسد والموجدة فجاءة في اليوم نفسه الَّذِي قُبض فيه النَّبِيّ)) ، و يتابع : ((ما ينبغي أن ننسى أنّ من الرّواة من كانوا من الموالي الَّذِي لم تبرأ قلوبهم من الضِّغن على العرب)) .[٢٨]

---

٢٦ تاريخ الطبري : ٢ / ٢٣٦ ، ٢٤٣ ـ ٢٤٤ ؛ كتابُ الرَّدة ، ٧٤ ؛ خلدون ، م ٢ ، ج ٢ / ٦٤ .
٢٧ كتابُ الرَّدة ، ٧٢ .
٢٨ الشيخان ، ٣٥ .

في الفصل التالي سنفحص طبيعة علاقات الأنصار الداخليّة في إطار دراستنا للعوامل التي أوصلت أَبَا بَكْر إلى سدة القيادة ، و سنرى إنْ كانت وجهة النظر هذه تستند إلى معيار النقد التاريخيّ أم إلى رغبة في قسر التاريخ وفق رؤى محددة ، و فقط بعد دراسة عوامل نجاح أَبِي بَكْر يمكننا رفض هذه الرؤية أو قبولها ؛ لكن علينا أن نلاحظ : أولاً ، إن تفاصيل الاجتماع لم ترد عند مؤرخين معادين للسلطة الإسلاميّة ، بل عند مؤرخين مسلمين لا يبغون تشويه تاريخ الإسلام المبكر بجملته ، و الَّذِين شوهوا الحقائق التاريخية ، فإنهم قاموا بعملهم لحساب موقف مذهبي أو عصبي ، أي إنّهم شوهوا جزءاً من التاريخ ، و ليس كل التاريخ . شهروا بشخصيات بعينها ، لا بجميع الشخصيات ؛ ثانياً ، نلاحظ أن الواقدي يسهب في ذكر تفاصيل الاجتماع ، و هو من مؤرخيّ مدرسة المدينة ، و من دون شك لم يكن الواقدي يرغب بتشويه صورة أنصار العهد المحمّديّ ـ أجداد معاصريه .

إن الواقدي و الطبري و غيرهما من المؤرخين تمكنوا من تدوين التاريخ دون هواجس عقائديّة ، فقدموا لنا مادةً غنيةً ما زلنا ندرسها ، و نعيد دراستها على ضوء مناهج البحث الاجتماعيّة المختلفة ، و إذ نظرنا إليهم حسب ظروف عصرهم فإنّهم كانوا أكثر جراءةً من معاصرينا ، إذ لو كان الواقدي ، المؤرخ الكبير لمدرسة المدينة ينظر إلى الاجتماع نظرة طه حسين لما حدثنا عنه بإسهاب ، و على ما يبدوا فإنّه كان يدرك جيداً حقائق النفس البشريّة، و طبيعة الحياة العمليّة ، فلم يرَ غضاضة في روايته لمجريات اجتماع السَّقِيْفة لأنّه كان يروي عن الحياة الواقعية ، لا عن المتخيل ، أو المأمول .

عوامل نجاح أَبِي بَكْر

١ ـ تفكك مُعَسْكَر الأنصار

كان مرشّح الخزرج ـ سَعْد بن عُبَادة ، يملك حظّاً وافراً لتقلّد منصب الخِلافَة بسبب النّفوذ الَّذِي كان يملكه في يثرب العهديْن : القبمُحَمَّديّ ، و المُحَمَّديّ ، و مع ذلك أخفق مسعى الَّذِين أرادوه خليفةً . كان إخفاقهم راجعاً إلى عدّة عوامل : و أولهما ، إنّ معسكر الأنصار لم يكن موحداً في قضية دعم ترشيحه بسبب افتقاده للتناغم الاجتماسيّ بين جزئيه المكونيْن ـ الأوس و الخزرج ـ ، فباء ترشيح ابن عُبَادة بالفشل ، و سبب فشله الرئيس هو رفض الأوس له ، و وجود شخصيّات خزرجيّة معادية له ، و يعود عداء هؤلاء اليثاربة إلى طبيعة العلاقة الداخليّة الَّتِي كانت تحكم حياة الأنصار الاجتماعيّة قبل الهجرة ، و الَّتِي تكّونت في مجرى تاريخهم المشترك .

الأصول

الأنصار لقب قبيلتيْ الأوس و الخزرج ، و قد أُلقبوا بالأنصار من قِبل مُحَمَّدٍ لاستقبالهم مهاجري قُرَيْش المسلمين ، و نصرتهم حركة الإِسْلام ، و تعود أصول هاتيْن القبيلتيْن إلى اليمن . و من الملاحظ أنّ انْحِدار القبائل من اليمن كان تفسيراً نموذجيّاً (تاريخيّاً ، أو أسطوريّاً) يتكرر في كل مرة عند الحديث عن أصول قبائل الجَزِيْرة العَرَبِيّة ، و في هذا النّموذج نجد أنّ اليمن منبع القبائل العربيّة ؛ و لأنّ موضوع جذور القبائل العربيّة في الجزيرة العربيّة خارج عن نطاق بحثنا فإنّنا لم نفحص إمكانّية تطابق هذا النّموذج مع الواقع التاريخيّ من جهة ، و ما إذا كان ينطبق على كل القبائل في الجزيرة العربية .

حسب هذه الرِّوايَات فإنّ هجرة الأوس و الخزرج كانت مع بدء سد مأرِب بالتصدع ، و الَّذِي إمّا كان نذيراً بانحطاط الحضارة في الزاوية الجنوبيّة ـ الغربيّة من الجَزِيْرة العَرَبِيّة ، و إمّا كان يعود إلى تحول الطرق التّجَارِيّة و ما نتج عنه من انخفاض لمستوى المعيشة ، فأدى على المدى الطويل إلى انهيار السد حسب رأي المستشرقين ، و قد غادرت هاتان القبيلتان اليمنَ ضمن هجرة كبيرة ، تفرق بعدها النازحون في أجزاء الجَزِيْرة العَرَبِيّة ، فسكنت خُزاعة الحِجاز ، و الأزدُ عُمان ، و سكنت آل جفنة من غسّان الشّام ، و اتجهت آل جذيمة الأبرش نحو العراق بينا وصل الأوس و الخزرج يَثْرب .[١]

كان ثمّة قبائل يَهُوْديّة تسكن يثرب ؛ منهم قُرَيْظة ، و النّضير ، و بنو قَيْنقاع ، و بنو ماسلة ، و زعورا ، و غيرهم ؛ و كانت هذه المجموعات اليَهُوْديّة قد بدأت بالوصول إلى المنطقة منذ القرن الأول الميلادي ،[٢] و لا نعرف كيف جاءوا إليها ، و ما إنْ كانوا من أصل عبراني ، و هل يتحدرون من الفارّين الَّذِين جاءوا من فلسطين بعد ثورة باركخيا ، و هل كان معظمهم عرباً اعتنقوا الدِّين اليَهُوْديّ .[٣] على أنّ المؤرّخين العرب القدماء يميلون لتفسير مجيئهم إلى المنطقة فراراً من الاضطهاد الرّوماني في بلاد الشّام ، و إنّهم لمّا وصلوا يثرب كان بها أقوام من جرهم و أحفاد العماليق .[٤]

كانت قبيلة بنو قَيْنقاع من بين القبائل اليَهُوْديّة المهمة الثلاثة في يثرب ، و لم تكن تملك أراضٍ للزّراعة بل كانت تسكن قرية يكتظ فيها السكان ، و فيها سوق يُزاول فيها الصّناع مهناً متعددة و منها مهنة الصّياغة . أما قُرَيْظة و النّضير فكانتا تملكان بعض أخصب أراضي يثرب ، وهي تقع إلى الجنوب ، و كانت مخصصة لزراعة أشجار النخيل . علاوة على التجمعات اليَهُوْديّة كان يعيش فيها بعض العرب خاضعين لليَهُوْد ، و الحدّ الفاصل بين العرب و اليَهُوْد غامضٌ ،[٥] و ربّما كان

---

[١] الأزرقي : ١ / ٩٢ ـ ٩٦ ؛ الكامل : ١ / ٦٥٥ ؛ وات ، ١٧٨ ؛ تاريخ الإسْلام : ١ / ٢٨ .
[٢] تاريخ الشعوب الإسلامية ، كارل بروكلمان ، ترجمة : نبيه أمين فارس ، منير البعلبكيّ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ١٢ ، آذار (مارس) ١٩٩٣ ، ص ٢٨ .
[٣] وات ، ٢٩٢ .
[٤] تاريخ ابن خلدون ، م ٢ ، ج ١ / ٢٨٧ ؛ فتوح ، ٢٩ .
[٥] وات ، ٢٩٣ ـ ٢٩٤ .

هؤلاء العرب أحفادَ الَّذِين كانوا فيها قبل قدوم اليَهُوْد كما تقول المصادر الإِسْلاميّة القديمة .

كانت يثرب تحوز على أخصب أراضي الحِجاز ، لتوفّر مياه الأودية و الآبار والعيون، فوجدت فيها زراعة النخيل و الشعير و القمح ؛ مما شكّل حافزاً للأوس و الخزرج على الاستيطان فيها ، و ما إنْ استوطنتا حَتّى شرعتا ببناء المساكن و الحصون مثل القبائل اليَهُوْديّة ، حيث كان موقع يثرب المحاطة بقبائل بدويّة يفرض على قاطنيها إقامة الحصون في كافة نواحيها ، خوفاً على المحصول من السلب من قبل القبائل الضاربة حول المدينة . و على أرضية ثبات التجمعات السكّانيّة في المنطقة ، و حاجة أهالي يثرب من يَهُوْدَ و عربٍ إلى أدوات للإنتاج الزّراعي ، و السّلاح ، و لتوفير حاجاتهم من وسائل الدفاع نشأت صناعات حرفيّة ، و صناعة السّلاح : من سيوفٍ ، و دروعٍ ، و رماحٍ ، و سهامٍ ، و لباسِ حربٍ : من خوذ للرأس ، و دروعٍ ذات سمات رومانيّة .[٦]

نهوضهم

كان طبيعيّاً في بادئ الأمر أن تحافظ القبائل اليَهُوْديّة على سيادتها على المدينة لأنها كانت تشغل أفضل الأراضي فيها ، و تحوز على مجموعة حصون تحميها من هجمات القبائل البدويّة ، و من هجمات الأوس والخزرج . و لما لم يكن من السهل على الأوس و الخرزج انتزاع السيادة من اليهودِ فور وصولهم ، فإنّ السيادة بقيت لهم حَتّى تمكنتا من تعديل الوَضْع السيا ـ اقتصاديّ في يثرب بالاستعانة بأبي جبيلة الغسانيّ و اسمه عُبَيْد بن سالم بن مالك ـ أحد أشراف غسان ـ ، الَّذِي قرر مساعدة أبناء عمومته ، فقاد مجموعةً من الشّام ـ لا تحدد المصادر عدد أفرادها ، و أعلن عن أنّ مقصده اليمن ؛ فلمّا وصل يثرب ، طلب من زعماء اليَهُوْدِ اللّقاء معهم ، فلما أتى إليه أشرافهم غدر بهم و قتلهم . و على إثْر هذه الحادثة ضعفت مواقع اليَهُوْدِ ، و تعززت مواقع الأوس و الخزرج ، فتمكنوا من مشاركة اليَهُوْدَ في الأراضي (الدّور ، و النخل) .[٧] و ستكون استعانة الأوس

---

٦ حروب دولة الرّسُول ، ٣٠ ، ٣١ ؛ قُرَيْشٌ : من القبيلة ، ١٩٢ ـ ١٩٣ .

٧ الكامل : ١ / ٦٥٦ ، ٦٥٨ ؛ ابن هشام : ١ / ١٣ ؛ تاريخ ابن خلدون م ٢ ، ج ١ / ٢٨٧ .

و الخزرج بأبي جبيلة فاتحةَ طريقٍ سيسير عليها الطرفان عقب كلّ نكسةٍ تصادفهما لاحقاً .

سَرْعانَ ما نشبت صراعات بين الأشقاء (الأوس والخزرج) ، و الَّتِي اشتعلت على خلفيّة الصراع على الأراضي الصالحة للزراعة بعد ازدياد عدد أفرادهما ، و عدم وجود سلطة مركزيّة تضبط هذا الصّراع ، و هي السُّلْطَة الَّتِي تحتاج إليها المجتمعات المدنيّة المستقرة ؛ و قد ابتدأ الّصراع بحربِ سُمَيْر ، الَّتِي ستشعل نار نزاع مرير بينهما [٨] لن يُخمد أواره إلاّ بعد قدوم مُحَمَّدٍ إلى يثربَ .

استمرت سلسلة التصادمات المسلّحة ، و من أشهرها معركة حاطب ، الَّتِي حقق فيها الخزرج نصراً مؤزراً . ثم معركة بُعاث ، و هي آخر المعارك المشهورة بين الأوس والخزرج ، قد جرت في سنة ٦ قبل الهجرة (ح ٦١٦ م) ، حيث كان الخزرج يرغبون بالاستيلاء على أراضي قُرَيْظة و النّضير بسبب من أنها كانت أفضل أرضي المدينة ؛ ولمواجهة الخزرج قررت قُرَيْظة و النّضير التحالف مع الأوس ، مما أدى إلى هزيمة الخزرج، و أُحرقت دورهم ـ الخزرج ـ و نخيلهم على يد الأوس .[٩]

هذه الصراعات الداخليّة الحادة ، و الَّتِي كانت تأخذ أبعاداً دمويّة في بعض الأحيان ، جعلت كلى الفريقين يبحث عن التحالفات بين القبائل اليَهُوْديّة اليثربيّة ، و خارج يثرب فحاول الأوس محالفة قُرَيْش ضد الخزرج بعد معركة مُعَبّس و مُضَرِّس الَّتِي انهزمت فيها الأوس هزيمةً نكراء ، و كاد المكّيّون يقبلون باقتراح التحالف لولا أن عَمْرو بن هشام ـ أبا جهل ـ نصحهم بعدم التّدخل في الصراع الداخليّ ليثرب .[١٠] ثم حاول الأوس التحالف مع قُرَيْظة والنّضير ، و أثمر مسعاهم عن علاقة تحالفيّة تقوم على أساس الدفاع المشترك .[١١]

---

[٨] الكامل : ١ / ٦٥٩ .
[٩] ابن سعد : ٣ / ٦٠٤ ؛ الكامل : ١ / ٦٧١ ، ٦٨٠ ـ ٦٨١ ؛ د حسان : ٢ / ١٨٤ ، ٢٨٣ ـ ٢٨٥,
[١٠] الكامل : ١ / ٦٧٦ ـ ٦٧٧ .
[١١] الكامل : ١ / ٦٨٠ .

إسْلامهم

كان ثَمّ طرفان يبحثان عن بعضهما في الجَزِيْرة العَرَبِيّة : أولهما ، نَبِيٌّ لم يستطع أن يكسب قومه ، فكان يبحث عن أنصارٍ له ، و مكان جديد لدعوته ؛ فبعد أنْ سلخ عشْر سنوات يدعو فيه للدين الإسْلاميّ تمكّن من جمع حفنة ضئيلة من المؤمنين و حسب ، و كانت معارضة المكّيّين له قد دفعته طوراً أبعد . و عند هذه النقطة اضطر إلى التفكير بالقيام بخطوة حاسمة و ثوريّة ، و كان الأمر يتعلق بنقل دعوته إلى مركزٍ جديدٍ ؛[١٢] و ثانيهما ، سكان بلد أنهكتهم الصراعات الداخلية ، و أشتد على جناح منهم ـ الخزرج ـ وطأة الهزيمة بعد يوم بُعاث . كان الأوس و الخزرج يبحثون عمّن يلجم صراعاتهم الدمويّة ، و يقود سفينتهم إلى شاطئ الأمان ، و و قد حاولوا تأسيس سلطة قبل حصول اللّقاء الأوّل مع مُحَمَّدٍ (عشية اجتماع العقبة الأولى) ، و ذلك عندما أجمعوا على أن يتوّجوا عبد اللّه بن أبي بن سلول ملكاً؛[١٣] لكنّهم كانوا يفتقدون للإرادة و الحكمة الّتِي كانت عند المكّيّين ، فلم يستطيعوا تحقيق إجماعهم ، و لهذا بقي اليثاربة يبحثون عن السُّلْطَة الّتِي توفر لهم الأمن و الأمان . و كل ما استطاعوا إنجازه لتحقيق الأمن هو الاتفاق على « أن لا يُقتل رجلٌ في داره ، و لا نخله غيلةً و لا بياتاً ، و لا جهاراً ، فإذا خرج الرجل من داره فلا ذمّه له و لا عهد » .[١٤] كان بحثهم دائماً خارج يثرب .

أما مُحَمَّدٌ فكان قد بدأ بحثه عن أنصارٍ له خارج مكّة مع وفاة أبي طالب و خديجةَ وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين (٦١٩ م) ، إذ أثّرتْ وفاتهما على معنوياته كثيراً ، لاسيما أبو طالب ، الَّذِي قال عنه مُحَمَّدٌ : « ما نالت قُرَيْش منّي شيئاً أكرهه حَتّى مات أبو طالب » ؛ فشرع يبحث عن الأنصار خارج مكّة ، و قد بدأ بثَقيفٍ فحاول استمالتهم ، بيد أنّه عاد و كلّه يأساً منهم .[١٥]

إنّ حقيقة تأثّر مُحَمَّدٍ بوفاة عمه و زوجه خديجة تناقض ما يرويه ابن سعد من أنَّ مُحَمَّداً بدأ يتوجه إلى القبائل منذ إشْهاره نبوّته ـ ٤ للدعوة ـ ، و يسرد ابن

---

[١٢] Islam: A Historical Survey, H. A. R. Gibb, London, 3rd impression 1978 , p 18 .
[١٣] تاريخ ابن خلدون ، م ٢ ، ج ١ / ٢٩١ .
[١٤] د حسان : ٢ / ٣٩ ، ٤٦ .
[١٥] الكامل : ٢ / ٩١ .

سعد أسماءَ القبائلِ الَّتِي توجه إليها مُحَمَّدٌ ، و هي : ((بنو عامر بن صعصعة ، محارب بن خصَفَة ، فزارة ، غسّان ، مُرَّة ، حنيفة ، سُلَيم ، عبس ، بنو نضر ، بنو البكاء ، كندة ، كلب، الحارث بن كعب ، عذْرة ، الحضارمة)) ؛[١٦] لا يمكننا قبول هذه القائمة أبداً ، لأنّ الظّروف لم تستدعِ في السّنة الرابعة للدعوة الإِسْلاميّة التوجه نحو القبائل أولاً ، و لأنّ ابن سعد من مؤرخيّ مدرسة المدينة في التاريخ ثانياً ، و من الطّبيعيّ أنْ تسعى هذه المدرسة لإظهار فضل الأنصار ، و تمايزهم عن غيرهم من قبائل الجَزِيْرة العَرَبِيّة ، إذ كلّما كثر عدد القبائل الَّتِي توجه إليهم مُحَمَّدٌ ، كلما أُعلي من شأن الأنصارَ ، و قد جعل هدف رفع قيمة الأنصار مؤرخيّ هذه المدرسة يتجاهلون التطور البنيويّ في الحركة الإِسْلاميّة ، و أنماط الدعوة حسب المرحلة .

لم يتمكن مُحَمَّدٌ من استمالة أيِّ قبيلةٍ إليه منذ أن بدأ في هذا المسار ، لكنّ هذا الفشل لم يثنيه عن عزيمته ، فشرع يبشر في المواسم وسط قبائل العرب ؛ و ذات مرة بدا و كأنّ مسعاه سيؤتي أُكله في كسب بني عامر ، إلاّ أنّ سَرْعانَ ما تلاشى هذا الحلم عندما سُئل عن موقفه بعد تحقيق أهدافه ، هل سينتقل إليهم الأمر من بعد وفاته ، فأجابهم : ((الأمر إلى اللّه يضعه حيث يشاء)) ؛ و لأنّ بني عامر لم يروقهم هذا الجواب ، فقد رفضوا مساندته ، و قالوا له كيف نضحي بأرواحنا دفاعاً عنك ، و يئول الأمر إلى غيرنا في حال النصر .[١٧]

---

١٦ ابن سعد : ١ / ٢١٦ ـ ٢١٧ .
١٧ الكامل : ٢ / ٩٣ .

على أيِّ حالٍ لن يطول الأمر بمُحَمَّدٍ حَتّى يثمر جهده الحثيث ، و إصراره على كسب الأنصار ، و ذلك عندما أفادت وقعة بُعاث قضيته بشكل لم يكن يتوقعه ، و ساعدته على إيجاد مركزٍ جديدٍ لدعوته كما كان يأمل . فعقب هذه المعركة قدم أبو الحَيْسر أنس بن رافع مكّة في وفد من بني عبد الأشهل يريد عقد تحالفٍ مع قُرَيْش على الخزرج ؛ و يبدو أنّ الأوس كانوا يتخوفون من ردة فعل الخزرج على هزيمتهم أو أنّهم أرادوا استباقهم إلى قُرَيْش خشيةً من أن يتمكن الخزرج من إنشاء تحالف مع القُرشيّين فسعوا لإفشال هذا المسعى .

على أيِّ حالٍ لم يجدْ وفدُ بني عبد الأشهل إلاّ الرفض من قُرَيْش الَّتِي التزمت مبدأ عدم التّورّط في نزاعات لا تمسهم بأيِّ شكلٍ من الأشكالِ ؛[١٨] و لعلّ إعلانَ قُرَيْش حيادها لم يغضب الوفدَ بل أرضاهم لأنهم ضمنوا حياد قُرَيْش في الصراع الداخليّ ليثرب ، لكنّه سمح لِمُحَمَّدٍ بتجربة حظّه معهم ؛ و رغم أنّه لم ينجح معهم ، لأنهم كانوا يريدون قطع الطريق على الخزرج و حسب ، و لم يكونوا يحتاجون عملياً لنصيرٍ ، دعْ عنك شخص لا يستطيع أن يقدم لهم شيئاً ، إلاّ أنّ مُحَمَّداً بمحاولته تلك تمكّن من مدّ خطِّ اتصالٍ أوّليٍّ مع اليثاربة ، و الفضل في توفير خطّ الاتصال مع اليثاربة يعود إلى معركة بُعاثَ ، و قد أفادت هذه المعركة قضيته لاحقاً ، و بالتّحديد عند هجرته إلى يثرب ، و هي حسب عائشة : ((كان يوم بُعاثَ يوماً قدّمه اللَّه لرسوله ؛ فقدم رسول اللَّه و قد **افترق مَلَؤهم ، و قُتِلَتْ سَرَواتُهُمْ**)) .[١٩]

لربما زاد الاتصال الأوّلي مع اليثاربة مُحَمَّداً ثقةً بإمكانيّة كسب أنصارٍ له ، فاستمرّ على دَيْدَنه يستغلّ مواسم الحجّ و التّجارة للتبشير بالإسْلام ، و بينا هو عند العقبة لَقِي رهطاً من الخزرج ، فشرع يدعوهم إلى معتقده ، ثُمّ تلا عليهم نصوصاً قرآنيّة ، فلاقى قبولاً من بعضهم ، الَّذِي عبر عن أمنيته بأن تنتهي صراعاتهم الداخليّة على يديه ،[٢٠] و بعد ذلك انصرفوا عنه راجعين إلى بلادهم .

في العام التّالي و في وقت الحجّ التقى اثنا عشَر رجلاً يثربياً مع مُحَمَّدٍ بالعَقَبة ؛ وكانوا عشَرة من الخزرج و اثنين من الأوس ، و تسمي المصادر الإسْلاميّة هذا اللِّقاء **العقبة الأولى** ؛ فجرى فيها بيعة اقتصرت على الالتزام بالتعاليم الدينيّة : ((التّوحيد ، عدم السرقة ، عدم الزنى ، عدم قتل الأولاد ، عدم الكذب)) .[٢١] ثُمّ بعث مُحَمَّدٌ معهم مُصْعب بن عُمير بصفته مرشداً روحيّاً ؛ فلُوحظ أنّ انتشار الإسْلام في الخزرج كان أسرع منه في الأوس .[٢٢] و هذا عائد إلى

---

[١٨] الكامل : ٢ / ٩٥ .
[١٩] صحيح البخاري ، ٣٤٩٣ ، ٣٦٣٧ ؛ مسند أحمد ، ٢٣١٨٤ ؛ تاريخ ابن خلدون ، م ٢ ، ج ١ / ٢٩٠ .
[٢٠] ابن سعد : ١ / ٢١٧ ؛ هشام : ١ / ٤٢٩ ؛ الكامل : ٢ / ٩٥ ـ ٩٦ .
[٢١] ابن هشام : ١ / ٤٣١ ؛ الكامل : ٢ / ٩٦ ؛ ابن سعد : ١ / ٢٢٠ .
[٢٢] تاريخ ابن خلدون ، م٢ ، ج١ / ٢٩١ ؛ ابن سعد : ١ / ٢٢٠ ؛ أُسد الغابة : ٤ / ٣٨٧ .

الإحباط النّفسيّ الشديد للخزرج الخارجين من هزيمة بُعاث ، الَّذِين كانوا يشعرون بهوانهم جَرّاء تحالف قبيلتيْن يَهُوْديّتيْن مع الأوس ضدهم .

رجع مصعب بعد ذلك إلى مكّة ، مع وفدٍ من مسلميّ يثربَ الَّذِين خرجوا إلى الموسم مع حُجَّاج قومهم الوثنيين . و في المساء جرى بالعقبة لقاءٌ سرّيٌّ بين اليثاربة المسلمين ـ وكانوا مؤلّفين من حوالي سبعين رجلاً ، و امرأتيْن ـ و مُحَمَّدٍ ، و قد حضر العبَّاس بن عبد المطلب ـ عمُّ مُحَمَّدٍ ـ ، الاجتماع و هو يومئذ مشركٌ من أجل أن يتأكد من أن ابن أخيه سيكون في مأمن .[٢٣] و قد سُمي هذا الاجتماع في التاريخ الإسْلاميّ **العقبة الثانية** ، و سمي كذلك **بيعة الحرب** . و سيشكّل نقلةً نوعيةً في استراتيجيّة مُحَمَّدٍ إذ على إثرها ستأتي الآية : ﴿ أُذِن لِّلَّذين يُقاتَلوَن بأنهم ظُلِموا و إنَّ اللَّهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ ،[٢٤] و هذه الآية كانت أول آية نصت على القتال (الجهاد) ، بعد أنْ نهى القرآن عنه فيما يزيد عن سبعين آية ، و أغلب الرِّوايَات تتفق على أنّ المقصود بها مُحَمَّداً وأصحابَه ، و الظلم الواقع عليهم هو اضطرارهم للهجرة إلى المدينة .[٢٥]

في هذا الاجتماع ـ العقبة الثانية ـ سأل أبو الهيثم بن الَّتِيهان (أوسي) مُحَمَّداً عن موقفه في حال حقّق النصر ، هل سيعود إلى قومِه ؟ و لاسيما أنّ علاقة اليثاربة ـ و بالتحديد الأوس ـ باليَهُوْدِ ستتضرر كثيراً بسبب العلاقة معه ؛ كان أبو الهيثم يفكر من منطلق الصّراع الداخليّ ليثرب ، و يخشى من أن قطع الروابط مع حلفائهم اليَهُوْد قد يضعف من موقفهم لحساب الخزرج ؛ لكنّ مُحَمَّداً تبّسم و قد حَنَّكتُه تجربته مع بني عامر ، و أكّد بأنّ هجرته إليهم تعني مشاركتهم العواقب السلبيّة ، و النتائج الإيجابيّة .[٢٦]

لقد صارت الهجرةُ (أيلول (سبتمبر) ٦٢٢ م) نقلةً ثوريّةً في الدّعْوَة المُحَمَّديّة ، حيث كان مُحَمَّدٌ في الطور المكّيّ مجرد داعٍ ، يحتاج لحماية عصبيّته الهاشميّة من بطش أشراف قُرَيْش ، ثُمّ غدا في الطور اليثربّي زعيمَ مجتمعٍ مطاعاً ، و نَبِيَّ

---

[٢٣] ابن هشام : ١ / ٤٤١ ؛ الكامل : ٢ / ٩٨ ؛ ابن سعد : ١ / ٢٢٣ .
[٢٤] الحجّ / ٣٩ .
[٢٥] تفسير الآية ٣٩ من سورة الحجِّ ، الطبري ، القرطبي ، ابن كثير ، البغوي ، البيضاوي .
[٢٦] الكامل : ٢ / ٩٩ .

عقيدةٍ مقاتلاً . و تعكس الرّواية الإسْلاميّة السّمَة الولاديّة للهجرة (النقلة الثورية) ، فتقول إنّ مُحَمَّداً لاذ هو و أَبُو بَكْر بغارٍ يقع بجبل ثَوْرَ ثلاث ليالٍ ،[٢٧] إذ مثّل الغارُ هنا رحمَ الأم الحامية من الخطر ، و مكوثه في الظّلام يمثلُ استقراراً جنينياً في عماء الرحم ، ثم إنّ خروجه منه حاكى ولادةً جديدةً ، و هي بالفعل كانت ولادةً حقيقيةً لنَبيِّ الإسْلام ، و هذا النّمط الأسطوريّ عند مختلف الشعوب كرّرته التواريخ الإسْلاميّة عن داودَ ؛ إذ يخبرنا الطبري بأنَّ داودَ هرب إلى غارٍ فراراً من طالوتَ ، فأوحى اللّه إلى العنكبوت فنسجت على باب الغار ، و لمّا وصل طالوتُ الغارَ ، و نظر إلى نسيج العنكبوت تيقّن من أنّ داود لم يلتجئ إليه .[٢٨] فعندما تتعرض شخصيّة إلى خطرٍ وجوديٍّ ، فإنّ الحماية المثلى هي العودة إلى رحم الأمّ ، إلى الأمان المطلق ، و الأوّلى ، و العزلة عن العالم الخارجي ، و كذلك فإنّ هذه الشخصيّات قد تحتاج إلى ولادة جديدة للدلالة على أنّها انتقلت إلى طورٍ مختلفٍ كما جرى مع مُحَمَّدٍ و أَبي بَكْر ، أو قد يكون ولوج العماء و الخروج منه دليلاً على محاكاة الموت ، و الولادة مجدداً من أجل التكفير عن الخطايا مثلما جرى مع يونس بن متى (ذي النّون) ،[٢٩] الّذِي ابتلعه الحوتُ بأمر من اللّه .[٣٠]

لقد سمحت الهجرة للدّعْوَة الإسْلاميّة بالدخول في مرحلة جديدة ذات منحىً ثوريّ ، وأكثر تبلوراً باتجاه بناء مجتمع إسْلاميّ ، و دون أن تتعين في فكر مُحَمَّدٍ مسألة بناء دولة متكاملة . و لأوّل مرة في الجَزِيْرة العَرَبِيّة سيجتمع المشرع و الحاكم في شخصيّة واحدة هي شخصيّة مُحَمَّدٍ .

أسباب قبول دعوة مُحَمَّدٍ

شكّل إعلان اليثاربة إسْلامهم نقطةَ تحولٍ كبيرةً في مسار الحركة الإسْلاميّة ، فلقد تلقت الحركة الإسْلاميّة دعماً غير متوقع لها ، و العوامل الّتِي حدت باليثاربة العرب لإعلان الإسْلام ، هي :

---

[٢٧] ابن هشام : ١ / ٤٨٥ ـ ٤٨٦ ؛ تاريخ الطبري : ١ / ٥٦٨ ـ ٥٦٩ .
[٢٨] تاريخ الطبري : ١ / ٢٧٩ .
[٢٩] يونان حسب العهد الجديد ، و الّذِي بقي ثلاثة أيام و ثلاث ليالٍ في بطن الحوتِ (متّى : ١٢ / ٤٠) .
[٣٠] الأنبياء / ٨٧ ؛ الصافات / ١٣٩ ـ ١٤٦ .

١ ـ وجود اليَهُوْد في يثربَ ، و كانوا يملكون كتاباً سماويّاً ، خلافاً للأوس و الخزرج ، الَّذِين كانوا لا يملكون كتاباً مقدساً ؛ و هذا ما خلق عند اليثربيين شعوراً بدونيتهم بسبب من عدم حيازتهم على المقدس السماوي ، و غياب العلاقة مع السماء .

٢ ـ الأفضليات الَّتِي كانت بحوزة اليَهُوْد من أراضٍ و حصون ، و تهديدهم المتكرّر عقب كلِّ نزاعٍ : ((إنّ نبيّاً مبعوثٌ الآن ، قد أظلّ زمانه ، نتّبعه فنقتلكم معه قتلَ عاد وإرَم)) .[٣١] و يعكس هذا الوعيد تذمر اليَهُوْد من وجود اليثاربة العرب ، و رغبتهم بالتخلص منهم ، و عجزهم عن تحقيق ذلك بسبب توازن القوى بينهما .

٣ ـ افتقاد المدينة للمكان المقدس ، الَّتِي كانت تحوزه مكّة (الأرض الحرام ، والكعبة) . و الَّتِي منحت القُرشيّين السطوة المعنويّة على بقية العرب ؛ فصار اليثاربة وسط طرفيْن يملكان المقدس ـ قُرَيْش ، و اليَهُوْد ـ .

٤ ـ الصّراع الداخليّ بين الأوس و الخزرج و الَّذِي أنهك الفريقيْن ، و عدم قدرتهم على تنصيب قائدٍ لهما ، أو تأسيس هيئة جماعيّة تقود المدينة مثل حلف الفضول في مكّة .

٥ ـ تمتع مُحَمَّدٍ بالنّبوّة ، و الَّذِي يسمح لهم ببناء علاقة مع المقدس أولاً ، و كون مُحَمَّدٌ طرفاً محايداً ؛ فإنّه يتمتع بالقدرة على لعب دور الحكم النزيه بينهما ثانياً . و سيكون مُحَمَّدٌ مقبولاً من قبلهما بوصفه حكماً ، و نبيّاً يتحرك بأمر السماء ، لا يسيطر بالنفوذ القبليّ ، و هذا يخلصهم من استعصاء إيجاد الحاكم من وسطهما ، بعدما تَبَدّى عجز اليثاربة عن تكوين إدارة داخلية ، أو تعيين شخصيّة اعتباريّة تتمتع بقبول الجانبين المتصارعيْن .

٦ ـ ضرورة هذه الهيئة من أجل تنظيم شئون المدينة ، و لحيازة قدرة الدفاع عن نفسها بوجه البدو الضاربين حول مدينتهم ، و خشية الأوس و الخزرج من انتقال الهيمنة السِياسِيّة في المدينة إلى اليَهُوْد .[٣٢]

إن بعضاً من الأسباب الَّتِي جعلت اليثاربة يعتنقون الإسْلام هي نفسها الَّتِي منعتهم من الاتفاق على مرشحٍ واحدٍ ، فالنّزاع المتطاول ، إضافة إلى فقدان

---

[٣١] ابن هشام : ١ / ٤٢٨ ـ ٤٢٩ .

[٣٢] Muslim Institutions, Maurice Gaudefroy- Demombynes,translated from the French by: John P. Macgregor, London, 2nd, 1954, p 12 .

الشّخْصِيّة الَّتِي تحظى بالموافقة الجماعيّة ، و الخوف من تجدد الصّراع الداخليّ في يثربَ ، وخصوصاً أنّ الأوس وافقوا على أَبِي بَكْر ، و هذا يمكن أن يجعل الصّراع بين الأوس والمهاجرين من جهة ، و الخزرج من جهة أخرى ، و قد استثمر أبو بكر هذه النقطة في الاجتماع بمهارة عندما وضع الأنصار أمام الاحتمالات الممكنة لتعيين سعدٍ ، قائلاً :

« إنّ هذا الأمر إنْ تطاولت إليه الخزرجُ لم تقصر عنه الأوس ؛ و إنْ تطاولت إليه الأوسُ لم تقصر عنه الخزرج ، و قد كان بين الحيّيْنِ قتلى لا تُنسى ، و جراحٌ لا تُداوى » .[٣٣]

كما أنَّ وجود القبائل البدويّة حول المدينة كان بدوره من الأسباب الضاغطة على الخزرج لعدم المضي في ترشيح سعدٍ ، و نتذكر كيف أن أسْلمَ أسرعت للبيعة ، فعلّق عمر : « ما هو إلاّ أنّ رأيتُ أسْلم ، فأيقنت بالنّصر » .

٢ ـ قُرشيّة أَبِي بَكْر

رأينا كيف إنّ أَبَا بَكْر ، و عُمرَ حاجّا بأنّ قُرشيّة المرشح هي شرط أساسيّ لقبول العرب به ، فهل السبب في أنّ مُحَمَّداً قُرشيٌّ ، أو لأنّ قُرَيْشاً كانت تتمتع بنفوذٍ كبيرٍ في الحِجاز ؛ في هذا الجزء سنحاول تقديم الإجابة على السّؤال التّالي : « مَنْ أسبغ نفوذه على مَنْ ؟ » .

الأصول

كانت جرهم قد قدمت مكّة مع قبيلة قطوراء من اليمن ، و استقرتا فيها ، و بالطبع لم تكن هاتان القبيلتان لتخالفان المصدر النّموذجيّ لمنبع القبائل مثلها مثل غيرها في حواضر الجَزِيْرة العَرَبِيّة ، فانطلقتا من اليمن ، و استوطنتا في

---

[٣٣] البَيان و التَبْيين ، أبي عُثمان عَمْرو بن بَحر الجَاحِظ ، تحقيق : د. دَرويش جوَيْدي ، المكتبة العَصْريَّة ، صَيدا ـ بَيروت ، ط ١ ، ١٤٢٠ / ١٩٩٩ م ، ص ٥٦٠ .

مَكَةَ ، و كان من المنطقي بحكم الطبيعة البشرية أن يدخلا في صراع على خلفيّة السعي لحيازة المنافع الاقتصاديّة ، فانتقلت السيطرة على مكَّةَ إلى جرهم سنة ٢٠٧ م ، لكنّ جرهمَ لم تبقَ في دعةٍ إذ سَرْعانَ ما وفدت إليها هجرة أخرى من اليمن أيضاً ، فوصلت خزاعة إلى مكّة ـ ضمن الهجرة الكبيرة ، الَّتِي توجه الأوس و الخزرج فيها نحو يثرب ـ ، و استقرت في مَكَّةَ بعد قتالٍ معهم ، و لم تمضِ أيام كثيرة حَتّى تمكنت هذه المجموعة الَّتِي وصلت للتو من طرد جرهمَ من مكّةَ بالتحالف مع بني بكر بن عبد مناة ، فقررت جرهمُ العودة إلى اليمن، و لم تكن قد مكثت فيها أكثر من جيلٍ واحدٍ .[٣٤] ثم آلت الأمور بعد ذلك إلى خزاعة الَّتِي أبعدت حليفتها ـ بني بكر بن عبد مناة ـ . و كانت قُرَيْش جماعات غير متماسكة في بني كنانة حَتّى ذلك الوقت .

قُرَيْش

لكن قُرَيْشاً المهمشة سَرْعانَ ما استولت على السّيادة في مكّة حين برز بينهم قُصَيّ بن كلاب ، و الَّذِي قاد تحركاً قرشيّاً مظفراً فاستولى على السيادة في مكّة مستعيناً بأخ له لأمّه في قُضاعة يُسمى رِزاح بن ربيعة ؛ إذ جمع قُصَيّ قُرَيْشاً و بني كِنانة ، فاستطاع إخراج خزاعة و بني بكر من مكّة في القرن الخامس الميلادي (ح ٤٤٠ م) . و ليس واضحاً كيف حازت قُرَيْش القوة الكافيّة لتحقيق نصرها ، و ما هي المواقع الَّتِي كانت تحتلّها في مكّة عشيّة هذا الصدام ، و الَّتِي سمحت لها بإحداث هذا الانقلاب فيها . و لن ينسى القُرشيّون لقُصَيّ قيادته تحركهم للسيطرة على مكّة ، فقال رواتهم إنّ تسميّة قُرَيْش تعود إليه ، بعد أن كانوا يُسمون من قبل **بن النّضر** .[٣٥]

---

[٣٤] ابن هشام : ١ / ١١٢ ـ ١١٤ ؛ الأزرقي : ١ / ٩٢ ـ ٩٦ ؛ تاريخ الإسْلام : ١ / ٤١ .
[٣٥] ابن سعد : ١ / ٦٨ ، ٧١ ؛ ابن هشام : ١ / ١١٧ ـ ١١٨ ؛ تاريخ الإسْلام : ١ / ٤١ .

نهوض مكّة

كانت الصّراعات الداخليّة على سيادة مكّة تجري في نفس الوقت الَّذِي كانت فيه زمن قُصَيّ تتعرض لمتغيرات كبيرة بسبب عوامل تاريخيّة عديدة ، و أهمّها تحوّل مكّة إلى مركزٍ كبيرٍ لاستراحة القوافل التّجَارِيّة على طريق الخط التّجَارِيّ ما بين الشّام و اليمن ؛ بسبب من الحروب المستمرة بين فارس و الروم الَّتِي أدت لانهيار مجموعة طرق تجارية .[٣٦] يمكن أن نفترض أنّ هذه الصّراعات كانت آلامُ ولادةِ حاضرةٍ تجاريّةٍ ، و الَّتِي سمحت لقُرَيْش بالتحكّم تقريباً بنقطة العبور بين المحيط الهنديّ و البحر المتوسط . و خلافاً لتدمر الَّتِي اكتست بالحلة الإغريقية ، احتفظ القُرشيّون بالبساطة العربيّة الأصيلة في سلوكياتهم و مؤسّساتهم ، و حصلوا على معرفة واسعة بالرجال و المدن أثناء اتصالاتهم التّجَارِيّة و الدبلوماسيّة مع رجال القبائل العربيّة ، و المسئولين الرّومان ، فحفزت هذه الخبرات في رؤسائهم المواهب العقليّة و الحكمة و ضبط النفس ، وهي صفات نادرة في الجَزِيْرة العَرَبِيّة ،[٣٧] هي صفات سيتميزون بها هم ، و نظراؤهم الثقفيّون بشكلٍ كبيرٍ في العهد الأمويّ .

سمح تصيّر مكّة مركزاً تجارياً للقُرشيّين بالوصول إلى غزة و بيت المقدس ، ودمشق، و الحبشة عبر البحر الأحمر ، حيث كان ميناء جدّة واسطة التّجارة بينها و بين الحبشة .[٣٨] من أجل تسهيل مهمة قوافلها التّجَارِيّة ارتبطت قُرَيْش بالإيلاف و العهود مع شيوخ قبائل الجزيرة العربيّة : شيوخ قيس ، و الْيَمَامَة ، و تميم ، و أقيال اليمن ،[٣٩] ملوك غسّان و الحيرة . و تراوحت أساليبها من تقديم الهدايا إلى شيوخ القبائل ، إلى الاشتراك مقابل الإيلاف .[٤٠]

---

[٣٦] حروب دولة الرّسُول ، ٨ ، ١١ .
[٣٧] H. A. R. Gibb , op.cit. , p 17.
[٣٨] تاريخ الإسْلام : ١ / ٥٤ .
[٣٩] الأقْيال ، و قُيُوْل ، وأقْوال مفرد قَيْل : ملك من ملوك حمير دون الملك الأعظم و المرأة قيلة .
[٤٠] حروب دولة الرّسُول ، ١٠ .

بمبادرة من قُصَيّ الَّذِي أدرك ضرورة توفير الراحة للحجّاج ـ التّجار ، و تأمين الخدمات الأساسيّة من أجل تسهيل الحجّ و التّجارة ، و التخفيف من أعباء تنقلهم لمسافات بعيدة شرع القُرشيّون يقدمون للحجّاج طعاماً و شراباً أيام الحج ، فكانوا يدفعون لقُصَيّ خراجاً ، و يقوم قُصَيّ بتنظيم عملية إطعام الحجيج في المواسم بمكّة و منى ، و قد استمرت الرّفادَة سارية المفعولِ في العهد الإسْلاميّ ،[٤١] من المفترض أنّ المساهمين في دفع تكاليفها هم التّجار ، و الأشراف المنتفعون بشكلٍ مباشر من الحركة التّجَارِيّة . و بالتّزامن مع تعقّد الاقتصاد المكّيّ ، و تنامي الحاجة لتوفير منتجات للأهالي ، و لتوفير الخدمات الضَّرُوْرِيّة للقوافل التّجَارِيّة ، و الحجّاج نشأت فيها بعض الحرف البسيطة كالحِدادة و النِّجارَة .

علاوة على ذلك أسّس قُصَيّ دار النَّدْوَة الَّتِي كانت قُرَيْش تداول فيها قضاياها و شئونها ، و تصيغ فيه خطط معالجة المستجدات من أمورها ، و لم يكن مسموحاً بدخولها إلا لِمَنْ تجاوز الأربعين ، باستثناء أولاد قُصَيّ .[٤٢]

أَمْرُ الفِيْلِ

تساوق صيرورة مكّة مركزاً تجاريّاً تحولها مركزاً للأرباب و آلهة القبائل العربيّة ؛ فصارت مكّة مثابةً كبيرةً لآلهة قبائل الجَزِيْرة العَرَبِيّة الوثنيّة . و قد عززت الأحداث اللاّحقة أهميّة مكّة كمكانٍ مقدسٍ ، و بالأخصّ بعد فشل غزوة الفِيْل ، الَّتِي قدسنت مكّة في عيون سكان الجَزِيْرة العَرَبِيّة .

كانت بيزنطة تتوق إلى السيطرة على جنوب الجَزِيْرة العَرَبِيّة ؛ و لهذا طلب **جستنيان** إمبراطور الدّوْلَة الرومانيّة الشرقيّة من الأحباش احتلال اليمن ، من أجل اتخاذها طريقاً للتجارة ، و القضاء على تجارة منافسيه الفرس ، و كذلك لنشر الدين المَسِيْحِيّ .[٤٣] وبعد احتلالها قام الأحباش ببناء كنيسة بصنعاء تُسمى **القُلَّيْسَ** ، مستخدمين عمالاً يمنين في السّخْرة، و حدّد أبرهة ـ قائد جيش الاحتلال ـ هدفَ بنائها جعلها مَحَجَةً للقبائل العربيّة ، وإذا صدق هذا الجزء من

---

[٤١] الأزرقي : ١ / ١١٠ ، ١٩٥ ؛ قُرَيْشٌ : من القبيلة ، ٢١ ، ٢٣ .
[٤٢] الأزرقي : ١ / ١٠٩ .
[٤٣] تاريخ الإسْلام : ١ / ٢٩ ؛ بروكلمان ، ١٦ .

الرّواية فإنّ الهدف الَّذِي حدده أبرهة لنفسه كان مستحيل التطبيق في الجَزِيْرة العَرَبِيّة ، لأنه وُجدت فيها جيوب مَسِيْحِيّة و يَهُوْديّة ، و لم تتوسع رقعة هذين الدينيْن بسبب من عدم تلبيتهما لحاجات سكان المنطقة الروحيّة .

ثُمّ إنّ أبرهة قرر التوجّه لغزو مكّة كما تنقل إلينا الرِّوايَات ، و تختلف الرِّوايَات في تحديد زمن الحَمْلة ، فيقال بأنّها كانت قبل مولد مُحَمَّدٍ بأربعين سنة ، و قيل ثلاث و عشرين سنة ، و يميل أكثر الرّواة للقول بأنّها تمّت في عام مولد مُحَمَّدٍ ،[٤٤] و يبدو أنّ التاريخ الأخير جاء لمنح مولدَ مُحَمَّدٍ هالةً قدسيّة .

كان محرضُ الحَمْلة المباشر قيامَ رجلٌ من النَّسأة [٤٥] مضريّ النسب بالتغوّط فيها . ويحدد غيرهم فيقول إنّ من قام بالاعتداء على المكان المقدّس الَّذِي بناه الأحباش هو نُفَيْل الخثعميّ ، إذ جاء بِعَذِرَة فلطخ بها قبلتَه و جمع جيفاً فألقاها فيه .[٤٦] و هناك رواية أخرى تفيد بأنّ فتية من قُرَيْش كانوا في الحبشة للتّجارة ، و عند ساحل البحر و بالقرب من أحد أماكن العبادة المَسِيْحِيّة ، أوقدوا ناراً لإعداد الطعام ، و تركوها ، و ارتحلوا ، فهبت ريحٌ عاصفٌ على النّار فأضرمت مكان العبادة ناراً ، فاحترق ؛ بينما يقول ابن كثير في تفسيره بأنّ الكنيسة الَّتِي تعرضت للنّار هي كنيسة القُلَّيْس نفسها .[٤٧]

إذاً ، كان السبب المباشر لحَمْلته هو اعتداء غامض الأسباب على أحد الأماكن المقدسة المشمولة برعاية الأحباش ، و إنْ كان السبب الأصيل لهذه الحَمْلة اقتصاديّاً من أجل السيطرة على الموقع التّجَارِيّ الهام لمكّة .

قاد أبرهة جيشاً يرافقه فيل ، و قيل ثلاثة عشر فيلاً . و خرج معه مقاتلون من سكان المنطقة المُحتلة ،[٤٨] و عندما وصل قرب مكّة التقى مع عبد المطّلب بن هاشم ، و لم يثمر الاجتماع شيئاً ؛ فلما رجع عبد المطّلب إلى مكّة ، طلب من قُرَيْش مغادرة المدينة ، و التحرّز في رءوس الجبال خوفاً من حصول صدام مع القوات الغازية .[٤٩]

---

[٤٤] البغوي ، الفِيْل : ١ .
[٤٥] **النَّسأة** : الَّذِين كان منوطاً بهم مهمة النسيء ، و قد مر الكلام عنهم .
[٤٦] ابن سعد : ١ / ٩١ .
[٤٧] تفسير القرطبي ، ابن كثير ، و البغوي ، الفِيْل :١ .
[٤٨] سيرة ابن إسحاق ، محمد بن إسحاق بن يسار ، CD .
[٤٩] الكامل : ١ / ٤٤٢ ـ ٤٤٤ ؛ ابن هشام :١ / ٤٣ ، ٤٥ .

لماذا لم يدخل جيش أبرهة المدينة المقدسة ؟ ثَمّة احتمالان :

أولاهما ، فشل الحملة في الوصول إلى مقصدها أصلاً نتيجةً لبعد المسافة ، و عدم توفر إمدادات كافية للجنود ، و حسب الرّاوية ، كان يرافق جيش الأحباش فِيْل أو ثلاثة عشَر فِيْلاً ، و علينا أن نفترض أن الفِيْل / الفِيْلة الّتِي رافقت الجيش من نوع الفِيْل الإفريقي .[٥٠] والفِيْل الإفريقيّ هو الحيوان الأضخم على سطح الأرض ، و يصل وزنه إلى ثمانية أطنان ، و ارتفاعه ٣ ـ ٤ م (١٠ ـ ١٣ قدماً) ، و موطنه شبه الصحراء الإفريقيّة ، و يقضي الفِيْلُ أغلب وقته في الطعام ، و يستهلك يومياً ما يقارب ٢٢٥ كغ من الأعشاب والخضار . و الفِيْل الإفريقي لا يملك غُدَدَ تعرّقٍ ؛ و لهذا يتمرغ بالبِرَك و الأنْهُر ، و الوحل الَّذِي يجف عليه يقيه من الشّمْس ، و بالتالي إنّ اصطحاب فِيْل أو أكثر هو عبء كبير على الحَمْلة ؛ لأنه يتطلّب حمل مواد غذائيّة إضافيّة ، كما يحتاج الفِيْل لحوض مائيّ ـ تُرابيّ يقيه من شمس الجَزِيْرة العَرَبِيّة الحارقة . هذه العوامل مجتمعة تسبب نقصاً في المواد الغذائيّة نتيجةً لسوء تقدير القائمين على الحملة ، و مشاق الطريق الصّحراويّ ، علاوة على تفشي الأمراض فيها نتيجة لنقص الماء الصالح للشرب و التنظيف . و إذا أخذنا عوامل هذا الاحتمال ؛ فإنّ الحَمْلة لم تُكمل طريقها ، و لم يحدث اللّقاء بين أبرهة و بين عبد المطلب ، و إلاّ فلا يمكن أن يتراجع جيش أبرهةَ و هو قاب قوسين أو أدنى من تحقيق هدفه .

الاحتمال الآخر ، تشير إليه رواية عن أنّ عُمرَو بن نُفاثة بن عديّ [٥١] ـ زعيم كنانة ـ و خويلد بن وائلة ـ زعيم هُذَيل ـ ذهبا مع عبد المطلب و عرضوا على أبرهة ثُلْث أموال تهامة و يرجع عن مقصده ، بيد أنّ قائد الجيش الزاحف رفض العرض حسب الرّواية ؛[٥٢] لكنّ هل فعلاً رفض هذا العرض في حال حدوث هذا اللّقاء ؟ الراجح أنّه لم يرفض هذا العرض المغري ، و ربّما تمكن الثلاثة من الاتفاق على معاهدة محددة يضمن فيها أبرهة امتيازات معينة ، و تلقى كذلك

---

[٥٠] Loxodonta africana

[٥١] ابن هشام : يَعْمَر .

[٥٢] ابن هشام : ١ / ٥٠ ؛ تاريخ الطبري : ١ / ٤٤٢ ؛ تاريخ ابن خلدون ، م ٢ ، ج ١ / ٦٢ .

تعويضاً عمّا حدث للموقع المقدّس ، مع تعهدات بعدم التعرّض للأماكن المقدّسة المَسِيْحِيّة مرة أخرى .

بغضّ النظر عن نهاية هذه الحَمْلة ، و سبب فشلها ؛ فإنّ حدثها التّاريخيّ أو المُتخيل صار أُسْطُوْرَةً بغرض تعليل بعض جوانب المقدّس المكّيّ ، فأكملت العقليّة الرّوائيّة الحدث وفق آليّة إنتاج الأُسْطُوْرَة عندما قالت بأنّ الجيش قد تعرض لهزيمة نكراء على يد القدرة الإلهية ، بعدما أرسل اللّه الطير الأبابيل من البحر ، و كان كلُّ طيرٍ يحمل ثلاثة أحجار ، حجراً من منقاره و حجرين في رجليه .[٥٣]

ربّما من نافل القول اعتبار الحَمْلة من جملة الأساطير المَرويّة ، و الَّتِي صنعتها الذهنية القُرشيّة على أساس محاولة حقيقيّة من أبرهة للسيطرة على مكّة وفق أحد الاحتمالين ، أو إنّها أُسْطُوْرَة منسوجة ، انتشرت في ظروف الجَزِيْرة العَرَبِيّة المواتية لوجود تربة الفكر الأسطوري ، و حَتّى لو كانت الحملة قد حدثت بالفعل ، و آلت إلى أحد الاحتمالين : التراجع لسبب ما ، أو المفاوضات ؛ فإنّ الواقعة المُفترضة الَّتِي تحولت إلى أُسْطُوْرَةٍ اكتسبت أهميتها في سياق التّاريخ الخاص لمكّة ، و سنأخذ تعريفاً للأُسْطُوْرَة يقول : « تروي الأُسْطُوْرَة تاريخاً مقدّساً ، و تخبر عن حدثٍ وقع في الزّمَن الأوّل ، زمن « البدايات » العجيب . تذكر كيف خرج واقعٌ ما إلى حيزِ الوجودِ ، بفضل أعمال باهرة قامت بها كائنات خارقة عظيمة ، سواء كان ذلك الواقع كلّيّاً مثل : الكون ، أو جانباً منه ، كأن يكون جزيرة أقام فيها النّاس ، أو نوعاً من النبات ، أو سلوكاً إنسانيّاً ، أو مؤسّسة اجتماعيّة » .[٥٤]

إذاً ، للأُسْطُوْرَةِ وظيفة تفسيريّة ، و تقول الرِّوايَات إن هيبة قُرَيْش صارت تعلو عندما فسّر العرب هذه الأُسْطُوْرَة بأنّ اللّهَ قد قاتل بالنيابة عن أهله .[٥٥] و لعلّ أكثر دقةً أن نرى في هذه الأُسْطُوْرَة تفسيراً لقدسيّة مكّة ، لا أنها منحتها القداسة . و من هنا فحسب تكتسب حادثة الفِيْل هذه الأهميّة في التاريخ العربيّ القبل ـ إِسْلاميّ ، و الإِسْلاميّ المبكر ، لأنّها فسّرت للعرب لماذا صارت قُرَيْشٌ تتمتع

---

[٥٣] الكامل : ١ / ٤٤٥ .
[٥٤] ملامح من الأُسْطُوْرَةِ ، ص ١١ .
[٥٥] الكامل : ١ / ٤٤٧ .

بالقداسة الدّينيّة ، و فيما بعد أصبحت الأُسْطُوْرَةُ فاعلاً سماويّاً في تدعيم قُرَيْش ، و لهذا فالحادثة ـ الأُسْطُوْرَة تحمل قيمةً تاريخيّةً كبيرةً ، و حَتّى لو كانت رواية دون واقعٍ تَاريخيٍّ فعليٍّ . إن هذه الاعتبارات تجعلنا نرى في حَمْلة الفِيْل إحدى دعائم قوة قُرَيْش المعنويّةُ في الجَزِيْرة العَرَبيّة ؛ و بالتّالي السؤال ((أجرت فعلياً أم لا)) ، أو ((كيف أُنتجت الأُسْطُوْرَة في حال أن الحَمْلة لم تجر)) لا يهم هنا ، بقدر ما يهم كيف وُظفت في سياق التاريخ المكّيّ ، ولاحقاً الإِسْلاميّ . كما علينا أنْ نأخذ بعين الاعتبار أمريْن : أولهما ، إنّ نموذج الفِيْل قد يكون سابقاً على قُرَيْش ، و كل ما فعلته الذّهنيّة العربيّة أو القُرشيّة تحديداً هي أنّها أعادت إنتاج نموذجٍ سابقٍ ، فنحن نجد أنّ الأساطير يُعاد إنتاجها من عصرٍ إلى آخر ، و من مجتمع إلى آخر ، لا بَل إنّ الأُسْطُوْرَة تُعالج بأشكالٍ مختلفة ضمن إطارٍ إقليميٍّ واحدٍ ، و لنفس العَصْر ، و إنّ كنّا لا نملك المادة الّتِي تسمح لنا باعتبار أُسْطُوْرَةَ الفِيْلِ إعادةَ إنتاجٍ لما سبق بسببٍ من احتمال أن تكون الرّواية الإِسْلاميّة أخفت هذه النماذج ؛ ثانيهما ، إنّ الحَبْكَ الأسْطُوْريَّ الّذي بحوزتنا الآن ، و كما يعكسه القرآن قد يكون إِسْلاميّاً أكثر من كونه نصاً أصليّاً (قُرشيّاً وثنياً) ؛ أو على الأقلّ عُدل في العهد الإِسْلاميّ في سياق صراع حاد مع القوى الرافضة لوجود قُرَيْش في موقع القيادة في مختلف العهود الإِسْلاميّة .

احتواؤها على المقدس

حسب الأساطير العربيّة ـ الإِسْلاميّة فإن طابعَ مكّة المقدس يعود إلى فترة قديمة تعزوها التواريخ الإِسْلاميّة إلى زمن إبراهيمَ ، الجدّ المشترك للأديان السماوية الثلاثة ، على أنّه من الواضح أنّ قدسيّة مكّة تساوقت مع نهوضها التّجَاريّ ، و تحولها ملتقى تجارياً ، ولهذا لم يتأخر قُصَيّ بعد نجاح تحركه للسيطرة على مكّة في استثمار هذه القدسيّة لتقوية المكّيّين ، إذ تخبرنا الرِّوايَات بأنّه لم يكن ثَمّة في مكّة في الحرم بيوت ، حيث كانت مكّة موقعاً محرماً (تابو) ، فكان سكانها يخرجون منها مساءً ، و يحرّمون على أنفسهم ممارسة الجنس فيها ؛ و حسب رأي قُصَيّ قرر القُرشيّون السَّكَن في الحرم حول الكعبة للاستفادة من

حصانة المكان المقدّس . و قد علّل السبب الكامن وراء فكرته بالقول : « لا تستحل العرب قتالكم ، و لا يستطيعون إخراجكم فتسودوا العرب أبداً » .[٥٦]

تعكس هذه الملاحظة إدراك قُصَيٍّ لتاريخ مكّة الحافل بالصّراعات بين ساكني البلد ، و الَّذِي كان يفضي إلى جلاء المهزوم على يد المنتصر ، و كان قُصَيّ يتوجس من خطر الصّراعات الجانبيّة ، و إمكانيّة أن تفضي إلى جلاء المهزوم كما حدث سابقاً ، و هو نفسه أسس سلطة قُرَيْش عبر السّلاح ، و إذا كان بإمكان السّلاح أن يجلب النّصرَ في الحربِ ، إلاّ أنّه لا يؤمّن ديمومة السيطرة ، فكان عليه أن يتحصّن بالمقدّس من أجل تفادي مصير ساكنيّ مكّة القدماء ؛ و هل ثَمّ حصن أمتن من المقدّس لحماية المناطق ذات الخيرات مثل مكّة . و قد شكّلت قدسيةُ مكّةَ معضلةً كبيرةً لِمُحَمَّدٍ ، إذ طرح على نفسه التساؤل التالي : « كيف له أن يخترق الحصن المقدس لها » ؛ فاتخذ في بداية المرحلة اليثربية قراراً خطيراً يقضي بتجاوز الحاجز المقدّس ، و ذلك عندما خرق عبد اللّه بن جحش الشهر الحرام ، و استولى على تجارةٍ لمكّة ، و أخذ أسرى ، فأيّد القرآن مسلك عدم احترام الزّمان المقدس (الأشهر الحرام) .[٥٧] وعلى الرغم من أنّ تصرّف ابن جحش أثار تساؤلات من اليثاربة ، و استنكاراً حاداً من قُرَيْشٍ ، إلاّ أنّ مُحَمَّداً مضى بقراره ، و لم تعد مكّة تحظى من الحركة الإِسْلاميّة بأي تقديس ما دامتْ خارجة عن نطاق الإِسْلام ، و قد نجحت هذه الاستراتيجيّة في نزع القدسيّة عن مكّةَ، فكانت إزالة القدسيّة عن قُرَيْش الشرط الضَّرُوْرِيّ لتهيئة الإمكانيّة للمسلمين من أجل تقويض أعمدة القوة القُرشيّة المعنويّة (قدسيّة المكان ، و الّزمان ، و النّاس) . فيما بعد عندما يستولي مُحَمَّدٌ على مكّة فإنّه سيعيد من جديد قدسنة مدينتَه باسم المقدس الإِسْلاميّ ، و يعلن أنّ الاستيلاء عليها هو الخرق الأخير لحرمتها .

كما حدث تطورٌ لافتٌ في سلوك قُرَيْش الطقوسيّ ، لا يُعرف بالضبط متى بدأ أقبل الفِيْل أم بعده ، و يجب أن تكون هذه السيرورة قد استغرقت وقتاً طويلاً ، و ليست وليدةَ تاريخٍ محددٍ . و يعزو المؤرخون الإِسْلاميّون هذا التطور إلى قرارٍ مخططٍ ، أجمعت عليه نخب قُرَيْشٍ لأنّهم اعتبروا أنفسهم أعلى منزلة من بقية

---

[٥٦] قُرَيْشٌ : من القبيلة ، ٢١ ، ٢٤ .
[٥٧] البقرة / ٢١٧ .

القبائل العربيّة بسبب رجوع نسبهم إلى إبراهيم ، و سكناهم أرضاً مقدسةً ، و لأنّهم القيّمون على الكعبة ؛ و لهذا فقد قرروا ترك الوقوف بعَرَفة و الإفاضة منها ، و هم يعرفون و يقرّون أنّها من الطقوس الأساسيّة في الحجّ ، و لا يتم الحجّ إلاّ بها ، كما لم تعد قُرَيْش تخرج من الحرم ، بل كانت تقف في طرف الحرم عند أدنى الحل ، و أطلقوا على أنفسهم لقب **الحُمْس** ، أي الَّذِين يتشددون في ممارساتهم الدينيّة ، و سلكت كنانة و خُزاعة و عامر مسلكهم في الحُمْس لوجود علاقات نسب فيما بينهم .

إضافةً إلى ذلك التزمت قُرَيْش جملة قواعد طقوسيّة أثناء مواسم الحجّ :

١ ـ تحريم طبخ الأقِط على الحُمْسِ ، و الأقِط جمع أقطان ؛ و هو الجبن المصنوع من اللبن الحامض .
٢ ـ منع سّلاء السّمْن عليهم و هم حُرم ، وسلاء السّمْن ، الطبخ به . و الاسم السّلاءِ؛ أي السّمْن الخالص .
٣ ـ عدم دخولهم بيوت الشعر .
٤ ـ عدم الاستظلال إلاّ في بيوت الأدم [٥٨] في أثناء فترة الإحرام ، و يضيف الأزرقي بأنّهم كانوا أثناء الإحرام لا يدخلون بيتاً من البيوت ، بل ينقب أحدهم نقباً في ظهر بيته ، فمنه يدخل إلى حجرته و منه يخرج و لا يدخل من بابه ، أو كانوا يتسوّرون من ظهر بيوتهم ، و كان يحرّمون المرور تحت عتبة الباب .

أما فيما يتعلق بالقادمين من خارج المكان المقدّس :

١ ـ كان محرّماً عليهم أكل شيءٍ من الطّعام الَّذِي جاءوا به في الحرم إذا جاءوا حُجّاجاً أو عُمّاراً .
٢ ـ عدم الطواف حول الكعبة إلاّ في ثياب الحُمْس ، حيث كان الحُمْس يعطوهم ثياباً، فيعطي الرجالُ الرجالَ ، و النساءُ النّساءَ . أما من لم يكن له من الوافدين صديقٌ بمكّة يعيره ثوباً و لا يستطيع استئجاره فكان بين أحد خياريْن :

---

[٥٨] بيوت **الأدم** : الأخبية الَّتِي تصنع من الجلد . و **الأخبية** : ج الخِباء : خيمة من صوف تكون على عمودين أو ثلاثة .

أ ـ أن يطوف الحاجّ في ثيابه في هذه الحالة ، و من ثم يلقيها إذا فرغ من الطواف ، حيث تطرح حول الكعبة ، و لا يجوز له و لا لغيره مسّ هذه الثياب أو تحريكها بعد ذلك . وكانوا يسمّون الثياب الملقية **اللّقى** .

ب ـ أو أنْ يطوف بالكعبة عرياناً ؛ أمّا الرجال فيطوّفون عُراة ، أمّا النّساء فتضَع إحداهنّ ثيابها كلّها إلا دِرْعاً مُفَرّجاً عليها ،[٥٩] و قد وصفت امرأة من العرب هذا المسلك فقالت:

اَلْيومَ يَبْدُو بَعْضُه أو كَلّهُ و ما بدا منهُ فَلا أحِلّه

تختلف الرِّوايَات فيما يتعلق بالطواف عُرْياً ، فثَمّة روايات تفيد بأنّ النّاس كانوا يطوفون عراةً ، إلاّ أنّ المرأة تجعل على فَرْجها خِرْقَةً ، و رواية أخرى تقول بأنّ الرجال كانوا يطوفون عُراةً بالنّهار ، و النّساء باللّيل ؛ و في تحديدٍ آخر أنّ المرأة كانت تطوف بالكعبة ، و قد أخرجت صدرها . بينا قصر البعض هذا الشرط على حج الصَّرُورة (أول حِجّة) من غير الحُمْس رجلاً كان أم امرأةً .

و تقول إحدى روايات الطبري عن بشر بن معاذ ، إنّه كان يوجد حيٌّ من اليمن ، إذا قدم حاجاً ، أو معتمراً يطوف عارِياً ، لأنّه كان يعتقد بحرمة الطواف في ثوب دنس فيه ، فكان يطوف عرياناً إذا لم يجد من يعيره مِئزَراً ، و تقول هذه الرّواية إنّ الأعراب كانوا يلتزمون هذا المسلك . و يحدد الأزرقيّ عن ابن عباس بأنّ بني عامر كان يتبعون هذا الطقس. على أنّ كل الرِّوايَات تتفق على أنّ من كان يطوف عُرْياً هم من غير الحُمْس ـ قُرَيْش ، و أحلافهم ـ .[٦٠] و هذا ما يجعلنا

---

[٥٩] **الدِّرْع** : قميص تلبسه المرأة في بيتها ؛ المفرج : المشقوق من قدام أو خلف ، و هو مذكر ، أمّا **دِرْع الحديد** (الأداة الحربية) فهو مؤنث . تفصح هذه المفردة (الدرع) عن علاقة كينونة ـ حسب مصطلح إريش فروم ـ مع المرأة ، فالقميص المنزلي المذكر يعبر عن التقاء المؤنث و المذكر ، عن الامتزاج ، لا عن نزعة تملك للأنثى ؛ و هذا يتطابق مع تفسير الآية القرآنية : ﴿ هنّ لبَاسٌ لكمْ ، و أنتم لباسٌ لهُنَّ ﴾ . في حين يبين تأنيث الدرع الحديدي الحاجة للمرأة بوصفها حاميةً ، و أماً .

[٦٠] الأزرقي : ١ / ١٧٤ ـ ١٧٥ ، ١٧٧ ـ ١٧٨ ، ١٨١ ـ ١٨٢ ؛ الكامل : ١ / ٤٥٢ ؛ تفسير كثير ، و القرطبي ، و تفسير الطبري : البقرة ، ١٩٩ ؛ القرطبي ، تفسير الطبري ، و البغوي : الأعراف ٣١ ؛ ابن إسحاق ؛ ابن هشام : ١ / ١٩٩ ـ ٢٠٣

نتساءل هل المكّيّون هم من فرض طقس التّعرّي ، أم إنّهم رفضوا الالتزام به ، و انسحبوا منه إعلاءً لشأنهم ؟

من جهة أخرى دفعت قدسية الموقع الحجاجَ بعد انصرافهم من مكّة إلى أن يأخذوا حجراً من حجارة الحرم ، فينحتونه على صورة الكعبة ، ثم يتمثلون الحجرَ المنحوت قبلةً ويطوفون و يصلّون له تشبيهاً بأصنام الكعبة . و قد سمحت خصوصيّة مكّة كموقعٍ مقدسٍ لقُرَيْش ، و لبقية الحُمْس بأنّ يشرطوا على مَنْ يرغب بالزّواج منهم بأنْ يصبح متحمساً و أنْ يلتزم بطقوسهم .[٦١]

يمكن أن نلاحظ أن الأسباب الكامنة وراء هذه القوانين أو السّلوكيات الطقوسيّة هي :

١ ـ قد يكون عدم تناول الطّعام الَّذِي جاء به الحجاج معهم ، و نزع الثياب نوعاً من الحماية الصحيّة خوفاً من انتقال الأمراض عبر الأطعمة و الألبسة .

٢ ـ استراتيجية اقتصاديّة تجبر الحجاجَ على التزود بالطّعام من مكّة مما يصبّ في مصلحة المكّيّين .

٣ ـ إنّ نزع الثياب يشير إلى رغبة التخلص من الماضي ، و هي تعطي دلالة الولادة من جديد ، و عودة إلى لحظة الولادة .

مهما يكن من أمرٍ فإنّ هذه الطقوس مارست تأثيراً نفسيّاً على الحجاجِ ـ التّجار الوافدين .

يبقى أن نشير هنا إلى أنّنا لم نحاولْ في ملاحظاتنا تقديم تفسيرٍ لمنشإ هذه الطقوس أو إجراء مقارنة مع طقوس مشابهة لمجتمعات أخرى ، كما لم نسعَ فيها إلى تفسير آلية التّقديس حسب أيَّ منهجٍ مختص (إناسي ، تحليلي نفسيّ) ؛ لأنّه موضوع مستقل بذاته ، و يحتاج إلى بحثٍ معمّق خارج هذا الكتاب و على يد غيرنا ، و اكتفينا بعرض مظاهر القدسيّ في مكّة بهدف تبيان القوة الدينيّة الاستقطابيّة الَّتِي كانت تتمتع بها المدينة ، و القوة الاستقطابية لها كموقع مقدس منحتها هذه الاستثنائيّة الخاصة كأقدس مكان في الجَزِيْرة العَرَبِيّة .

على أي حال نسخ مُحَمَّدٌ كلَّ تلك الطقوس ، و صارت قُرَيْش تلتزم بجميع طقوس الحجّ أسوة ببقية العرب ، فأفاضت من عرفات ، و طاف الحجّاج بالثياب

---

[٦١] بلوغ الأرب : ١ / ٢٤٣ ، ٢٤٥ .

الَّتِي معهم من الحلّ ، و أكلوا من الطّعام الَّذِي جاءوا به في الحرم أيام الحجّ ؛ بعدما جاء القرآن يطالب بالمساواة الطقوسيّة في الحجّ بقوله : ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حيثُ أَفَاضَ النّاس ﴾ ،[٦٢] و كذلك : ﴿ يا بني آدمَ خّذوا زِينتكُمْ عندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَ كُلُوا و اشْرَبُوا و لا تُسْرِفُوا إنّه لا يُحبُّ المُسْرِفِينَ ، قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ﴾ .[٦٣]

المستوى السيا ـ ثقافي في مكّة

كانت الحالة الاجتماعيّة المتطورة لمكّة تتطلب وجود هيئة تنفيذيّة ـ تشريعيّة ، و إن دون مستوى هيئة دولتيّة ، من أجل ضبط العلاقة التناحريّة بين تكويناتها الاجتماعيّة ، و الَّتِي كانت السّمَة المميزة لها و لغيرها في ذاك العهد ، إذ كان الثَّأْر ـ ككل مكان في الجَزِيْرة العَرَبِيّة ـ يشكّل رادعاً بوجه المعتدي ، لكن الحياة الاجتصاديّة صارت أكثر تعقيداً في مكّة بوصفها مدينة ، فلم تعد تستطيع المضي قدماً في تطورها على أساس هذه العلاقة القبليّة ـ النّزاعية . فمكّة ، المدينة الراسخة اقتصاديّاً و المحطّة الهامة على طريق التّجارة العالميّة آنذاك كانت تحتاج إلى مَنْ يُنظم العلاقة الداخليّة ، و يحمي القوافل ، و التّجارة العابرة من اعتداءات فروعها القبليّة ، و منع الظلم الَّذِي قد يلحق بالتّجار من قِبَل المكّيّين أنفسهم في أثناء عقد الصفقات التّجَارِيّة ، لا سيّما أنّه ظهرت خلافات ، و شكاوٍ من التّجار العابرين لها حول مسلك بعض التجار المكّيّين .

كان الوَضْع الداخليّ اجتماعيّاً و اقتصاديّاً لا يسمح بنشوء الدّوْلَة بسبب من عدم تبلور الفئات الاجتماعية الموجودة في مكة طبقيّاً ، بيد أنّه من جهة أخرى كان لا بدّ من نشوء هذه الهيئة الحامية لحقوق التّجار مكّيّين كانوا أم غير مكّيّين ، و من أجل المحافظة على الاستقرار الداخليّ للمدينة بضبط العلاقة بين قبائل مكّة على غير أساس الثَّأْر ، و الأشراف على العمليات التّجَارِيّة ، و رعاية الحُجاجِ من أجل تأمين ديمومة الاقتصاد المكّيّ التّجَارِيّ ؛ و لهذا فقد توصلت

---

[٦٢] البقرة / ١٩٩ .
[٦٣] الأعراف / ٣١ ، ٣٢ .

النخب المكّيّة إلى حلٍ يجيب على سؤال الضَّرُوْرَة ـ تكوين تلك الهيئة ـ ، و الَّتِي تأسّست على أساس يشابه فكرة العقد الاجتماعيّ من بعض الوجوه ، و سَرْعانَ ما تشكّلت هذه الهيئة ، الَّتِي سُميت **حلف الفضول** ، و قد استمد الحلف قوته ، و نفوذه من وَعْي ضرورته ، واعتراف النخب به ؛ و كان قيامه نتيجةً لمبادرة من الزبير بن عبد المطلب ، الَّذِي أذهلته **حرب الفِجار** بين قيس عَيْلان و بني كنانة ، و قد سُميت فِجاراً لأنّ المتحاربين خرقوا فيها حرمة الأشهر المقدّسة (الحُرم) ، و الَّتِي يُقال إنّ مُحَمَّداً ذا الأربعة عشر ربيعاً شارك فيها حيث كان يجمع لأعمامه السِّهامَ . و قد دفعت هذه الحرب المكيين للتفكير بحلٍ يحميهم من تكرارها ؛ ثم تحققت الفكرة عندما أشتكى تاجرُ يمني من وقوعُ مَظْلَمة عليه ، و استنجد بالقُرشيّين لردّ حقه ، لاسيّما أن شكواه كانت في سياق شكاوى متواترة تتعلق ببني سهم و بني جمح ، اللذيْن عُرف عنهما البغي و العدوان ، و قد تفاقم طغيانهما مما دفع المتحالفين للوقوف بوجههما .

نص ميثاق الحلف على أنّه يتوجب على المتحالفين حماية كل من يتعرض لظلم بمكّة من أهلها أو من جاءها من غير القُرشيّين ، حَتّى يردوا إليه حقه ، و التآسي في المعاش ؛[٦٤] وقد اشترك في الحلف :

١ ـ بنو هاشم ، ٢ ـ بنو المطّلب ، ٣ ـ أسَد بن عبد العُزَّى ، ٤ ـ زُهْرة بن كِلاب ، ٥ ـ تَيْم بن مُرّة .[٦٥]

إن وجه التشابه بين هذه الهيئة ـ حلف الفضول ـ و العقد الاجتماعيّ هو أنّ العقد الاجتماعيّ يعالج المُعضِلة الأساسية التّالية ، هي إيجادُ شكلٍ لشركةٍ تُجِيرُ ، و تَحْمي ، بجميع القوة المشتركة شخصَ كلِّ مشتركٍ و أموالَه ، و إطاعةُ كلِّ واحدٍ نَفسه فقط و بقاؤه حُرّاً كما في الماضي مع اتحاده بالمجموع ،[٦٦] و هذا ما كان هدف حلف الفضول ، و الَّذِي منح مكّة استقراراً سِياسِيّاً و اجتماعيّاً ، مما شكّل العقبة الكأداء أمام مُحَمَّدٍ ؛ إذ إنّ الإِسْلام ـ كدينٍ توحيديٍ ـ كان يلبي حاجات

---

[٦٤] إضافة ابن سعد .

[٦٥] ابن هشام : ١ / ١٣٣ ـ ١٣٤ ؛ الكامل : ٢ / ٤١ ؛ ابن سعد : ١ / ١٢٨ ـ ١٢٩ ؛ عيون الأثر : ١ / ٥٩ ـ ٦٠ ؛ مُروُج الذّهَبِ : ٢ / ٢٧٣ ـ ٢٧٤ ؛ شرح نهج : ٣ / ٤٦٣ ، ٤٧١ ـ ٤٧٣ .

[٦٦] العَقْدُ الاجتماعيّ أو مَبادئُ الحُقوق السياسِيَّة ، جان جَاك رُوسُّو ، ت عادل زُعَيْتِر ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٥٤ ، ص ٤٣ ـ ٤٤ .

مجتمعات مدنيّة ، و لم توجد في الحِجاز غير ثلاث مدن (مكّة ، و الطائف ، و يثرب) ؛ وبالرّغم من أن مكّة هيئت التربة الفكريّة و الاجتماعيّة لنشوء الدَّعْوة الإِسْلاميّة ، و لبروز شخصيّة نَبَوِيّة من طراز مُحَمَّدٍ ، إلاّ أنّها لم تكن تحتاجه آنذاك لا كقائدٍ سِياسِيٍّ يضبط العلاقة الداخليّة ، و لا كمُنظّم للعلاقة الخارجيّة ـ التّجَاريّة ، أما الطائف فقد رفضت دعوته عندما حاول التبشير فيها في السنة العاشرة للدعوة ، وقد فشل حَتّى في إقناع رجل واحد منهم أو امرأة ،[٦٧] و على الأقلّ يعود فشله إلى كونه ابن مدينة منافسة ، كما أنّ الدعوة الَّتِي كان يبشر بها مُحَمَّدٌ كانت عاجزة عن امتلاك أفئدة البدو ، الَّذِين لم يكونوا بحاجة قطّ لهذا القائد التوحيديّ ، فأساس كيانها السيا ـ اقتصاديّ قائم على التفكك القبليّ . أما يثرب فقد لعبت الصدفة التاريخيّة دورها في وصولها إليه ، و الَّتِي لم يكن يتوقعها .

نشأت على أرضيّة التطور السيا ـ اقتصاديّ النّسبيّ (الموقع التّجَارِيّ ، و القطبيّة الدينيّة ، و الكفايات الشخصيّة) في مكّة حالة ثقافيّة ، فظهر ذلك بإجادة المكّيّين للكتابة ، كما يوضح ذلك بجلاء أنّ مُحَمَّداً لمّا وجد بعض أسرى بدر القرشيين لا يستطيعون دفع الفِدْيَة الماليّة ، قررّ أنْ يكون فِداءَهم تعليم فتيان المدينة ، فكان على كلِّ أسيرٍ لا يستطيع دفع الفِدْية واجب تعليم عشَرة فتيان ، و كان زيد بن ثابت ممّن تعلم ،[٦٨] و هذا يدلّ على أن المستوى الثّقافيّ في مكّة كان أرقى منه في المدينة ، و هذا كان بدوره يزيد من إعلاء هيبة قُرَيْشٍ في الجَزِيْرة العَرَبِيّة ، و يضيف كذلك عامل شك كبير حول ((أُمِّيّة مُحَمَّدٍ)) المزعومة .

إنّ هذه العوامل : الموقع التّجَارِيّ ، و النفوذ السِياسِيّ ـ المالي ، و الهيبة الدينيّة ، والمهارات و الكفايات الَّتِي كانت تتمتع بها قُرَيْش جعل من السهل على قُرشيّ ترشيح نفسه لموقع الخِلافَة ، و الدفاع عن حق تعيين قُرشيٍّ في هذا المنصب ، و ليكون مقبولاً من العرب أكثر من الآخرين . و هذا هو العامل الثّاني في إقرار المجتمعين لأَبِي بَكْر بمنصب الخلافة ، و هو يظهر أنّ من أسباب قوة مُحَمَّدٍ المعنويّة استناده إلى قُرشيّته ، و ليست قوة قُرَيْش نابعة من نُبُوّة مُحَمَّدٍ .

---

[٦٧] ابن سعد : ١ / ٢١١ ـ ٢١٢ .
[٦٨] ابن سعد : ٢ / ٢٢ .

٣ ـ السّيْرَة الشّخْصِيّة لأَبِي بَكْر

أَبُو بَكْر

إذا كان النسب القُرشيّ شرطاً ضروريّاً لنجاح المرشّح ، إلاّ أنّه غير كافٍ ، و يحتاج إلى شرط مُكمّل ، و هو أن يكون متمتعاً بمؤهلات و كفايات شخصيّة ؛ من أجل أن يجمع بيديه عناصر القوة القرشيّة من جهة ، و لاستثمار شقاق معسكر الأنصار من جهة ثانية ، إضافةً لحضور معنويّ كبير عند المهاجرين و اليثاربة على السواء ، و فقط ذاك الَّذِي يملك هذه الأفضليات ، فإنه يستطيع فرض نفسِه على المجتمع اليثربي و على ممثليهم في اجتماع السَّقِيْفَة ، و على نخب المهاجرين الَّتِي حضرت هذا الاجتماع ؛ و قد كان أَبُو بَكْر الشّخصيّة المُثلى الَّتِي كانت تتوفر فيها هذه الشروط ، و شخصيّته بالذات هي العامل الثّالث ، فمن هو أَبُو بَكْر ؟

وُلد أَبُو بَكْر بعد مولد مُحَمَّدٍ بسنتين و أشهر (٥٧٥ م) ، و اسمه عبد اللَّه بن أبي عثمان بن عامر ، و هو تَّيْميّ ، و كان يُلّقب عتيقاً ، و ثَمّة قولان عن لقبه هذا : الأول ، ويقول لعِتقه من النّار ؛ و الثاني ، لِعَتَاقة وجهه ـ أي حُسْنه و جماله ، و كنية أبيه أبو قُحافة.[٦٩] أما كنيته ـ أَبُو بَكْر ـ الَّتِي لزمته طوال حياته فلم تقدّم الرِّوايَات تعليلاً لها ، و إنْ ذكر بعض المتأخرين استنباطاً أنه كُنِيَ بها لأنه بكر بالإِسْلام قبل غيره .[٧٠]

كانت أسرة تيم بن مرة تتمتع بنفوذٍ واسعٍ ، فإليهم ينتسب عبد اللَّه بن جُدْعان أحد زعماء قُرَيْش في الجاهليّة ، و صاحب دار النَّدْوَة ،[٧١] حَيث عُقد حلف الفضول .

بسبب عدم وجود هيئات دولتيّة ، كانت قُرَيْش تنظّم شئونها العامّة وفق مبدإ تقاسم المهام الأساسيّة للمدينة بين أشراف القبائل ، فتولّى أَبُو بَكْر مسألة

---

[٦٩] تاريخ الخلفاء ، ٤٣ ؛ تاريخ الطبري : ٢ / ٣٥٠ .
[٧٠] الصّدّيق أَبُو بَكْر ، محمد حسين هيكل ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ١١ ، ١٩٩٠ م ، ص ٢٨ .
[٧١] تاريخ ابن خلدون ، م ٢ ، ج ١ / ٣٢٦ .

الدّيات[٧٢] ؛ و قد أُنيطت به هذه المهمة كونه ضليعاً بالأنساب الَّتِي تساعده على تحديد قيمة الدّيات الواجب دفعها ، حسب مكانة المُجنى عليه و ما إذا كان محضاً أو لصيقاً أو زنيماً .[٧٣] وقد خدمت خبرته بالأنساب لاحقاً مُحَمَّداً عندما بحث الأخير عمّن ينهض للتصدي للذين يهجونه من قُرَيْشٍ ، فتطوع حسان بن ثابت لتنفيذ المهمة ، فسأله مُحَمَّدٌ كيف له أن يهجوهم ، و تحديداً كيف يمكن له أن يهجوا أبا سفيان بن الحارث و هو ابن عمه ، فأجاب حسان : ((لأسُلَّنَّك منهم كما تسل الشّعَرة من العجين)) ؛ عندها طلب مُحَمَّدٌ منه الرجوع إلى أَبِي بَكْر من أجل أنْ يعرّفه على أنساب القوم لكي لا يتورط حسانُ بهجاء من يمتّ بصلةٍ إلى مُحَمَّدٍ ، و ليطّلع على خصلات الشر عند القُرشيّين ، و بالفعل شرع حسان يهجو قُرَيْشاً مستعيناً بإرشادات أَبِي بَكْر ، فلمّا وصل قُرَيْشاً الهجاءُ ، قالوا : ((هذا شِعْرٌ ما غاب عنه ابن أبي قحافة)) .[٧٤]

زاول أَبُو بَكْر التّجارة ، و الَّتِي أكسبته سعة الصدر ، و بعد النظر ، مما جعله صاحب نفوذٍ في قومه ، فكانوا يتردّدون على زيارته ؛ فتعمّقت فراسته بالرّجال . و قد ربطت بين أَبِي بَكْر ، و مُحَمَّدٍ الشاب علاقةٌ وطيدةٌ قبل إعلان الدَّعْوة الإسْلاميّة ، فكان أَبُو بَكْر يكثر من التردّد إلى منزل مُحَمَّدٍ ،[٧٥] و تعكس عائشة بنت أَبِي بَكْر الآية فتقول إنّ مُحَمَّداً هو مِنْ كان يتردّد على أبيها في بُكرة و عشيّة ، و يبدو أنّ وتيرة زيارات مُحَمَّدٍ أَبَا بَكْر زادت بشكلٍ ملحوظ قبيل البدء بالدعوة .[٧٦] و ثَمّة روايات تفيد بأنّ أَبَا بَكْر لعب دور الوسيط بين مُحَمَّدٍ الشاب و بين خديجةَ حَتّى زوجه إياها . و سيزوجه فيما بعد عائشة ـ ابنته ـ الَّتِي ستكون زوجة مُحَمَّدٍ الأثيرة .

تتواتر الرِّوايَات عن أن أَبَا بَكْر أوّل من أسلم ، بل حَتّى يُقال إنّ أَبَا بَكْر آمن بنبوّة مُحَمَّدٍ زمن بَحيرا الرّاهب ، حيث يستند هذا التفصيل إلى رواية بينة

---

[٧٢] ما يُسمى **الأَشْنَاق** ، مفرد الشّنق : الدية ، و المغارم .
[٧٣] تاريخ الخلفاء ، ٤٨ ؛ أُسد الغابة : ٣ / ٢٠٥ ؛ قُرَيْشٌ : من القبيلة ، ٧١ ، ١٦٦ .
[٧٤] أُسد الغابة : ١ / ٥٤٩ ؛ د حسان : ١ / ٣٩٨ .
[٧٥] تاريخ الخلفاء ، ٥٢ ؛ رضا ، ٩ .
[٧٦] ابن سعد : ٣ / ١٧٢ ، ٨ / ٧٨ .

الضعف ، و تقول هذه الرواية إنه كان مع أبي طالب عندما سافر إلى الشّام ؛[٧٧] و صنعة الرواية جليةٌ ، فهي تجافي المعقوليّة و المنطق بسبب من صغر سن أَبِي بَكْر و هو أصغر سناً من مُحَمَّدٍ ، و يبدو أنّ هذه الرواية تشير إلى حوادث تالية ، فربما كان أَبُو بَكْر رفيق مُحَمَّدٍ في رحلات لاحقة إلى الشّام . و لهذا عندما ارتفعت بعض الأصوات المحتجّة على مبايعته خليفةً ، قال : ((أَلسْتُ أحقَ النّاس بها ؟ ـ يعني الخِلافَة ـ أَلسْتُ أولُ من أسلم ؟)) .[٧٨] وإليه يعود فضل إِسْلام أبرز رجال الحركة الإِسْلاميّة ، فقد أسلم بدعوته :

((١ ـ عثمان بن عفان ، ٢ ـ الزُّبَير بن العوَّام ، ٣ ـ عبد الرحمن بن عوف ، ٤ ـ سعد بن أبي وقاص ، ٥ ـ طلحة بن عبيد الله)) .

و في الحقيقة نلاحظ أنه لعب دوراً مهماً في حقل الدعوة ، و ربما كان أبرز من تمكن من جذب الأنصار للحركة الإِسْلاميّة في أوانها المبكر ، فخديجة ـ زوج مُحَمَّدٍ ـ لم تستطع غير استقطاب بناتها ، و مُحَمَّدٌ نفسه لم يستطع أن يكسب سوى عليّ بن أبي طالبٍ الَّذِي كان أثناءها صبيّاً ، و مولاه زيد بن حارثة ، في حين استطاع أَبُو بَكْر كسب المذكورين ؛[٧٩] و هم شخصيات لها ثقلها في مكّة .

بذل أَبُو بَكْر ماله في سبيل إنجاح دعوة الإِسْلام ، و كان قد أنفق جل ماله في عتق المُستضعَفين الَّذِين أسلموا ، و للمساعدة على انتشار الإِسْلام ؛ فاعتق سبعة أشخاص ، منهم بلال .[٨٠] و عندما بلغ عدد المسلمين ثمانية و ثلاثين رجلاً ألحّ أَبُو بَكْر على مُحَمَّدٍ من أجل إشهار الدعوة ، و استجاب مُحَمَّدٌ لرأيه بعد إلحاحه ، فقام أَبُو بَكْر في النّاس خطيباً ، و دعا إلى المعتقد الجديد ، مما عرّضه في أثناء ذلك إلى ضربٍ مبَرّحٍ ، و لم ينجُ من الموت الأكيد إلاّ عندما قام بنو تيم بتخليصه من أيدي ضاربيه .[٨١]

---

[٧٧] تاريخ الخلفاء / ٥١ ، عيون الأثر : ١ / ٥٤ ـ ٥٥ .

[٧٨] أُسد الغابة : ٣ / ٢٠٩ .

[٧٩] ابن هشام : ١ / ٢٥٠ ـ ٢٥١ ؛ أَبُو بَكْر الصّدّيق : أوّل الخلفاء الراشدين ، محمّد رضا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ، ص ١٠ ؛ دثّريني يا خديجة ـ دراسة تحليلية لشخصية خديجة بنت خويلد ، د. سلوى بالحاج صالح ـ العايب ، دار الطليعة ، بيروت ، آذار (مارس) ، ١٩٩٩ م ، ص ٨٩ ـ ٩٠ .

[٨٠] الكامل : ٢ / ٤٢١ ؛ تاريخ الخلفاء ، ٥٦ ـ ٥٧

[٨١] سيرة ابن كثير ؛ رضا ، ١١ ـ ١٢ .

لما روى مُحَمَّدٌ للقُرشيّين تفاصيل رحلة الإسراء ، رفض القُرشيّون تصديقه ، وتساءلوا بمنطقهم الشكاك ، كيف له الذهاب إلى القدس في ليلةٍ واحدةٍ ، و الرحلة تستغرق شهرين ذهاباً و إياباً . و على إثْر هذه الرواية تراجع كثيرٌ مِمَن أعلن إسْلامه ، و ذهب البعض إلى أَبي بَكْر و أخبره رواية مُحَمَّدٍ ، لكنّه في البدء شكك في صدقهم ، ثُمّ لما أكّدوا له ذلك ، و قالوا له إنّ مُحَمَّداً في المسجد يحدّث به النّاس ، رد على مخبريه بأنّه يصدق روايته، و أردف أنّه يصدق ما هو أكثر من ذلك ، يصدق علاقته بالسماء و تلقيه الوحي ، و لهذا سماه مُحَمَّدٌ **الصّديقَ** ، و مما لاشك فيه أنّ موقف أَبِي بَكْر المؤيّد للرّواية عزّز موقف مُحَمَّدٍ ، و كان له دور في حفظ الإسْلام يومئذٍ .[٨٢]

كان أَبُو بَكْر واعياً لمتطلبات الدعوة التكتيكيّة و الاستراتيجيّة ؛ و لهذا حين انتقدَ عُمَرُ بن الخطّابِ صلحَ الحُدَيبيَة (٦ هـ / ٦٢٨ م) ، و أفْصَحَ عن رأيه النّقديّ إلى أَبِي بَكْر ، طلب منه الأخير الالتزام بقرار مُحَمَّدٍ ، ثم ذهب عُمُرُ إلى مُحَمَّدٍ يطالبه بإيضاحات حول هذا الصّلْح ، فبرّر مُحَمَّدٌ قراره بجوابٍ غامضٍ : « أنا عبد الله و رسوله ، لن أخالف أمرَه ، ولن يُضيِّعني »[٨٣] . و يتضح من جواب مُحَمَّدٍ أنّه لم يكن متأكداً من أن عُمرَ قادرٌ على إدراك المتطلبات التكتيكيّة لحركة أخذت طابعاً سِياسِيّاً محضاً و أنّه كان عليه مراعاة موازين القوى، إذ كفّ الإسْلامُ عن أن يكون مجرد حركة تبشريّة غير معنية بالتحالفات و الاتفاقات مع القوى القبليّة في الجَزِيْرة العَرَبِيّة .

أَبُو بَكْر الَّذِي ارتبط مع مُحَمَّدٍ الشاب ، بقي الرفيقُ الملازم أبداً لصديقه ، و نبيّه من الكهولة إلى الشّيْخوخة ، و في جميع الأوقات مرها و حلوها لا ريب إنّه لعب دوراً غير واضح المعالم بعد في توجيه مُحَمَّدٍ الشاب هذه الوجهة إلى جانب خديجةَ ، و تشي مساعدته لمُحَمَّدٍ في زواجه منها عن ذلك ، و ربما كان ثَمّة مثلث مكّون من خديجة ، و نوفل ، و أَبُو بَكْر دفع مُحَمَّداً لبدء دعوته ؛ و أَبُو بَكْر هو الوحيد الَّذِي بقي حياً بعد مرحلة التّأسيس الأوّلى، و استمرّ يلعب هذا الدور غير العلني في الدعوة الإسْلاميّة . و يبدو أنّ تأثير أَبِي بَكْر كان منحصراً في الجانب السِياسِيّ للدّعَوة ، و ليس في الجانَب اللاهوتي ، بما ينسجم مع عقليّة تاجر ذكي ،

---

[٨٢] ابن هشام : ١ / ٣٩٨ ـ ٣٩٩ ؛ الكامل : ٢ / ٥٦ ؛ أُسد الغابة : ٣ / ٢٠٥ ؛ الصّدّيق / ٣٤ .
[٨٣] ابن هشام : ٢ / ٣١٦ ـ ٣١٧ ؛ تاريخ الطبري : ٢ / ١٢٢ .

واسع الأفق ، ذي خبرة بالرجال ، و الأنساب . و هو الشّخصيّة الَّتِي يحتاجها كل قائد سِياسِيّ، دعْ عن نبيٍّ ناهضٍ بمهمة تتطلب الصبر و الأناة ، علاوة على المهارة في التعامل مع المعطيات القائمة في مختلف الأماكن الَّتِي تحركت فيها الحركة الإِسْلاميّة ، و التكيّف مع المحيط السيا ـ اجتماعيّ .

لا شك إن هذا الدور كان واضحاً للمسلمين ـ مهاجرين ، و أنصار ـ ، و الَّذِي سيمهد له طريق الخِلافَة ، أو بالأصح كانت القيادة تحتاج لهذا الطراز من الرجال المُحَنّكين . و قد رأينا كيف إنّ النّاس تركوا عمرَ ، الَّذِي وقف يؤكد عدم صحّة وفاة مُحَمَّدٍ ، و يَمّموا وجوههم شطر أَبِي بَكْر ، مما يدل على الموقع المركزي الَّذِي كان يحتله في وجدان النّاس ؛ و الرجوع إلى تفاصيل اجتماع السَّقِيْفَة ، و النّقاش الَّذِي دار فيها يساعدنا على إدراك قوة السُّلْطة المعنويّة الَّتي كان يتمتع بها أَبُو بَكْر ، إذ على الرغم من طابع الاجتماع الحادّ ، إلاّ أنّه بقي في إطار سلمي ، و حافظ المتناقشون على سلوك متزن ، و لم يندفعوا إلى صدام ، و هذا يعني إنه لم يفقدوا اتجاه النقاش ، و إذ كان اسمه أكثر الأسماء حضوراً ، فإن الانضباط يدل على مبلغ التقدير الَّذِي كان يكنّه الحاضرون إليه . ثم إنّنا لاحظنا أنه لم يتم ترشيح شخصيّة أخرى منافسة له بعد أن تبين للحاضرين اليثاربة صعوبة الاتفاق على سَعْد بن عُبَادة ، خلا مرةً واحدةً ذُكر فيها اسم علي بن أبي طالبٍ كمرشحٍ من قِبل أنصاريّ في الاجتماع ،[٨٤] و لا يمكن اعتبار هذه الإشارة صحيحة أبداً ؛ لأنّ الطبريّ لا يذكر و لا اسماً واحداً ممن طالب بعلي ، على خلاف المتبع عنده ، و عند المؤرخين الآخرين ، و تؤكّد العزلة الَّتِي عاشها عليٌّ في مرحلة حكم أَبِي بَكْر حقنا في نفي هذه الإشارة .

القراءة الوحيدة لغياب اسم مرشح آخر هي إنّ المجتمعين لم يكونوا معنيين بهم . بل إنه لم توجه الدّعْوةَ لعليٍّ للمشاركة ؛ و غياب عليٍّ و العباس عن الاجتماع يدل على إدراكهما لضعف موقفهما و موقعهما ، و يبدو أنّ علياً آثر البقاء بعيداً ، مثلما رفض من قبل اقتراح العباس الَّذِي طلب منه التوجه لِمُحَمَّدٍ قُبيل وفاته بسويعات من أجل تحديد مرشح بعينه .

---

[٨٤] تاريخ الطبري : ٢ / ٢٣٣ .

٤ ـ مساندة عُمَر بن الخطّابِ

كان عُمَر بن الخطّابِ من أبرز شخصيّات المهاجرين النّافذة ، و الَّتِي حضرت الاجتماع و أصرت على تنصيب أَبِي بَكْر ، و لعبت دوراً حاسماً في فرضه على المجتمعين ، فكيف تأتت عوامل القوة هذه لعمر ؟ و هل كان نافذاً بسبب السّمَة القُرشيّة وحدها ؟ أم بسبب شخصيّته بالذات ، و فعّاليته البارزة في المجتمع الإِسْلاميّ ؟ للإجابة على ذلك علينا النظر في سيرته ، فمن هو عمر ؟

عُمَر بن الخطّابِ بن نُفَيل بن عبد العُزَّى . و ينتسب من جهة أمه إلى مخزوم ، البطن الغني و النافذ في قُرَيْش إلى جانب بيت أميّة ، و لعل ميله للتحدي جاءه من أمه المخزوميّة ، الأسرة المعروفة بالتّكَبُر . تقول الرِّوايَات إنّ ولادةَ عُمرَ كانت بعد الفِيْل بثلاثَ عَشْرَةَ سنة لكنّ حدث الفِيْلِ غير مُؤرّخٍ على وجه الضبط كما لاحظنا ، و من هنا فإنّ تاريخ مولده غير معروف لنا بدقة .

كان عُمرُ من أشراف قُرَيْشٍ ، و كان منوطاً به إحدى مسئوليات الإدارة العامة في مكّة ، فقد أوكلت إليه السِّفارة في الجاهليّة ، فكانت قُرَيْش تبعثه سفيراً (رسولاً) في حالات التوتر بينها ، و بين القبائل ؛ و لهذا طلب منه مُحَمَّدٌ قُبَيل توقيع صلح الحُدَيبيَة الذهاب إلى مكّةَ ليفاوض القُرشيّين ؛ لكنّ عثمانَ ذهب بدلاً منه ، لتوفّر حماية قومه بني أميّة .

على الرّغم مِن أنّه شغل منصباً يتطلب الكِفاية الدبلوماسيّة ، إلاّ أنّه كان يفتقد للدهاء السِياسِيّ ، الَّذِي كان يتوجب توفره بمن يحتله . و من المؤكد أنّه شغل هذه المنصب بوصفه من آل عديٍّ ، و حيث كانت السفارة لهم في إطار تقاسم المهام بين قبائل قُرَيْش . و لعل المنصب كان شكليّاً ، إذ كان التّجار القرشيّون يؤمّنون طرق الموصلات بعلاقاتهم الجيدة مع القبائلِ البدويّة ، و مع الّتجار في بلاد الشّامِ و اليمنِ ، و على أساس هذه العلاقة تحددت بقية الروابط مع هذه القبائل .

أسلم عُمَرُ في السّنة السّادسة للدعوة الإِسْلاميّة و هو ابن ستّ و عشرين أو سبع وعشرين سنة حسب الرّوايات الإِسْلاميّة ، و لم يكن عدد المسلمين ـ نساءً

و رجالاً ـ يتجاوز الستة و الخمسين حسب أعلى الأرقام .[٨٥] و لا تتفق الرِّوايَات على كيفيّة إِسْلامه ، و تحيط بها الغموض ككلِّ روايات إِسْلام رجال الإِسْلام الأوائل .

ربما تنجلي دوافع إِسْلامه إذا علمنا أنّ زيدَ بنَ عَمْرِو بنَ نُفَيل ـ ابن عمّ عُمَرَ ـ كان من الأحناف ، و تذكره الرِّوايَات على أنّه أوّل من نَدّد بالأَوْثان و نهى عن تقديسها ، و كان الخطّاب ـ أبو عمر ـ يمارس ضغوطاً على زيد حَتّى أجبره على الخروج إلى أعلى مكّة ، فالتجأ إلى جبل **حِراءَ** مقابل مكّة ، ثمّ طلب الخطّاب من شباب قُرَيْش منعه ـ أي زيد بن عَمْرٍو ـ من دخول مكّة ، فكان إذا دخلها سراً أعلموه ، فيقوم بطرده ، و ثَمّة روايات تتحدث عن جولات كان يقوم بها زيد أوصلته إلى الموصل و الجزيرة ، و يبدو أنّه تعرّف على الديانتيْن : اليَهُوْديّة والمسيحيّة ، و قد مات زيدٌ في ظروف غامضة أثناء هذه الجولات .[٨٦] ولربما لعب دوراً ما في دفع مُحَمَّداً الشاب قدماً نحو التوحيد ، إذ تخبرنا الرِّوايَات عن أنّه التقى مُحَمَّداً قبل النّبوّة ، و في اللّقاء أعطى زيدٌ مثلاً توحيديّاً لمُحَمَّدٍ الشّاب عندما رفض أنْ يأكل من لحم ذبيحة ذُبحت للأصنام كانت مع مُحَمَّدٍ ، فقرر الشّابُ على إِثْر ذلك عدم أكل ما ذُبح للأصنام ؛ و بذلك يكون زيدٌ قد دفع مُحَمَّداً أكثر باتجاهاته التوحيديّة .[٨٧]

كان عُمَرُ يتذكّر بمرارة قَسْوة والده ،[٨٨] و من المفترض أنّ هذه القَسْوة أكسبته حساسيّة خاصة تجاه التّسلّط و الظّلْم ـ بحدود وَعْي تلك الحقبة ـ ، و صرامة مفرطة في تشددها ، و يبدو أنّ إِسْلام عمرَ جاء من هذه الحساسيّة ؛ فتعاطف مع الحركة الإِسْلاميّة المُضطهَدة ، و من جانب آخر كان إِسْلامه إعلان تمرّد على الأب القاسي ، الَّذِي ظلم ابن العمّ الحنيفيّ . في إِسْلامه جابه عمر والده ، و كأنّه أراد ردّ مَظْلَمَة زيدٍ عبر إِسْلامه و برجوعه إلى عقيدة المظلوم .

---

[٨٥] تاريخ الخلفاء / ١٣٣ ؛ ابن سعد : ٣ / ٢٦٩ ـ ٢٧٠ .
[٨٦] أُسد الغابة : ٢ / ١٥٨ ؛ عيون الأثر : ١ / ٨٠ ـ ٨١ ؛ ابن إسحاق .
[٨٧] أُسد الغابة : ٢ / ١٥٧ ؛ ابن سعد : ٣ / ٣٨٠ ؛ رسالة الغفران ، أبو العَلاءِ المَعَرِّي ، دار صادر ، بيروت ، د. ت. ، ص ٣٥٦ ؛ ابن إسحاق باختلاف بالتفاصيل .
[٨٨] ابن سعد : ٣ / ٢٦٦ ـ ٢٦٧ .

هذا الاستطراد التحليلي ضروري لفهم شدة عُمَرَ ، و يساعد على مقاربة أكثر دقة لشخصيّته ، و يفسّر لنا كيف يتجلى فيه تناقض مثير للانتباه بين حساسيته و خشيته من أن يُظلم النّاس من جانب ، و التشدّد في تطبيق العقوبات ، و عدوانية ملحوظة تجاه المرأة من جانبٍ آخر ؛ ثمّ منعه قُرَيْشاً عندما تقلّد مقاليد السُّلْطَة من الخروج للمناطق المُحتلة ، إلا بإذنٍ خاصٍ منه ، كي لا يشكّلون طبقةً متسلّطةً ، و كذلك إصراره على ألاّ يكون للهاشميّين دور في قيادة المجتمع سِياسِيّاً ، إذ كان يرى أنّه يكفيهم موقعهم المعنويّ كونهم من آل النَّبِيِّ . إنّ خصوصيّة عُمَرَ هذه جعلتنا نتقبل ما ترويه المصادر عن أنّه رفض للوهلة الأولى تصديق حقيقة موت النَّبيِّ ، و الأساس الَّذِي بنينا عليه قناعتنا هو معطيات مستمدة من التحليل النفسي، و ربما في عملٍ لاحق يبحث في حياة الصحابة ـ نأمل إنجازه ـ سنتوسع بهذه النقطة .

دور عمر البارز في الحركة الإِسْلاميّة

أُعتبر إِسْلامُ عمرَ نصراً كبيراً للحركة الإِسْلاميّة ، حيث عزز إِسْلامه موقف المسلمين الأوائل ، و تذكر الرِّوايَات أنّه الوحيد الَّذِي هاجر علناً من مكّة ، إذ أتى الكعبة و أشرافُ قُرَيْش بفنائها ، فأعلمهم بنيّته على الهجرة ؛[٨٩] و الَّذِي جرأه على تحدي قُرَيْشٍ و إعلان إِسْلامه ، و هجرته العلنية موقعه في مكّة الجاهلية و السّطوة الَّتِي كان يتمتع بها ؛ لكن محوريته في التاريخ الإِسْلاميّ لا تدور حول تحديه المتكرر لقُرَيْش ، و حسب ، بل في الدّور التّشريعيّ الَّذِي مارسه في غضون حياة مُحَمَّدٍ ، و بعد وفاته ، و كان دوره مكملاً لدور أَبِي بَكْر السِياسِيّ . و الجانب المهم في دراستنا هو الدور التّشريعيّ الَّذِي مارسه حَتّى السَّقِيْفَة ؛ مما جعل له حضوراً طاغياً في الاجتماع .

على إثْر موقعة بدر (رمضان ٢ هـ / آذار (مارس) ٦٢٤) ، و وقوع سبعون رجلاً قُرشيّاً في الأسر ، استشار مُحَمَّدٌ أصحابه بشأن الأسرى ، فاقترح أَبُو بَكْر

---

[٨٩] تاريخ الخلفاء ، ١٤١ .

أخذ الفِدْيَة ، آخذاً بالاعتبار عوامل : القرابة ، و الاستفادة من مال الفداء ، و لممارسة تأثير نفسيٍّ على الأسرى قد يدفعهم للانضمام للمسلمين لاحقاً ، كان أَبُو بَكْر يرى في هذا المسلكَ وسيلة لجعل العدو المهزوم يزيد من قوة المسلمين ؛ أما عُمَرُ فرأى قتل الأسرى ، و قد اتبع مُحَمَّدٌ وجهة نظر أَبِي بَكْر ، و يبدو أنّه تقبّل مسألة مراعاة القرابة لوجود عمّه العباس في عِداد الأسرى ، ثُمّ إنّه شعر بعد ذلك بأنّه أرتكب خَطِيْئَةً جسيمةً ، فجاء القرآن يؤكد صوابيّة موقف عُمَرَ : ﴿ ما كان لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى حَتّى يُثْخِنَ في الأَرْضِ تُرِيدُون عَرَض الدُّنْيَا و اللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ ﴾ (الأنفال / ٦٧) .[٩٠]

ثم إنّ مسألة إشكالية حَتّى الآن ـ مسألة الحِجاب ـ تُعزى لنشاطِ عُمَرَ ، الَّذِي طلب من نساء مُحَمَّدٍ أن يحتجبنَ ، ونصح مُحَمَّداً بتحجيب نسائه ؛ فرفضت زينب ذلك ، و تساءلت كيف له أنْ يتدخل في حياتهن و الوحي ينزل في بيوتهن ، لكنَّ القرآنَ سَرْعانَ ما جاء يؤيده.[٩١] و موقفه الخاص تجاه المرأة سيدفعه لاحقاً للطلب من أبي عُبيدة بن الجراح منع نساء أهل الذمة من دخول الحمامات مع نساء المسلمين .[٩٢]

في قضية تحريم الخمر توجد رواية تجعل عُمَرَ اللاعب الأبرز في تحديد الموقف منها ، فالمعروف إنّ مسألة التّحريم كانت تدريجيّة ، فكان عُمَرُ يطالب بإيضاح أكثر تحديداً كلما جاء تحريم جزئي بصددها ، فجاء القرآن بتحريمها نهائياً .[٩٣] و فيما بعد عندما يصبح عُمَرُ خليفةً سوف يعاقب على شرب الخمر ثمانين جلدة ، و هذا الحد الَّذِي فرضه لم يُمارس في عهد مُحَمَّدٍ و أَبِي بَكْر ، فقد حُرم الخمر في القرآن ، لكن لم يُفرض فيه على شاربها عقاباً في الدنيا ، و جعلت عقوبة المخالفين يوم القيامة .[٩٤]

---

[٩٠] تاريخ الطبري : ٢ / ٤٦ ؛ تاريخ الخلفاء ، ١٤٧ ، ١٤٩ .
[٩١] الأحزاب / ٥٣ .
[٩٢] تفسير الطبري و القرطبي ، الأحزاب / ٥٣ ؛ تاريخ الخلفاء ، ١٤٧ ـ ١٤٩ تفسير الطبري ، النور : ٣١ .
[٩٣] تفسير ابن كثير ، البقرة / ٢١٩ ؛ تاريخ الخلفاء ، ١٤٩ .
[٩٤] تاريخ الخلفاء ، ١٦٥ ؛ ابن سعد : ٣ / ٢٨٢ ؛ الشيخان ، ٢٠٢ .

لما مات عبد اللَّه بن أُبيّ دُعي مُحَمَّدٌ للصّلاة عليه ، فقام فصلّى ؛ فاعترض عُمَرُ على ذلك و ذكّره بعداء ابن أبي للحركة الإِسْلاميّة ، و ما هو إلاّ يسيراً حَتّى جاءت الآية ٨٤ من سورة التوبة تؤيد موقف عُمَرَ .[٩٥]

كان مسموحاً في مرحلة الإِسْلام المبكرة ممارسة الجنس و الأكل في شهر رمضان بعد الإفطار إلى صلاة العشاء و حسب ، و إذا حدث و نام المؤمن قبيل العشاء ، و حَتّى لو لم يأكل لا يجوز له تناول الطعام ، و الشراب ، و ممارسة الجنس إلى الليلة التّالية ، و تذهب بعض الرِّوايَات إلى القول بأنه كان محرماً ممارسة الجنس خلال شهر رمضان كله ؛ لكن المؤمنين لم يتمكنوا من التزام شرط عدم ممارسة الجنس ، فكانوا يخرقون باستمرار هذا المنع، مما جعل هذا الشرط لصحة الصيام غير فاعلٍ عملياً ، و بدوره خرق عُمَرُ هذا التّحريم، ثم ذهب فاعترف لِمُحَمَّدٍ ، و لعلّ مُحَمَّداً تأكّد من استحالة تنفيذ هذا الشرط على رجاله المؤمنين ، لا سيما أنّ عمرَ المنضبط ـ و ربما الأكثر انضباطاً بين رجاله ـ لم يتمكن من الالتزام به ، أو إنّ عُمَرَ تدخل للتخفيف من هذا المنسك ، و بالفعل جاء القرآن يبيح ذلك .[٩٦] فيما بعد ، و عندما يتبوأ الخِلافَة سيقوم بعدة إصلاحات تشريعية ، كان أبرزها تحريم زواج المُتْعة ، و هذا الإصلاح يرتقي لمستوى الاجتهاد في موضع النّص القرآني ، الَّذِي لا يجرؤ أحدٌ اليوم على استحضاره ، و بعد خمسة عشر قرناً !!

كان أَبُو بَكْر يدرك أهمية الجانب التّشريعيّ للحركة الإِسْلاميّة ، و لهذا لم يكن ممكناً بالنسبة إليه الاستغناء عن المشرّع ، سيّما التطورات السريعة للأَحداث ، و الحاجة لهذا المشرع قد ازدادت بعد غياب مُحَمَّدٍ المتصل بالسماء ، فولى في (١١ هـ) عُمَرَ بنَ الخطّابِ مهمة القضاء ، لأنّه كان يقدّر قولَ مُحَمَّدٍ فيه : ((لو كان بعدي نبيّ لكان عُمَر بن الخطّابِ)) ،[٩٧] و قد بقي عُمَرُ في هذا المنصب أيام خلافته كلها .[٩٨]

---

[٩٥] تفسير الطبري ، التوبة : ٨٤ ؛ تاريخ الخلفاء / ١٤٩ .
[٩٦] تفسير البقرة : ١٨٧ عند القرطبي ، الطبري ، ابن كثير ، البيضاوي ، البغوي .
[٩٧] تاريخ الخلفاء ، ١٤٣ .
[٩٨] تاريخ الطبري : ٢ / ٣٠٦ ؛ الكامل : ٢ / ٣٨٣

إنّ هذا المزيج من قوة الشّخصيّة ، النابعة من السّطوة الَّتِي كان يتمتع بها في العهد الجاهليّ ، و الَّتِي بقيت إلى العهد الإِسْلاميّ ، ثُمّ الدّور التّشريعيّ ـ بل المنحى النَبَوِيّ لعُمَرَ ـ أكمل عناصر الضغط على الحاضرين للموافقة على أَبِي بَكْر ، إذ إنّ الشّخصيّة الَّتي يساندها عمر هي الأكثر حظاً ، فكيف إذا كان هذا المرشح أَبُو بَكْر ، و الَّذِي يملك لوحده كل الأفضليات الضَّرُوْرِيّة لنجاحه .

أصداء البَيْعَة

البَيْعَة العامة

الآن و بعد أن قدمت مجموعة من الظروف نفسها لأَبِي بَكْر ، تأتّى عليه التعامل مع الأوضاع الَّتِي تولدت عن السَّقِيْفَة ، و كانت البداية هي التوجه للنّاس من أجل نيل اعترافهم بشرعيّة تعيينه ؛ فتوجه للمسجد غداة السَّقِيْفَة للقائهم .

قد تبدو هذه الخطوة للوهلة الأولى شكليّة ؛ لأنّ ممثليّ المجموعات القبليّة ، الَّذِين كانوا حاضرين في السَّقِيْفَة وافقوا في ختام مداولاتهم على أن يتسلّم قيادة الحركة الإسْلاميّة ، و مع ذلك رأى أَبُو بَكْر أنّه من الأفضل له التوجه لجمهور المدينة ، و الالتقاء بهم . كانت هذه المسألة أمراً شديد الأهمية بالنسبة إليه ؛ لأنّه كان يريد توظيف هذا اللّقاء بما يخدم مهماته اللاّحقة كقائدٍ لمجتمع المدينة ـ مهاجريه و أنصاره ـ ، فكان عليه إقناع الجمهور بأنّهم شاركوا في قرار توليته ، و أنّهم فاعلون أساسيّون في صنع هذه اللّحظة بعد وفاة مُحَمَّدٍ . و قد تصدى عُمَرُ للقيام بهذه المهمة عندما توجّه للجمهور الحاضر و خطب بهم و حثّهم على مبايعة أَبِي بَكْر ، صاحب رسول اللّه ، و ثاني اثنين في الغار في إشارة واضحة إلى الآية أربعين من سورة التوبة ، و لم يتردد الحضور في الاستجابة لطلب عُمَرَ ، فأعلنوا البَيْعَة العامة . ثم قام أَبُو بَكْر ، فخطب فيهم ، و طلب معونتهم إذا أحسن ، و تقويمهم إذا أساء ، ولكن كان أكثر ما يثير الانتباه في خطابه ، قوله : ((لا يدَعُ قوم الجهاد في سبيل اللّه إلا ضربهم اللّه بالذُّلُ)) .[١]

لقد جاءت البَيْعَة العامة في إطار استعداداته لمواجهة شخصيّات نافذة في المجتمع الإسْلاميّ آنذاك لم تعطِ موافقتها بعد على السَّقِيْفَة ، و كان أَبُو بَكْر يقدّر صعوبة نيل موافقتها، فتحرك سريعاً عبر البَيْعَة العامة لتحييد أكبر عدد ممكن

---

١ ابن هشام : ٢ / ٦٦١ ؛ الكامل : ٢ / ٣٣٢ ؛ شرح نهج : ٢ / ٨ .

من النّاس في الصّراع المحتمل على السُّلْطَة . و سنلاحظ لاحقاً أنه تمكن من تحييد جمهور المدينة كليّاً .

لكنْ قبل أن ننتقل إلى الأحداث الَّتِي أعقبت الاجتماع علينا أن نعرّج على الشّخصيّات الَّتِي رفضت مبايعته ؛ لنرى كيف تعامل معها .

سَعْدُ بنُ عُبَادةَ

كان من الطبيعي أن يكون سَعْدُ بن عُبَادة رافضاً عنيداً لأَبِي بَكْر ، فهو الشخص الوحيد الَّذِي طُرح اسمه في الاجتماع كمرشح ، و قبل أنْ يُطرح اسم أَبِي بَكْر ، أي كان يمكن أن يكون الخليفة ، و لهذا أعلن منذ لحظة انْفِضَاضَ الاجتماعِ عن رفضه مبايعة أَبِي بَكْر ، و سيحافظ على موقفه المناوئ ما دام حياً .

كان المهاجرون ينزعون لإجبار سَعْدِ بن عُبَادة على البَيْعَة ، و قد جسّد عمرُ هذه النّزْعة ، لكن الخليفة آثر ترك سعدٍ بسلامٍ عملاً بنصيحة بَشير بن سَعْد [١] لئلا يثير محاولة إجباره على البَيْعَة نار حرب بين المهاجرين و الأنصار ، إذ عبّر بَشير عن خشيته من أنّ الصّدام معه سيؤدي إلى قتله ، و ستدافع عنه أسرته ، و جزء من عشيرته مما سيزج الخزرج كلها في الصّراع مع المهاجرين ، و ربما يجر الأوس تالياً ،[٢] في حال رأت أنّه من الأفضل أنْ تساند الخزرج على أنْ تساند المهاجرين في معركة مصيرية قد تفضي لجلاء المهزوم عن يثرب أو إبادته .

بعد أيام من البَيْعَة العامة طُلب مرة أخرى من سَعْدٍ المبايعة ، فأصرّ على رفضه ، وحافظ أَبُو بَكْر على مبدإ عدم التعرّض إليه بسوء أثناء فترة حكمة . و قد أثمرت سياسة أَبِي بَكْر بصدده ، إذ بقي بعيداً عن دائرة التأثير في مجريات الأحداث ، و لم يسبب أيّ إرْبَاكٍ للسلْطة الإسْلاميّة في يثربَ . و بعد وفاة أَبِي بَكْر ترك ابن عُبَادَة المدينة إلى الشّام أوّل حكم عمرَ بعد أن جرت مشادة كلاميّة بينه و بين الخليفة الجديد ، حيث مات هناك بحَوْرانَ في ظروفٍ غامضة (ح ١٤ هـ) ،

---

[٢] قيس بن سعد ، الإمامة و السياسة .

[٣] تاريخ الطبري : ٢ / ٢٤٤ ؛ الكامل : ٢ / ٣٣١ ؛ ابن سعد : ٣ / ٦١٦ ؛ الإمامة و السياسة : ١ / ١١ .

و قد قيل تبريراً لمقتله الغامض إنّ الجنّ قد قتلته؛[٤] و هذا الأمر عند النوبختي فيه نظر لأنّه ليس من المتعارف أنّ الجنّ ترمي بني آدم بالسهام فتقتلهم ، و يورد النوبختي رواية أخرى تقول بأن الروم قتلته .[٥] و ثَمّة رواية في العقد الفريد تفيد بأنّ عمرَ بعث رجلاً إلى الشّام ، ليأخذ البَيْعَة من سعدٍ ، فرفض سعدٌ البَيْعَة ، فقتله الرسولُ . و رواية أخرى في شرح نهج البلاغة تقول إنّ أميرَ الشّامَ بعث من رماه بسهمين ؛ لخروجه عن طاعة الإمام .[٦]

لقد كان يشرف على الشّام وقتها أبو عبيدة بن الجرّاح ، و لم يكن معروفاً عنه توسله المؤامرات للتخلّص من أعداء الحركة الإسْلاميّة ، كما لم يكن يتمتع بدهاء المتآمرين ، والسؤال الَّذِي بقي دون جواب ، من الَّذِي أصدر أمر اغتياله ، و ما هي الأسباب الَّتِي حدت به لإصدار هذا الأمر بعد أن استقرت الدّوْلَة الإسْلاميّة داخل الجَزِيْرة العَرَبِيّة ، و شرعت في التوسع (الفتوحات) ، حيث لم يعد سعدٌ يشكل خطراً عليها ؛ لاسيّما بغياب أيّ معطى عن تحرك معادٍ لعمرَ كان يقوم به سعد ، و ربّما لهذا السبب عزت بعض الروايات مقتله إلى الجنّ ؛ و مهما يكن فإنّ الشكوك بقيت تحوم حول القيادة القرشيّة ، و لهذا بالضبط فإنّ قيس بن سعد ـ ابن المقتول ـ انضم لاحقاً إلى عَلِيّ بن أبي طالبٍ ، و صار من أبرز رجالات شيعته ، و سيتخذ موقفاً عدائيّاً من الحسن بن عليّ بعد أنْ أبرم الأخير صلحاً مع معاوية على أثر اغتيال أبيه ـ عَلِيّ بن أبي طالبٍ ـ .

الأسر القرشيّة

شكّل اجتماع السَّقِيْفَة و النتيجة الَّتِي تمخض عنها صعوبةً أمام ابن خَلْدُون ، حيث كانت نتيجة الاجتماع تتناقض مع رؤيته لدور العَصَبِيّة في مجتمعات الجزِيرَة العَرَبِيَّة ، إذ كان يجب أنْ يتولّى زمام الأمور شخصيّة تنتمي إلى إحدى العَصَبِيّات القويّة في قريشٍ ، وهي تنطبق على الهاشميّين و الأمويّين ، في حين

---

[٤] ابن سعد : ٣ / ٦١٦ ـ ٦١٧ ؛ تاريخ ابن خلدون ، م ٢ ، ج ١ / ٢٩٤ ؛ الإمامة و السياسة : ١ / ١١ ؛ شرح نهج : ٢ / ٤ .

[٥] فِرق الشِّيْعة ، ٣ ـ ٤ .

[٦] شرح نهج : ٢ / ٥٢٠ ؛ فصول من تاريخ الإسلام السياسي ، هادي العلوي ، مركز الأبحاث و الدراسات الاشتراكية في العالم العربي ، نيقوسيا ، قبرص ، ١٩٩٥ ، ص ١٩٨ ، ١٩٩ .

كان أَبُو بَكْر ينتمي إلى بيت غير ذي قوة ـ تَيْم ـ و لهذا قام ابنُ خَلْدُون بتفسير تعيينه كحالة لا تنطبق عليها قوانين نظريته ، بل قضية خضعت للإرادة الإلهيّة .

لكنّ الواقعَ كان غيرَ ذلك ، إذ كان أَبُو بَكْر يملك عواملَ قوةٍ ، كنا قد شرحناها من قبل في القسم الرّابع ، و هي : ١ ـ قُرشيّته ، ٢ ـ تفكك الأنصار ، ٣ ـ سيرته الشّخصيّة ، ٤ ـ دعم عُمَرَ بنِ الخطّابِ له ؛ هذا من جهة ، و من جهة ثانيّة كان أَبُو بَكْر يمثّل كلَّ قريشٍ، و الصّراع لم يكن على حكم مَكّةَ (داخل ـ قرشيٍّ) بل كان على وراثة موقعاً يشمل قريشاً و غيرَ قريشٍ ، أيْ إنّه صراعٌ تجسّدت فيه عَصَبِيّات البطون القرشيّة في مواجهة عَصَبِيّة اليثاربة ، و الَّتِي نظَرَ إليها القرشيّون كعَصَبِيّة واحدةٍ ؛ ففي الاجتماع كانت عَصَبِيّة قُريشٍ في مواجهة عَصَبِيّة الأنصار .

ما بدا خارقاً لابن خَلْدُون كان من جهة أولى ، نتيجة توازنات قوىً داخل مجتمع المدينة كنا قد استعرضناه من قبل ، و من جهة ثانية ، جنّب ـ أيْ تعيين أَبِي بَكْرٍ ـ القيادة الإِسْلاميّة في عهدها الأوّل أزمة صراعٍ داخليٍّ حادٍ بين الأجنحة القرشيّة القويّة ، و بالذات بين جناحيْن فاعليْن في مكّةَ ، الجناح الأمويّ ، و الجناح الهاشميّ .

كانت أجنحة المهاجرين النافذة تضم : الهاشميّين ، و الأمويّين ، و بني زهرة ، و بني المغيرة و من كان مرتبطاً بهم ، و حَتَّى لحظة البَيْعَة العامة لم يلتقِ بممثليهم ، و لم يعطوه البَيْعَة عندما بايع النّاس البَيْعَة العامة ؛ و نستطيع أنْ نقدّر أهميّة اعترافهم بنتيجة الاجتماع ما يُروى عن أنّ تأييد بني المغيرة ، و بني عبد مناف كان موضع تساؤل أبي قحافة ـ والد أَبِي بَكْر ـ ، و الَّذِي اعتبر أنّ موافقتهما يجعل خلافة ابنه أمراً نافذاً .[٧] و بالفعل تفاهم الخليفة سريعاً مع ثلاثة أجنحة رئيسة : الجناح الأمويّ ، و الَّذِي اجتمع إلى عثمانَ ؛ و جناح بني زهرة الَّذِي اجتمع إلى سعد و عبد الرحمن بن عوف ، فوافق هذان الجناحان على إعطاء البَيْعَة ،[٨] أما بنو المغيرة فلا نعرف من كان يمثّلهم آنذاك ، و لم تشر الرّوايات إلى اعتراضات من قِبَلهم و لا من قِبَل الأمويّين و الزهريّين ، مما يدلّ على أنّهم فضّلوا التفاهم مع

---

[٧] تاريخ الخلفاء ، ٩٢ ؛ أُسد الغابة : ٣ / ٢٢٧ ؛ ابن سعد : ٣ / ١٨٤ ؛ شرح نهج : ١ / ٥٢ .

[٨] الإمامة والسياسة : ١ / ١١ ـ ١٢ ؛ شرح نهج : ٢ / ٥ .

الخليفة الجديد على معاداته ؛ و كانت الدوافع التي حدت بهم لتأييد خلافة أبي بكْر ، هي :

١ ـ إنّ تعيين أبي بَكْرٍ يعطي قريشاً السُّلْطَة على مجمل الحركة الإسْلاميّة ، فحَتَّى مُحَمَّد لم يمنح قريشاً سلطةً بقدر ما منحها لهم أَبُو بَكْر ، إذ كان مُحَمَّدٌ يستمد هيبته ، و سلطته من نبوّته ، مِن تمثيله السّماءَ ، لا من تمثيله قريشاً ، في حين أنّ أَبَا بَكْر تقلّد الخِلافَة نتيجة أربعة عوامل أحداهما قرشيته ، أي إنّ أَبَا بَكْر يرسّخ بتعيينه القيمة القرشيّة سياسيّاً .

٢ ـ لم تكن أيّة من هذه الأُسر القويّة تقبل بأنْ يتسلم موقع القيادة شخصٌ من الأسرة المنافسة ، و بالذات الأسرة الأمويّة و الهاشميّة ، اللّتان كانتا على عداءٍ مستحكم ؛ كان مستحيلاً على الأمويّين تقبل هاشميٍّ في منصب الخِلافَة ، كما لم يكن العكس مقبولاً بالنسبة للهاشميّين و بذلك حيّدت هذه الأسر بعضها بعضاً ، مما حال دون أنْ يستلم أحدٌ منها زمام الأمور ؛ و هذا ما حال دون تفجّر الصّراع بينها مما كان سيعود بعواقبَ وخيمةٍ على كلِّ الحركةِ الإسْلاميّةِ ، و على جميع القرشيّين ، و يهدّد استقرار منطقة الحِجَاز ، و لهذا كان يجب إبعادها جميعاً عن هذا الموقع .

٣ ـ من المرجح أنّ مجموعات المهاجرين كانت تشعر بثقل هذه الأجنحة عليها ، وبالذات بثقل الجناحيْن الرئيسييْن ، فأرادت أن تنقل الهيمنة السِيَاسِيّة إلى جناحٍ ثالثٍ من أجل تحقيق توازنٍ سِيَاسِيٍّ أكبر بين البطون القرشيّة ، و بهذا أجهض احتمال أنْ يتابع الهاشميّون و الأمويّون صراعهم في إطارٍ إسْلاميٍّ في فترة حُكْم أَبِي بَكْرٍ و عُمَرَ ؛ أي حَتَّى هنا و بكل هذه التوازنات الَّتِي جاءت بأَبِي بَكْر ، فإنّ تعيينه لم يخلُ من العامل العَصَبِيّ ، و على مدى عهديْن (أَبِي بَكْر ، و عُمَرَ) نعمت القيادة الإسْلاميّة باستقرارٍ داخليٍّ هي بأمسّ الحاجة إليه من أجل بناء الدّوْلَة الفتية . و بهذا الاختيار استطاعت قيادة المهاجرين أنْ تتجنّب مخاطر الانزلاق لمهاوي صراعٍ مسلحٍ ، و تمتعت المؤسَّسة الحاكمة باستقرارٍ على يد أَبِي بَكْر ، و فيما بعد على يد عُمَرَ ، فهيأَها لمواجهة التّحديات المقبلة . و ما إنْ يصل عثمانُ إلى مركزِ الخِلافَةِ حَتَّى ينشب الصراع الداخليٍّ ، و إنْ بدرجةٍ واطئةٍ ، على أنّ الصّراع العَصَبِيّ سيبقى يحكم سير التَّارِيْخ الإسْلاميّ ، و يخفي الجوهر الحقيقيّ للصراع الاجتماعيّ مع قليلٍ من الاستثناءات ، مثلما جرى في عهدِ مُعَاوِيَةَ ، عندما تمكّن من تجنيب الدّوْلَة الإسْلاميّةَ التفتت الداخليّ على إثْر

الصّراع الطويل والدامي مع عليٍّ بن أبي طالبٍ ، بفضل الظروف الموضوعيّة الّتِي كانت تتمثّل بتوسّع الدّوْلَة ، و هذا التوسّع حال دون تفتتها في أوانها الباكر .

ثمّة استثناءان جريا من قِبل شخصيتيْن أمويتيْن ؛ الأوّل ، و كان عندما رفضَ أبو سفيان ـ الزعيم الأمويّ النافذ ـ خلافة أَبِي بَكْر ، و توجه إلى عليٍّ ، و هو يقول : ((و اللَّه إنّي لأرى عجاجةً لا يطفِئُها إلا دم ! يا آل عبد مناف فيمَ أَبُو بَكْر من أموركم ! و اللَّه لئن شئت لأملأنَّها عليه خيلاً و رجالاً . أين المستضعَفان ! أين الأذلان عليّ و العباس !)) ، وتساءل عن موقع أَبِي بَكْر في المجتمع المكّيّ ، و أكّد أحقيّة بني مناف بالخِلافَة ، ثُمّ اقترحَ على عليٍّ تنصيبه خليفةً ، فرفض عليٌّ هذا العرض ، فجعل أبو سفيان يتمثّل شعر المتلمّس :[٩]

و لَنْ يُـقيمَ عَلَى خَسْفٍ يُـرادُ بِهِ إلاّ الأذلاّن عَيْرُ الحَيِّ و الوَتِدُ
هَذا عَلَى الْخَسْفِ مَعْكُوسٌ بـرُمَّتِه و ذا يُشَجَّ فَلا يَبكي لَهُ أحَـدُ[١٠]

الاستثناء الثاني ، كان في حالة خالد بن سعيد بن العاص ، الَّذِي كان باليمنِ في حياة مُحَمَّدٍ ، و لم يؤب منها إلا بعد شهرٍ على وفاة مُحَمَّدٍ ، فلما عاين حال المدينة بعد رجوعه ، قال معلقاً : ((يا بني عبد مناف أغُلِبتم عليها !)) ، و في رواية أخرى : ((يا بني عبد مناف ؛ لقد طِبْتم نفساً عن أمركم يليه غيركم !)) ، و بايع بعد مرور ثلاثة أشهر .[١١]

إنّ استثنائيّة هاتيْن الحالَتين في الأسرة الأمويّة ، تجعلنا نشكّك في صحة الخبريْن ، والرّاجح أنّهما نُسجا في إطار الصّراع بين معاويةَ بنِ أبي سفيانَ و عليِّ بن أبي طالبٍ ، أو بين الأسرة الأمويّة و الهاشميّة لاحقاً ، فقامت الدعاية الأمويّة بنشر هذه الرّاوية لسحب حقِّ الخلافة من عليٍّ ، الَّذِي رفض اقتراح أبي سفيانَ للبيعة حسب الرّواية . و لعل الرّواية تريد مناقضة الدعاية الشّيعيّة القائلة بالتعيين بالنصّ ، فإذا كان عليٌّ أقرّ بنتيجة الاجتماع ، و تنازل على التعيين

---

[٩] المتلمّس الضبعي ، جرير بن عبد العزى ـ أو عبد المسيح (ح ٥٢٥ م ـ ٥٦٩ م / ٥٠ هـ) .
[١٠] تاريخ الطبري : ٢ / ٢٣٧ ؛ الكامل :٢ / ٣٢٦ ؛ تاريخ الخلفاء ، ٨٦ ـ ٨٧ .
[١١] تاريخ الطبري : ٢ / ٣٣١ ؛ ابن سعد : ٤ / ٩٧ .

النصّي ، و رضي قيادة شخصٍ لا ينتمي للأسرة الهاشميّة ، و لا للأسرة الأكبر ـ المنافية ـ فأولى به ـ أو بشيعته ـ أنْ يوافق على شخصٍ أمويٍّ يشترك معه ـ علي ـ في الجدِ (عبد مناف) . علاوة على أنّ الرّواية تضع مبدأ التعيين بالنصّ موضع تساؤل ؛ أولاً ، لأنّ أبا سفيان كان يحرّض عليّاً من منطلق العصبيّة المنافيّة ، لا من منطلق وجود نصٍّ يقضي بتوليته الخلافة ؛ ثانياً ، إذا كان عليٌّ و هو المعني بالنصّ حسب المنظور الشّيعيّ قد تخلّى عن الخِلافَة ، فإنّه جعل النصّ متقادماً في عهده هو ، و بالتالي أصبح النصّ بحكم الميت بعد وفاته ، و لا يعود لأحدٍ الحق بالمطالبة بالخِلافَة على أساس النصّ .

عليُّ بن أبي طالبٍ

بعد موافقة نخبِ المهاجرين على نتيجة السَّقِيْفَة ، صار الجناح الهاشميّ في المدينة معزولاً ؛ فطلب أَبُو بَكْر من عَلِيّ بن أبي طالبٍ عقد اجتماع ،[١٢] و الذي جرلي بحضور شخصيّات المدينة البارزة ، و في هذا اللّقاء طلب عُمَر بن الخطّابِ من عليّ مبايعة أَبِي بَكْر ؛ لكن عليّاً رفض المبايعة ، و قال لهم بأنّهم احتجوا على أحقيّة أَبِي بَكْر بانتماء مُحَمَّدٍ لقريشٍ ، و أنّهم أقرباؤه و لهذا من حقهم أنْ يتسلّموا القيادة من بعده وفق نفس الاعتبار لأنّ الهاشميّين هم أقرباء مُحَمَّدٍ الرّاحِل ، و على أَبِي بَكْر و صحبه الاعتراف بذلك كما اعترفت الأنصار لهم.

و إذ أصرّ عُمَرُ على أخذ البَيْعَة منه ، فإنّ أبا عبيدة تدخل من أجل أنْ يشرح لعليٍّ بأنّ النّاس قد رضوا و بايعوا ، و عليه أن يحتذي مثال الناس ؛ لكنّ علياً رفض البَيْعَة ، فأضاف أبو عبيدة لِما سبق من كلامه بأنّ أَبَا بَكْر ذو تجربة أوسع و خبرة أعمق بشئون الحياة، و معرفة أكبر بالناس .[١٣]

أَبُو بَكْر الَّذِي كان يتابع بدقة النقاشات ، أدرك بأنّ عليّاً لن يعطي البَيْعَة الآن ، فتدخل في النقاش بلغة دبلوماسيّة معهودة عنده ، فأكّد له بأنّه لو كان يعرف أنّ موقفه ـ أيْ موقف عليٍّ ـ سيكون على هذا النحو لما وافق على تسلّم زمام

---

[١٢] في رواية أخرى أن علياً هو الَّذِي توجه إلى أَبِي بَكْر و اتهمه بأنه غصب حق الهاشميين في مسألة الخلافة (مُرُوج الذّهَبِ : ٢ / ٣٠٢) .

[١٣] كتابُ الرَّدة ، ٧٨ ـ ٧٩ ؛ الإمامة و السياسة : ١ / ١٢ .

الأمور ، لكنّ مجريات الأحداث قد أخذت طريقها ، و لم يعد بالإمكان تغيير اتجاهها . ثُمّ أكد له أنّ الأمرَ متروكٌ له ، و إذا أراد أنْ يتدارس موقفه ، فشأنه بذلك .[١٤]

تسارع الأحداث

و في تطور سريع للأحداث بعد ذلك ، توجه عُمَر بن الخطّابِ إلى منزلِ عليٍّ ، وكان فيه طلحة و الزُّبَيْر و رجالٌ من المهاجرين ؛ فهدّد بإحراق المنزل إذ أصروا على عدم إعطاء البَيْعَة ؛[١٥] و قد رافق عمرَ شخصيّات أنصاريّة بارزة ، مثل : أُسيد بن حُضيَر ، و سلمة من سلامة بن وقش (من بني عبد الأشهل) ، و ثَابِت بن قَيْس بن شماس (خزرجي)، إضافةً إلى خَالِد بن الوَليد ،[١٦] و يقول اليعقوبي إنّ أَبَا بَكْر كَان معهم أيضاً .[١٧]

على أيّ حالٍ لم يجرِ قتالٌ ، و كل ما تورده الرّوايات أنّ الزُّبَيْرَ خرج شاهراً سيفه ، و يبدو أنّه كان راغباً بإظهار تحديه ، لا غير ؛[١٨] و انتهى هذا التهديد العُمريّ دون أيّة عواقبٍ ، و دون أنْ نعرف كيفيّة انتهائه ، و من منع التهديد من التّحوّل إلى فعلِ عنفٍ . وثمّة معلومات تشير إلى أنّ سبب هذه المداهمة ، و تهديدِ عُمَرَ بإحراق المنزل يعودان إلى وجود مجموعة في الدار كانت ترتب عملية مبايعة علي ،[١٩] و لهذا فنحن نعتقد أنّ عمرَ لم يجئ حاملاً الشّرَّ ، و لم يكن ينوي جدياً إحراق الدار ، بل جاء مهدداً ، متوعداً لا غير بطلب من الخليفة الجديد ، من أجل ألا يفكروا بتنصيب خليفة موازٍ ، و بهذا أراد أَبُو بَكْر ألاّ يورط نفسه في صراعٍ داخليٍّ مبكرٍ ، لكنْ بنفس الوقت لم يستطع إلاّ أنّ يحذّر الرافضين من مغبة القيام بتحرك معادٍ ، لاسيّما ما كَان يشكّله عليٌّ من تهديد كامن لاستقرار

---

[١٤] كتابُ الرَّدة ، ٨٠ ؛ شرح نهج : ٢ / ٥ .
[١٥] تاريخ الطبري : ٢ / ٢٣٣ .
[١٦] شرح نهج : ١ / ١٣٢ ، ١٣٤ .
[١٧] الصّدّيق ، ٦٣ .
[١٨] هذا إذ صحت الرواية الَّتِي من المرجح إنها نُسجت لحفظ ماء وجه الهاشميين .
[١٩] شرح نهج : ١ / ١٣٤ ، ٢ / ١٩ .

الحكم ، و إذا صحت هذه الفرضيّة فالراجح أنّ أَبَا بَكْر تدخّل لإنهاء تهديد عُمَرَ ، و بهذا يظهر للهاشميّين ، أنْ أمنهم منوط به ، و ليس بمعاداته .

لم ينتهِ الأمر بعد ، فقد تحرك عَلِيّ بن أبي طالبٍ في محاولة أخيرة لانتزاع السُّلْطَة من يدي أَبِي بَكْر ، و يبدو أنّ هذا التحرك جاء بتحريضٍ من فاطمةَ ـ زوجه ، و بنت مُحَمَّدٍ ـ ؛ فخرج يحمل فاطمةَ على دابة ليلاً في مجالس الأنصار ، و تسألهم هي النَّصرة (العون)، فقالوا لها لو أنّ عليّاً طلب هذا الأمر قبل أنْ تتم البَيْعَة لكانوا أعطوه ، لكنّ الأمر تمّ ؛[٢٠] فلم يثمر هذا التحرك شيئاً ، سيّما أنّ الأنصار لم يجدوا أيّةَ فائدةٍ من تغيير الشخص المتربع على السُّلْطَة ، فبالنسبة إليهم ينتمي عليّ و أَبُو بَكْر لقريشٍ ، و لا معنى إذاً من مناصرة أحد على أحدٍ .

من جهة أخرى تضامن مع عليٍّ في موقفه كل من : عتبة بن أبي لهب ، و خالد بن سعيد ، و المقداد بن عمرو ، و سلمان الفارسيّ ، و أبو ذَرّ الغفاري ، و عمار بن ياسر ، والبراء بن عازب ، و أبيّ بن كعب ، الَّذِين لم يعلنوا البَيْعَة لأَبِي بَكْر ، علاوة طبعاً على العباس بن عبد المطلب ، و الفضل بن العباس ، و الزُّبَيْر بن العوام .[٢١]

بقي عليّ ما بين الشهرين و النصف إلى الستة أشهر رافضاً الاعتراف بأَبِي بَكْر خليفة ؛ و لم يبايع حَتَّى توفيت زوجه فاطمة ، الَّتِي كان وجودها إلى جواره أحد عوامل هيبته بوصفها بنتاً لمُحَمَّدٍ ، فلمّا توّفيت ضعف اعتباره في المدينة ، و شرع الناس يبتعدون عنه ، عندها رأى أنّ من مصلحته الإقرار بالبَيْعَة ،[٢٢] و حينما التقى أَبَا بَكْر ليعطيه البَيْعَة ، قال له مبرراً سبب تأخره : ((ما غضبنا إلاّ لأنّ أُخِّرْنا عن المشورة)) .[٢٣]

---

[٢٠] الإمامة و السياسة : ١ / ١٣ ؛ شرح نهج : ٢ / ٥ .
[٢١] رضا ، ٣٥ ؛ الصّدّيق ، ٦٣ .
[٢٢] تاريخ الطبري : ٢ / ٢٣٦ ؛ الكامل : ٢ / ٣٢٥ ، ٣٣١ ؛ كتابُ الرَّدة ، ٨٠ ؛ مُروُج الذّهَبِ : ٢ / ٣٠٤؛ شرح نهج : ١ / ١٢٢ .٢٣
[٢٣] تاريخ الخلفاء ، ٩٠ .

رجع بعيد (لمعة)

ذات يوم مدح الوجيه القيرواني المستنصر بالله (٥٨٨ ـ ٦٤٠ هـ) بقصيدة جاء فيها :

لو كنتَ في يوم السَّقِيْفَة حاضراً كنتَ المُقَدَّمَ و الإمامَ الأوْرعا

فقال قائل بحضرته : « أخطأت ، قد كان حاضراً العبّاس جدّ أمير المؤمنين ، و لم يكن المُقَّدم إلاّ أَبُو بَكْر » ؛ فأقرّ ذلك المستنصر و خلع على قائل ذلك خلعة ، و أمر بنفي الوجيه ، فخرج إلى مصرَ .[٢٤]

---

[٢٤] تاريخ الخلفاء ، ٥٤٧ .

المَوْقِفُ العامّ و المُهِمّات الأولى

كان جو المدينة مكفهراً ، و منذراً بهبوب ريح عاصِف بعدما صبغ اجتماع السَّقِيْفَة لوحة يثرب السياسِيّة بألوان قاتمة ، قابضة للنّفْس ؛ فلم تكن سُلْطّة الخليفة الجديد قد ترسخت بعد ، و ستحتاج هذه السُّلْطَة لفترة طويلة قبل أنْ تحقّق استقرارها ، و قد انعكس هذا التوتر فيما جرى مع عبد الرّحمن بن عوف الزّهري ـ أحد العشَرة المشهود لهم بالجنّة ـ بُعيد الاجتماع ، و عشيّة البيعة العامة ، حيث أثار ابن عوف جدلاً مع الأنصار ، حاجج فيه على أنهّم مهما كانوا يتمتعون به من مناقب ، و خصائص ، إلاّ أنّهم لا يملكون شخصيّة بمستوى أَبِي بَكْر ، كان النقاش في تَجمّع يضم المهاجرين و الأنصار ؛[1] مما ألبّ الأنصار عليه ، ودفع زيد بن الأرقم (خزرجي) للردّ عليه ، فذكّره بوجوه الأنصار البارزة ، مثل سعد بن عبادة ، و سعد بن معاذ ، و معاذ بن جبل ، و زيد بن ثابت ، و غيرهم ، ثم نصحه بالانصراف وعدم استثارة مشاعر الأنصار ، و إلاّ عاد ذلك عليه و على صاحبه ـ أي أَبِي بَكْر ـ بعواقب وخيمة .[2] و من المؤكد أنّ هذه المشادة نشأت على خلفية تذمر استشعره ابن عوف ، أو سمعه من الجناح الخزرجي ، و هم الأكثر تذمراً ، مما أثار حفيظته و ورطه في جدلٍ أراد أنْ يثبت فيه أفضلية أَبِي بَكْر بالمقارنة مع نخب الأنصار ، و لما علم أَبُو بَكْر بما جرى أبدى اعتراضه على إثارة هذه النَّعَرات ، و خصوصاً أنّ الأنصار قد بايعوا ، و لم يعد الجدل بصدد أفضلية هذه الشخصيّة أو تلك مجدياً ، بل ضاراً .

---

١ كتابُ الرَّدة ، ٧٥ ؛ شرح نهج : ٢ / ٨ .
٢ كتابُ الرَّدة ، ٧٦ ـ ٧٨ .

الخِلافُ بصدد مكان دفن جُثْمَانِ مُحَمَّدٍ

على الرّغم من أنّ أَبَا بَكْر تمكّن من كسب الأسر القرشية المتنفذة ، و حيّد سعدَ بنَ عُبادةَ ، و عليّ بن أبي طالبٍ ، إلاّ أنّه مازال عليه معالجة تداعيات السَّقِيْفَة ، و تجاوز عقبات في وجه ترسيخ سلطته ، و حوائل دون توطيد الاستقرار السياسِيّ في المدينة ، و كان الخلاف بشأن مكان دفن جثمان مُحَمَّدٍ انعكاساً لاختلاف القوى القبليّة ـ السياسِيّة في المدينة و محاولة كل طرف من جانبه تعزيز موقع قبيلته ؛ فطالب المهاجرون بنقل الجُثْمَان إلى مَكَّة و دفنه هناك لأنّها مسقط رأسه ، بينما طالب الأنصار بدفنه في المدينة لأنّها دار هجرته و مقرّ أنصاره ، و أرادت جماعة ثالثة نقله إلى بيت المقدس (القدس) من أجل دفنه هناك حيث يوجد قبر إبراهيم ، و كثير من الأنبياء ؛ و لا تحدد المصادر أسماء الشّخصيّات الَّتِي تقدمت بهذا الاقتراح ، و لا لِمَنْ ينتمون ، و الكيفيّة الفنيّة لنقل جُثْمَان مُحَمَّدٍ ، و من المفترض أنّها قوى لا تنتمي للأنصار و لا للمهاجرين ، و أرادت باقتراحها سحب هذا الامتياز منهما .

أدرك أَبُو بَكْر ببعد رؤيته ما ينطوي عليه هذا الخلاف من مخاطر ، و أنّه يعكس شقاقاً غير منظور في مجتمع المدينة ، حيث يستهدف كلُّ جانبٍ نيل عامل قوة معنويّة ؛ فقرر حسم المسألة لأنّه كان الوحيد القادر على تذكّر النّصوص في المواقف العَصِيْبة ، فقال لهم إنّ ثمّة حديثاً نَبَوِيّاً ينصّ على أنّ الأنبياء يجب أنْ يُدفنوا في مكان موتهم ((ما قبض الله نبيّاً إلاّ في الموضع الَّذِي يحب أنْ يُدفن فيه)) .[٣] إذاً ، لا أحدٌ يملك حقَّ المطالبة بجُثْمَان مُحَمَّدٍ ، إنّ الله وحده مَنْ يختار المكان ، و إرادة الله شاءت أن تكون يثرب مرقدَ مُحَمَّدٍ الأخير ، و ليس لبشرٍ أنْ يدّعي أنّ هذا الامتياز ممنوح له بسبب من أفضليّة خاصة عنده ، أو أنّ الآخرين حُرموا منه بسبب من نَقِيْصة فيهم .

---

[٣] الكامل : ٢ / ٣٣٣ ؛ المِلَل و النّحل ، أبو الفتح الشّهرستاني ، منشورات دار دانية ، دمشق ـ بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٠ م ، ص ٦ ؛ ومقالات الإسلاميين : ج ١ / هامش رقم : ٣٦ ؛ تاريخ الخلفاء ، ٩٣ ـ ٩٤ ، ١٠٩ ؛ القرطبي ، آل عمران : ١٤٤ ؛ شرح النهج : ٣ / ١٩٣ . و يروى الحديث بألفاظ مختلفة في المراجع .

الموقف السياسِيّ العام

تمكن أَبُو بَكْر من التعامل مع مسألة مكان الدفن بعزيمة قوية ، و مرونة دبلوماسيّة ، و قدرة على تذكّر نصوصٍ لم يكن يتذكرها أحدٌ من الصّحابة ؛ فاستطاع بذلك معالجة موقف كان يمكن أنْ يتحول إلى قضية تقسّم المجتمع . كانت مسألة الدفن بسيطة جداً ، و لم تحتج منه إلاّ إلى نصٍّ نَبَوِيّ واحدٍ ، و الآن عليه التصدي للمهمة الأولى و الأساسيّة ، و هي أشد تعقيداً ، و أصعب معالجةً ؛ كانت المسألة مكّونة من مجموعة قضايا ، و هي كيف له أن يرتب الوَضْع الداخليّ في المدينة ، و يكبح أيَّ صراعٍ محتملٍ بين المهاجرين و الأنصار من جهة ، و يجعل سلطته أمراً مقبولاً للجميع .

كانت المعطيات السِياسِيّة أمامه كالتالي :

هناك أزمة حادة مع الهاشميّين ، الَّذِين حاولوا تنصيب عليّ بن أبي طالبٍ خليفةً حسب إحدى الرّوايات ، و يبدو أنّ مسعاهم كان جارياً على قدم و ساق للقيام باجتماع تشاوري جديد، من أجل نقل منصب الخلافة إلى عليٍّ ، و كانت الشخصيّات الَّتِي تتحرك بهذا المسار : المقداد بن الأسود ، سلمان الفارسيّ ، أبو ذَرّ الغفاري ، عبادة بن الصامت ، و حذيفة ، و أبو الهيثم بن الَّتِيهان ،[٤] و إذا كان هذه التحرك صحيحاً ، فلا يمكن أن يصدر عن هذه الشّخصيّات؛ لسبب بسيط هو افتقادها لكلِّ نفوذٍ يحميها من ردة فعل الخليفة ، إلا إذا كانت هذه المجموعة مُلحقة بجماعة هاشميّة ، أو على الأقلّ كانت واجهة للأسرة الهاشميّة ؛ و اليعقوبي يلمح إلى هذا عندما يقول بأنّ أَبَا بَكْر حاول أنْ يقوض تحركاً كان يهدف لتَوْلِيَة عليّ و ذلك عبر استمالة العباس ، فعرض عليه **نصيباً** ، لكنّ العباس رفض ، قائلاً :

---

[٤] شرح نهج : ١ / ١٣٢ .

« إنْ كان هذا الأمر لنا فلا نرضى ببعضه دون بعض » ،[٥] أمّا ما هو النصيب فلا توضحه المصادر .

من جهة ثانية كان ثمّة توجس من أنْ يتحرك الأنصار ، و يطالبوا بإلغاء نتيجة السَّقِيْفَة ؛ و كل تلك المعطيات أقلقت المهاجرين ، و لاسيّما شخصيّات قرشيّة بارزة كانت تكنُّ عداءً شخصيّاً للأنصار ، مثل : سهيل بن عمر ، و الَّذِي كان وقع في الأسر يوم بدر ؛ والحارث بن هشام ، و الَّذِي ينتمي للفرع المخزوميّ ، و قد جُرح يوم بدر ؛ و عكرمة بن أبي جهل ، الَّذِي قُتل أبوه يوم بدر . كما ازدادت حدة التّلاسن بن القرشيّين و الأنصار ، وكان عَمْرو بن العاص طرفاً فيها ، و كذلك الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، الَّذِي أُسر أبوه يوم بدر، و قتل في الأسر على يد الأنصار .[٦]

كلُّ ذلك جعل سماءَ المدينة تتلبّد بغيوم الشرِّ ، المنذرة بأنّ فيضان حرب داخليّة سيُغرق مَعْقِلَ حركةِ الإسْلامِ . كان كلُّ شيءٍ في يثربَ ينبئ بأنّ ساعةَ الانفجارِ قريبةٌ ، وكانت المهمات الَّتِي جابهت أَبَا بَكْرَ عسيرة الحل ، إذ كان يتوجب عليه إيجاد حلٍ للمعضلة التّالِية : « **كيف له أنْ يوّحد هذه المجموعات المتنافرة** » ، و بدا له أنّ نجاحه سيكون منوطاً كليّاً بالصراع مع الآخر ، مع من هو خارج المدينة ، لقد وُضع أَبُو بَكْر أمام معضلات سياسِيّة داخل مدينة يثربَ تماثل تلك الَّتِي كانت فيها عشيّة حملة تَبُوْكَ ؛ و إنْ كانت أشد تعقيداً من كلِّ النواحي .

أمّا الوضعيّة السياسِيّة في الجَزِيْرة العَرَبِيّة فكانت على النحو التالي :

ثلاثة أنبياء في الجَزِيْرة العَرَبِيّة كما تقول الروايات (مُسَيْلِمة ، طُلَيْحَة ، العَنْسيّ) ، و الأصح نبيّ واحد (مُسَيْلِمة) ،[٧] مقابل حركة دينيّة ـ الإسْلام ـ مات نبيها ، فانقطعت صلتها بالسماء . و من جهة أخرى كانت القبائل العربيّة الَّتِي

---

[٥] الصّدّيق ، ٦٣ .
[٦] شرح نهج : ٢ / ٩ ، ١٥ .
[٧] سنعالج هذه الحركات ، و نبين الأسباب الَّتِي حدت بنا لتبني هذا الرأي .

دانت لِمُحَمّدٍ قد رأت أنّ علاقتها كانت مع مُحمّدٍ القائد السياسِيّ ، و الزعيم القبليّ ، و حسب ، لا مع محمّدٍ النّبيّ ، مؤسِّس الدين ، و حركته الناهضة ككلٍّ ؛ و لهذا كانت هذه القبائل تعتبر أنّ ولاءها كان لِلزعيم الَّذِي مات ، فانتهى ولاؤها بغيابه .

أما ردّة فعل مَكّة ، و الَّتِي لم يتجذر فيها الإسْلام كدين ، فقد تحرك أغلب أهلها نحو رفض الإسْلام ديناً ، و الانقلاب على السُّلْطَة الإسْلاميّة ، حتى إنّ عَتّاب بن أُسيد ـ والي مَكّة، و كان مُحَمَّدٌ قد عينه عليها ـ خشي على نفسه ، فتوارى عن الأنظار .

لكنّ نخبة قريشٍ كانت قد أدركت و منذ زمن أنّ مصالحها الاقتصاديّة تشابكت بشدة مع الحركة الإسْلاميّة ، و وعت الآن أهميّة الإسْلام بالنسبة لها ، و لنفوذها ، و رأت كيف أنّ الحركة الإسْلاميّة تخضع تدريجياً لها ، كما تبين لها أنّ الحركة الإسْلاميّة ليست حركة مقاطعة جذريّة للحالة الاجتماسيّة قبل ـ إسْلامية ، بل على العكس كانت هذه الحركة تطويراً أصيلاً لهذه الظروف ؛ لأنّها استوعبتها وفق إيديولوجية توحيدية ، أي إنّها لم تسعَ لقطع حركة المجتمع و لم تسبب انعطافاً عكسيّاً في مسار الجَزِيْرة العَرَبِيّة بل كانت دافعة أماميّة في مسارها التاريخيّ . و إذا اعتبرنا الحركةَ الإسْلاميّةَ حركةَ مقاطعةٍ للماضي ؛ فإنّ هذا كان على المستوى النظراني البحت ، فالقطيعة كانت سيكولوجيّة عندما أعلنت رفض الوثنيّة لصالح التوحيد الدينيّ ، فالمسار التّطوّري في الجَزِيْرة العَرَبِيّة يكون من الوثنيّة نحو التوحيد ، أما الانحطاط الاجتماعيّ فيتجلى في نمو النزعة الوثنيّة ، و حتّى في إطار الإيديولوجيا التوحيديّة ـ الإسْلام ـ كما سيحدث لاحقاً ، و قد واجهت الحركة الوهابيّة انحطاط بيئتها عبر المواجهة مع الوثنيّة الَّتِي نمت بتربة الإسْلامِ .

دون أخذ هذه الاعتبارات لا يمكن تفسير بقاء قريشٍ على الإسْلام بُعيد وفاة مُحَمَّدٍ ، وعلى الرّغم من أنّ إقرارها بالإسْلام كان شكلياً و حسب كما تبين السّيّرة اللاّحقة لنخبها في مراحل التاريخ الإسْلاميّ الأولى ، و إثباتاً لما يراه البعض من أنّ ساداتِ قريشٍ كانوا زنادقة يورد المعريّ في رسالته شعراً لقرشيّ ، و تُروى لشدّاد بن الأسود اللَّيثي :

ألا مَن مُبلغ الرّحمنِ عنّي بأنّي تارِكٌ شَهرَ الصّيام ؟
إذا ما الرأسُ زايلَ مَنكِبَيْه، فقد شَبعَ الأنيسُ من الطّعام
أيوعدنُا ابنُ كَبْشَةَ أن سنحيا؟ وكيفَ حياةُ أصداءٍ و هام؟
أتترُكُ أن تَرُدّ المَوْتَ عَنّي وتُحيْيَني إذا بَلِيَتْ عظامي؟[٨]

لقد فهمت نخبة قريش ضرورة الحفاظ على سيرورة مركزة الجزيرة العربيّة ، و الَّتِي شرعت بها الحركة الإسْلاميّة على مستوى الحِجَاز ، فقدّرت هذه النخبة أنّ تقدم مَكَّةَ ، وارتقاء قريشٍ مشروطان بالمحافظة على العلاقة بين يثرب و مَكَّة ، و استمرارية دعم الحركة الإسْلاميّة ، ثم إن نخبة قريش حدست أنّ أيَّ تخلٍ عن الإسْلام يمكن أن يفقدها مواقعها الاقتصاديّة النافذة في اقتصاد الجَزِيْرة العَرَبِيّة التّجاريّ ، بسبب الصّراعات الَّتِي ستسيطر على الجَزِيْرة العَرَبِيّة مجدداً ، و لم يكن القرشيون قد برؤا بعد من تضرر حركة تجارتهم في سنوات الصّراع مع مُحَمَّدٍ .

إنّ إدراك نخبة قريشٍ لذلك من جهة ، و طمعها في تعزيز مواقعها الاقتصاديّة و السيا ـ دينيّة قد حدا بها للتحول من أشد أعداء مُحَمَّدٍ و دعوته ، إلى أنصار له عندما تبين لها أنَّ شرط تطورها ، هو شرط مركزة الجَزِيْرة العَرَبِيّة . و لهذا تحركت هذه الأرستقراطيّة عبر أحد ممثليها ـ سُهيل بن عمرو ـ ، الَّذِي قام خطيباً ، فحذر القرشيّين من مغبة التّمرد ، وهدد بضرب عنق كل من يثور ؛[٩] لكنّ تهديد ممثل النخبة القرشيّة كان مشفوعاً بشرطٍ على نفسه ، بقوله : ((أقرُّوا أميركم ، و أنا ضامنٍ إنْ لم يتمّ الأمر أنْ أردها عليكم)) ؛[١٠] فخمدت أوار الفتنة الَّتِي كادت أن تشتعل فيها انتفاضةً على الإسْلام ، و ظهر عتَّاب بن أسيد مرة أخرى

منذ الآن أصبحت العلاقة بين مَكَّة و الحركة الإسْلاميّة علاقة بين طرفيْن يشترطان بعضهما بعضاً ، فمَكَّة لم تعد تستطيع التّطورّ إلا في إطار المنظومة

---

[٨] رسالة الغفران ، ٢٨٨ ، و ابن كَبْشَةَ لقب أطلقه القرشيّون على مُحَمَّد بعد إعلانه الدعوة .
[٩] ابن هشام : ٢ / ٦٦٦ ؛ ديوان عُبيد الله بن قيس الرقيّات ، تحقيق : د. محمّد يوسف نجم ، دار صادر ، بيروت ، د. ت. ، هوامش : القصيدة رقم (٣٩) ؛ الكامل : ٢ / ٣٢٤ ؛ كتابُ الرَّدة ، ٥٨ .
[١٠] البَيان و التَبْيين ، ١٩٠ .

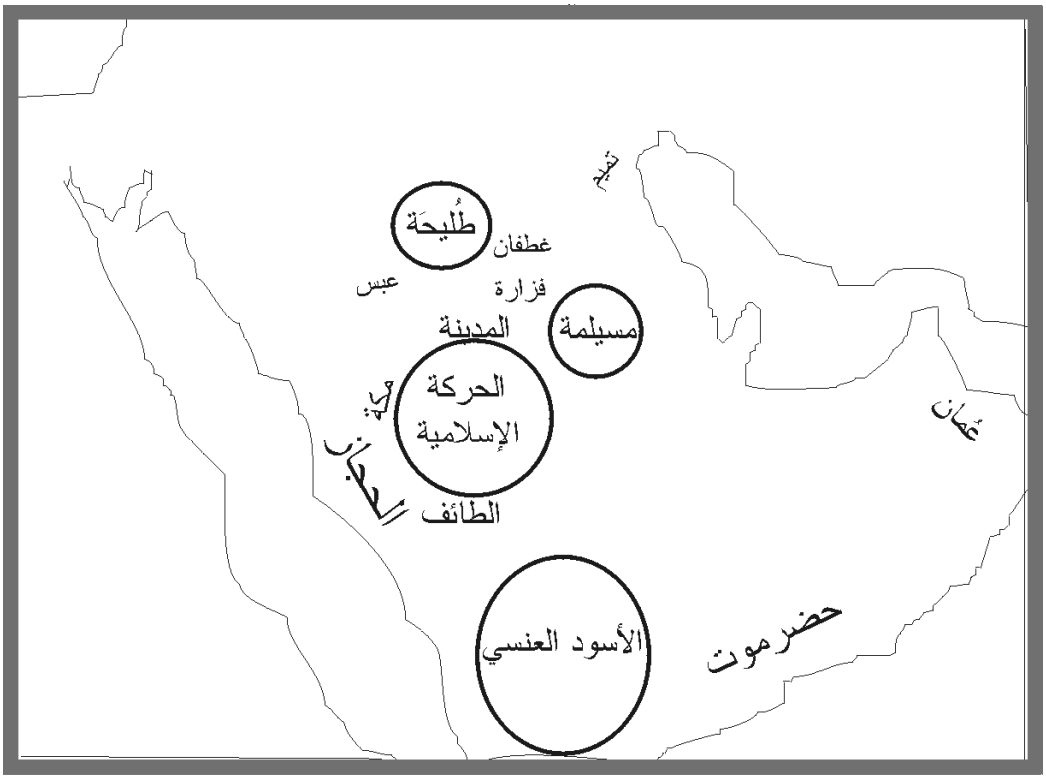

القوى القبليّة ــ الدينيّة عشيّة اجتماعِ السَّقِيفَة

[Blank Page]

السياسِيّة للإِسْلام و دولته المرتقبة ، كما أن دولة الإِسْلام كانت تحتاج لقريش لسببيْن : أولاهما ، إنّ النفوذ الإِسْلاميّ تأسَّس على وراثة مَكَّة ، كمنبع للمقدّس ؛ و ثانيهما ، كان ثَمّة حاجة ملّحة لوجود عصبيّة قائدة للدولة ، و في ظرف الحِجَاز ، كان عصبيّة قريشٍ هي المرشحة الوحيدة للعب هذا الدور . و ترشيحها لم يكن منحصراً في الكِفايةِ القرشيّة و حسَب، بل يتعداه إلى عامل الجغرافيا ، والقوة الاقتصاديّة ، و النخبوية الدينيّة ، في حين أنّ الأنصار كانوا فاقدي عناصر القوة الموازية لعناصر قريشٍ . فالأنصار أُشتهروا بأنهّم أهلُ حربٍ ، بينا لم يشتهر القرشيون بذلك ، بل بالحكمة و الدهاء السياسِيّ الناتجان عن ظروف مَكَّة الجغراسية؛ و لهذا صار القرشيون الأداة الرئيسة للحركة الإِسْلاميّة بعد أن كانوا طوال سنوات طليعة أعداء الإِسْلام ، هذا لأنهم هم أصحاب المشروع ؛ فجذور الإِسْلام نمت في تربة مَكَّة ، من رحم هذه المدينة أبصر الإِسْلامُ النورَ ، و كان طبيعياً أن ترعى مَكَّة الحركة الإِسْلاميّة الفتيّة حتى تشب عن الطوق . و أهمية العصبيّة القرشيّة للدولة الإِسْلاميّة تعكسها القصة المصنوعة التّالية : إذ يُحكى أنّ عُمرَ بن الخطّاب مرّ بحلْقة ، و فيها : عثمان و عليّ و طلحة و الزبير و عبد الرحمن و سعد ؛ فلما دنا منهم سكتوا ، فقال : ((فيمَ أنتم ؟)) فلم يجيبوه . فقال لهم أظن قلتم : ((ما أخوفَنا على قريشٍ من العرب . و أخلقهم ألاّ يقرُّوا بهذا الأمر !)) ، قالوا : ((صدقت)) ، قال : ((فلا تخافوا هذه المنزلة ، أنا و الله منكم على العرب أخوفُ منّي من العرب عليكم ؛ و الله لو تدخلون معاشرَ قريشٍ حُجْراً [١١] لدخلت العرب في آثاركم ؛ فاتقوا الله فيهم)) .[١٢]

لا شكّ إنّ انتقال القيادة إلى قرشيٍّ ـ أبي بَكْر ، لعب دوراً رئيساً في انصياع القرشيّين لتهديد ابن أُسيد ، و محافظتهم على ولائهم للإِسْلام ، و هذا مما يزيد من أهميّة نتائج الاجتماع . إذ لو انتقلت الخلافة إلى الأنصار لما تمكنت نخبة قريشٍ من السّيطرة على تمردّ القرشيّين ، هذا إذا كانت قد تحركت في هذه الحالة ؛ و كانت النتيجة الحتميّة في هذه الحالة تقوّض الحركة الناهضة .

---

[١١] جُحْراً ، الكامل .

[١٢] الطبري : ٢ / ٢٦٣ ؛ الكامل : ٢ / ٣٥٣ ؛ و تقدير الكلام : ((لدخلت قبائل العرب في آثاركم)) .

إلى جنوب مَكَّة حيث تقع الطائف ، لم تعلن هذه الحاضرة التّمرّد ، و لم يكلّف بقاءها على ولائها للإِسْلام إلا خطبةً من عثمانَ بنِ أبي العاص ـ ممثل مُحَمَّدٍ فيها ،[١٣] أي إنّ الطائف لم تتجه أبداً لمواجهة يثرب الإِسْلاميّة ، و ذلك وفق مجموعة اعتبارات ، و هي بالتحليل الأخير تصاقب بواعث مَكَّة ، حيث إنّ المجتمع الثّقفي كان يعيش بدوره مخاض تجاوز المرحلة القبليّة ، و كان يشتكي من تفتت النّظام الاجتماعيّ في الجَزِيْرة العَرَبِيّة ويتوجس دائماً من القبائل البدوّية . و بذلك تكون مَكَّة ، و الطائف قد قدمت بالحفاظ على علاقتها بالحركة الإِسْلاميّة فائدة كبيرة للحركة ، و ذلك عندما حذت حذوها القبائل المقيمة بين مَكَّة و المدينة الطائف ، و قررت البقاء في إطار **السلم الإِسْلاميّ** ، فقد ثبتت مُزَيْنةُ ، و غِفَار، و جُهَينة ، و بَلِيّ ، و أشجع ، و أسلم ، و خُزاعة .[١٤]

كان أَبُو بَكْر يدرك إدراكاً عالياً الصّورة العامة في الجَزِيْرة العَرَبِيّة ، و يحسب حساب انفجار الوَضْع الداخليّ في المدينة ؛ و من جهة أخرى كان يقدِّر أنّ بقاءَ مَكَّةَ و الطائفَ على علاقتهما بالإِسْلام سيرتبط بالفوائد الَّتِي ستجنيهما المدينتان من هذه العلاقة ، و أيّة علاقة لا تفيد مَكَّة أو الطائف سينتج عنها انفصالهما عن المشروع الكبير ، مما يضعضع الحركة الإِسْلاميّة .

الأمر الأوّل (ربيع الأول ١١ هـ / حزيران (يونيو) ٦٣٢ م)

فرضت هذه الوضعيّة على أَبِي بَكْر ابتكار الحلول و بسرعة ، و كانت عنده تجربة سابقة تساعده على استنباط الحلول ، ألا و هي تجربة حملة تَبُوْك ، و هي ليست تجربة مُحَمّدٍ و حسب ، بل كانت مُلخّصاً لتجارب الحركة الإِسْلاميّة ، فعلى مدار عشْر سنوات تقريباً صقلت المعارك الَّتِي خاضتها الحركة لإِسْلاميّة نخبتها ، و سقت شخصيّاتها ، و منحتها مواهب سياسِيّة فريدة ، و الَّتِي ستستثمر جيداً

---

[١٣] تاريخ الإِسْلام : ١ / ٢٨٣ .
[١٤] الصّدّيق ، ٧٢ .

أيام أَبِي بَكْر ؛ لقد كانت ظروف المدينة الداخليّة ترغمه على شنّ الحروب الخارجيّة كما أرغمت من قبل مُحَمَّداً .

تأتّى على أَبِي بَكْر استثمار الممكنات المتاحة لأقصى حد ، و إذا قيّمنا الظروف القائمة وقتها ، فإن الحظّ ـ بتعبير مكيافللي ـ كان يعلي من شأنه ؛ لأنه وفّر له و لمدينته المضطربة الأعداء ، الَّذِين سيسمحون له برص جبهته الداخليّة . و في البدء كان على أَبِي بَكْر أن يهيئ الظروف في الخارج من أجل دفع القبائل المحيطة به على خوض الحَرْب معه ؛ ليحاربهم تحت شعار نشر الإِسْلام ، و إعلاء كلمته . كان أَبُو بَكْر النّموذجَ المثالي للأمير المكيافلليّ ، الَّذِي إذا لم يكن الحظّ قد وّفر له الأعداء الكافلين بتوحيد مركزه ، و تعزيز نفوذه؛ فإنّه كان قادراً بكل ما أُوتي من مكرٍ على خلق عداوات له .[١٥] إنّ كلَّ أميرٍ ناجحٍ قادرٌ على خلق أعداءٍ له ، و لن يتأخر أَبُو بَكْرٍ ـ الأمير الناجح ـ عن خلقهم بنجاح ؛ و لهذا توّجه إلى المسجد ، و هناك تشاور مع الناس بصدد تكليف أسامة بمتابعة المهمة الَّتِي كلّفه إياها مُحَمَّدٌ عشيّة رحيله ، فأقترح عُمَرُ بن الخطّاب عدم إنفاذ جيش أسامة ،[١٦] و على ما يبدو من أجل المحافظة على القوة العسكريّة اللاّزمة لمواجهة احتمالات هجمات البدو على المدينة ، الَّذِين قد يستغلون فرصة التوتر السياسِيّ في الداخل للقيام بعمليات نهب ، أو لقلقه من قيام تحرك داخليّ ـ أنصاريّاً كان أو هاشميّاً ، و لا توجد نصوص بصدد النّقاش الَّذِي دار ، و ما هي الشخصيّات الأخرى الَّتِي تدخلت في النقاش ، لكنّ الصوت الوحيد المعارض كان صوت عمرَ.

كان الخيار الوحيد بالنسبة لأَبِي بَكْر هو المضي قدماً في تنفيذ حَمْلَة أسامةَ ، و قد تحدّد هذا الإلزام بوصفه زعيماً جديداً ، استلم السُّلْطَة ، و في مدينته أجنحة ترغب بأن يكون الخليفة من أفرادها ، إن كانت من الأنصار أو من المهاجرين ، و وجوده في أرض ليست وطنه ، و لهذا أصدر أوامره لأسامةَ بالتوجه لتنفيذ

---

[١٥] الأمير ، نيقولا مكيافللي ، ت : خيري حمَّاد ، منشورات دار الآفاق ، بيروت ، ط ٢٢ ، ١٩٩٩ م ، ص ١٧٠ .

[١٦] كتابُ الرَّدة ، ٨٤ .

مهمته الَّتِي كلّفه إياها مُحَمَّدٌ عشيّة رحيله ، و عندها عاد عمرُ و اقترح تأخير المهمة لمدة عام، إلاّ أنّ أَبَا بَكْر بقي على رأيه و لقي تأييداً من النّاس .[١٧]

وجه أَبُو بَكْر الجيش حسب تعليمات مُحَمَّدٍ الَّتِي أصدرها عشية رحيله ؛ فكانت مهمة أسامة تنحصر بالتوجه صوب قبائل قُضاعة ، و هي قبيلة تسكن قريباً من تخوم فلسطين .

قُبيل الانطلاق ، و عندما كان أسامة بالجرف ، أرسل عمرَ إلى أَبِي بَكْر ، مقترحاً عليه البقاء حمايةً للمدينة ، و باعتقادنا فإنّ الفكرة جاءت من عمرَ الَّذِي نافح عن مسألة بقاء جيش أسامة ، و قد طلب مقاتلي الأنصار من عمرَ أيضاً نقل رغبتهم إلى الخليفة بتكليف من هو أسنّ من أسامة لقيادة الجيش في حال إصراره على المضي قدماً ؛ بيد أنّ أَبَا بَكْر رفض كلى الأمرين ، و خرج بنفسه ليشيّع الجيش ، و طلب من عمرَ البقاء معه .[١٨]

هنا علينا أن نتوقف عند طلب مقاتلي الأنصار قائداً أسنّ من أسامة ، حيث يعطي طلبهم الانطباع بأنّهم كانوا يشكّلون أغلبيّة قوات الحَمْلَة ، و نحن نعلم أنّ المقاتلين كانوا قد أخذوا أَهْبَتَهم تقريباً عشية وفاة مُحَمَّدٍ ، و أنّ مُحَمَّداً حثّهم على الإسراع و المضي بالحَمْلَة ، فهل كان مُحَمَّدٌ يرغب بتوجيه هذا الجيش من أجل إتاحة الفرصة للمهاجرين بتولي الخِلافَة بعد وفاته ، حيث كان يستشعر أنّ منيته قد دنت منه ، فأراد أنْ يوفّر أفضل فرصة للمهاجرين بالتخلص من مقاتلي الأنصار ؛ و عندما تبوأ أَبُو بَكْر الخلافة ، فكّر أنّه من المناسب أنْ يمضي هذه المهمة ، و لكن من أجل هدفٍ آخر ، و هو صرف الأنصار عن النّقاش بصدد مسألة الخلافة ، و ذلك بتقديم مادة بديلة لهم ، و ما يرجح ذلك أنّ المصادر تقول بأنّ أسامة نفذ أوامر أَبِي بَكْر ، و هي نفس أوامر مُحَمَّدٍ ، و إنّ مهمته استغرقت قرابة أربعين يوماً وبعض الروايات تقول سبعين يوماً ،[١٩] و لا يوجد في المراجع التاريخيّة تحديدٌ لعدد قوات هذه الحَمْلَة ، و لا قوة جيش العدو ، و لا من هو العدو ، و لا خسائره ؛ كما ليس واضحاً ما هي الغنائم الَّتِي حصل عليها جيش أسامة .

---

[١٧] كتابُ الرِّدة ، ٨٥ .

[١٨] الكامل : ٢ / ٣٣٤ ـ ٣٣٥ .

[١٩] تاريخ الطبري : ٢ / ٢٤٥ ـ ٢٤٦ ؛ البداية و النهاية ، إسماعيل بن عمر بن كثير ، CD .

إضافةً إلى كلِّ ذلك ، فإنّه لم يلحق أيُّ أذىً بأحدٍ من عناصرها ؛[٢٠] أي إنّ كلَّ المؤشرات تتجه للقول بأنّ الحملة كانت بالنسبة لِمُحَمَّدٍ تهدف للتخلص من مقاتلي الأنصار لأنّها لم تتوجه إلى أحدٍ بعينه ، و بالنسبة لأَبِي بَكْر كانت مهمة استعراضيّة ، و لتعزيز موقفه الداخليّ ، و ضبط النّقاشات العقيمة و الضارّة عن أحقيّة هذا الشخص أو ذاك . و ستخدم هذه المهمة ـ و ربما دون قصدٍ ـ استراتيجيّة أَبِي بَكْر فيما بعد .

---

[٢٠] ابن سعد : ٢ / ١٩١

[Blank Page]

أَبُو بَكْرٍ خليفةً

((لقد قام أَبو بَكْر يوم الرِّدَّة مقام نَبِيّ من الأَنبِيَاء))

تاريخ الخلفاء للسيوطي

لم تخدم حَمْلَة أُسَامةَ الغامضة قضية تهدئة الأجواء الداخليّة في المدينة و حسب ، بل خدمت هدفاً إعلاميّاً ، ، عندما صارت بمثابة دعاية مسلحة أظهرت فيها قيادة المدينة قوتها ، و عزمها على منازلة العدو ، و من الصعب التقدير هل كان هذا الهدف نصب عينيْ الخَلِيْفَة أيضاً أم لا ، لكنّه ردع لاحقاً قبائل عدة كانت تميل للحفاظ على كياناتها مستقلة عن سُلْطة المدينة ، فبعد أن تُنوقلت أخبار الحَمْلَة ، آثرت القبائل الواقعة في محيط الحواضر الثلاث (مكّة ، يثرب ، الطائف) الانتظار ، و رأت فيها مؤشراً على جبروت الكيان الإِسْلاميّ الناهض ، و قررت ألاّ تعلن موقفها إلا على ضوء نتائج الأحداث ، و قد دفع رجوع قوات الحَمْلَة دون خسائر هذه القبائلَ إلى البقاء في إطار التبعية للإِسْلام ،[١] إذ ساورها القلق من مَعْرَكَة لم يُعرف مكانها و زمانها ، و لا مع من جرت ، فتقلّص عدد القبائل البدويّة المحتمل ، الَّذِي يمكن أن يرفض سُلْطة يثرب .

لم يحصد الخَلِيْفَةُ نتائج قراره بتوجيه حَمْلَة أُسَامة فقط ، بل حصد ما كان زرعه مُحَمَّدٌ عندما جاءته الأخبار تحمل نبأ اغتيال العَنْسيّ ، و تفكك حركته جراء مقتله ؛ فتعزز موقع أَبِي بَكْر في المدينة ، و ارتفعت أسهمه فيها .

---

[١] الكامل : ٢ / ٣٣٦ ؛ البداية و النّهايَة .

تحرك عَبْهلة [٢] بن كعب العَنْسيّ في اليمن

في السنة العاشرة للهجرة (٦٣٢ م) ، مات باذام ، و هو فارسيّ كان يدير شئون اليمن ، و كان قد تحالف مع مُحَمَّدٍ ، و تقول الرِّوايَات بأنّه أعلن إِسْلامه ، و إنّ علاقته بمُحَمَّدٍ كانت علاقة تبعية دينيّة ، فقرر مُحَمَّدٌ تعيين عمالٍ في مقاطعات اليمن بعد وفاة تابِعه من أجل المشاركة بشكل ما في إدارتها ، و من أجل نشر الإِسْلام أيضاً ، و قد توزع العمال على الشَّكْلِ التّالِي :

- شَهر بن باذام على صنعاء .
- عامر بن شهر الهَمْداني على هَمْدان .
- عبد اللَّه بن قيس أبي موسى الأشعري على مأرب .
- خالد بن سعيد بن العاص على منطقة ما بين نجران و زَبِيد .
- الطَّاهر بن أبي هالة على عكّ و الأشعريّين .
- يعلَى بن أميّة على الجند .
- عمرو بن حَزْم على نجران .
- زياد بن لَبِيد البَيّاضيّ (الأنصاري) على حَضْرمَوْت.
- عُكَّاشة بن ثور بن أصغر الغَوْثيّ على السَّكاسِك و السَّكون ـ من قبائل كندة ـ .
- عبد اللَّه (أو المهاجر) على مُعَاوِيَة بن كندة ، و قد مات مُحَمَّدٌ قبل أن يتوجه إلى عمله بسبب مرضٍ كان به ، فكان زياد بن لَبِيد ينوب عنه في عمله إلى أن وجهه أَبُو بَكْر إلى عمله فيما بعد .
- مُعَاذ بن جبل ؛ و كان منوطاً به مهمة الإرشاد الديني لأهل اليمن و حَضْرمَوْتَ .[٣]

لا يجب قبول هذه المعلومات دون نقدٍ شديدٍ ، و لكن لا يمكننا أَن نرفضها على أنّها خالية من أية قيمة ، و ربما لم يصبح الحاكم الفارسيّ مسلماً و لم يُكلف من قِبل مُحَمَّدٍ بإدارة اليمن باسمه . غير أنّه لا اعتراض جدي على القول بأن مُحَمَّداً

---

[٢] عَيْهلة ـ الكامل .

[٣] تاريخ الطبري : ٢ / ٢٤٧ ؛ الكامل : ٢ / ٣٣٦ ـ ٣٣٧ ؛ و ثمة اختلافات في فُتُوح البُلدَان ، ٨٠ .

عقد اتفاقاً مع باذام ، و اعترف به كحاكم لليمن ، و هكذا يدخل باذام في نظام السلم الإِسْلاميّ.[٤] و قراءة تفاصيل الأحداث اللاّحقة تكشف عن أنّ الوَضْع في اليمنِ كان غير مستقر ، و منبع عدم الاستقرار وجود جالية فارسيّة حاكمة ، و قبائل عَرَبيّة تتشوق للانعتاق من ربقة السّيطرة الفارسيّة ، و يبدو أنّ الاتجاه للتخلص من الهيمنة الفارسيّة ترافق مع ضعفٍ بنيويٍّ في فارسَ ، و ستثبت الأحداث لاحقاً مدى الانحطاط الَّذِي بلغته دولة الفرس عندما انهارت بسرعة تحت وطأة ضربات المقاتلين المسلمين .

كان هذا يعني لحكام اليمن الفرس أنّ وصول مساعدات عسكريّة أصبح أمراً غير ممكنٍ ، و كان حَرِيَاً بهم البحث عن تحالفات توفّر لهم الدعم المطلوب ؛ فرأى باذام أنْ يعقد تحالفاً مع مُحَمَّدٍ يعود فيه بنتائجَ إيجابيّة على الجانَبيْن ، على أنّ الميزان كان راجحاً لكفة مُحَمَّدٍ بحكم أنّ العلاقة سمحت له بالتبشير بالإِسْلام في منطقة اليمنِ . و لما مات باذام انبعث أملٌ في نفوس القبائل العَرَبيّة في اليمنِ بقربِ الخلاص من الاستبداد الفارسيّ ، فخرجت حركة يقودها كاهن ، و الَّذِي اعتبرته التواريخ الإِسْلاميّة مُدّعِي نبُوّة ؛ كان اسم الكاهن الأسود العَنْسيّ .

ينتمي الأسود إلى عنس ، و هي بطن من مَذْحج ، و كان يُلقب **ذا الخمار** ؛ لأنّه كان متخمّراً بشكلٍ دائم ، و قيل إنّه كان يلقب **بذي الحمار** ، لأنّه كان له حمار .[٥] و قد شرع العَنْسيّ بنشاطه قُبيل وفاة مُحَمَّدٍ ، و سمّى نفسه **رحمان اليمن** ، و يبدو أنّ للتَّسْمِيَة جذوراً في التقاليد الدينيّة ، الَّتِي كانت سائدة في الجَزِيْرة العَرَبِيّة ، فمُسَيْلِمة بدوره سمّى نفسه **رحمان الْيَمَامَةِ** .

---

[٤] وات ، ١٨٤ ـ ١٨٥ .

[٥] فُتُوح البُلدَان ، ١١٣ ؛ و جاء في تاريخ بروكلمان (ص ٨٩) إنّ **ذا الحمار** أي راكب الحمار ، و يضيف المؤلف : « منذ القدم و الحمار يُعتبر في الشرق ، عموماً ، الدابة الَّتِي يمتطيها المخلّص المنتظر (زكريا : ٩ / ٩) ، و هذا هو السبب الَّذِي من أجله دخل يسوع القدسَ و هو راكب على أتان ، و الَّذِي من أجله سُمّيَ مؤسِّس إحدى الفرق المتعصبة الناشئة في شمالي إفريقيا في القرن العاشر **ذا الحمار** . بل إنّ أحد الَّذِين ثاروا في مطلع هذا القرن على سلطان مراكش اشتهر بلقب **بو حمارة** » . و تقول الروايات الإسلامية بأنّ ثمّة للمسيح الدجال حماراً (البَيان و التَبيين ، ١٨٤) . و تحكي إحدى الروايات أن الحلاجّ رُئي بعد مقتله و هو راكب حماراً (ديوان الحلاج و يليه أخباره وَ طوَاسينه ، جمعه و قدم له د. سَعدي ضنّاوي ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٨ ، ص ١٨) .

نجح هذا الكاهن في ضم مذحج إليه ، فتمكّن من تحشيد سبعمئة مقاتل ، ثم توجه صوب نجرانَ . و بعد ذلك تابع العَنْسيّ مسيره ، فتوجه إلى صنعاء ، و هناك اصطدم مع شَهر بن باذام ، فحقق نصراً سهلاً على قوات الزعيم الفارسيّ ، و تمكن من قتله . و إذ دخل العَنْسيّ صنعاءَ منتصراً خرج مُعَاذ هارباً ، و لاذ بمأرب عند أبي موسى .[٦]

سَرْعَان ما بسط العَنْسيّ سيطرته على منطقة مُثَلّثة ، رءوس زواياها تتاخم : صَهِيْد،[٧] و الطائف ، و عدن ، و تتحدث المصادر عن أنّه نجح بسرعة مدهشة في ترسيخ هيمنته عليها، و رغماً عن قلّة أتباعه ، و الَّتِي تحددهم المصادر بسبعمئة مقاتل ؛ و يرجع نجاحه السريع و الملفت للنظر إلى أنّه : أولاً ، كونه تحركاً عَرَبِيّاً للتخلّص من هيمنة الأبناء ؛ ثانياً ، لعبت الخصومة التّقْلِيديّة بين اليمنِ والحِجَاز دوراً في هذا التحرك بسبب من تحالف مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الحِجَازيّ مع الأبناء .

بعد هذا الانتصار الساحق له صار عمَرو بن معد يكرب [٨] خليفته في مذحج ، و تقلّد قيس بن عبد يغوث قيادة الجند ، و كان فَيْروز و دَاذَوَيْه يشرفان على شئون الأبناء .[٩] لكن لم تمضِ سوى أسابيع حَتَّى برزت في قيادته انشقاقات مثل كلَّ الحركات الَّتِي تصل إلى السُّلْطَة نتيجة تحالفات تكتيكيّة بين زعماء يعتمدون على أجنحة أو قبائل مختلفة الاتجاه ، و الهدف ، و لا تجمع بينها أيّة روابط استراتيجية ، و لا تنضوي تحت لواء عقيدة دينيّة تؤطر أهدافهم ؛ فبرزت على السطح خلافات بين قيس ، و فَيْروز ، و دَاذَوَيْه من جهة ، و بينه من جهة أخرى . و نحن نلاحظ أنّ فَيْروز ، و دَاذَوَيْه فارسيان صارا من أركان قيادته ، على الرَّغْمِ مِنْ أنّ تحركه اتسم بطابعٍ قوميٍّ ، و لهذا فإنّنا نرجّح هنا أن العَنْسيّ حاول مهادنة الأبناء عبر منح شخصيتيْن منهما موقعاً قيادياً ، و يبدو أنّه لم يتمكن من صهرهم في حركته ، الَّتِي كانت تفتقد عوامل الصهر هذه ، و كانت النتيجة الحتمية لهذا التحالف أنْ فشت بينهم حرب خفيّة ، و بدأ كلُّ جناحٍ يتربّص بالآخر .

---

[٦] الكامل : ٢ / ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، فُتُوح البُلدَان ١١٣ .

[٧] **صَهِيْد** ، مفازة بين حَضْرمَوْتَ و اليمنِ ، **المَفازَة** : الصحراء الواسعة الَّتِي لا ماء فيها .

[٨] كرب ، الكامل .

[٩] تاريخ الطبري : ٢ / ٢٤٨ ؛ الكامل : ٢ / ٣٣٧ ؛ البداية و النّهايَة ؛ الصّدّيق ، ٧٨ .

في أثناء ذلك كان القلق يسيطر على المسلمين بحَضْرمَوْتَ خوفاً من تقدم العَنْسيّ ، أو من انفجارِ تمردٍ داخليٍّ ؛ لكنّ مُعَاذاً تزوّج امرأة يُقال لها رَمْلة تنتمي إلى بني بكرة ـ فرع من السَّكون ـ ، كان مُعَاذ معجباً بها ؛ فأكسبهم تعاطف السكان .[١٠] هذا ما تقوله المصادر ، و لا نتبين بدقة الأسباب الداعية للتحالف مع المسلمين ، و لا يمكن قبول زواج مُعَاذ سبباً للتحالف ، بل من المفترض أنه رسّخ علاقةً تحالفيّةً ، لا أنشأها .

المُؤَامَرَة

كان من الطبيعي أنْ يعتبر مُحَمَّدٌ العَنْسيَّ عدواً شخصيّاً له ، فهو قتل ابن حليفه ـ باذام ـ ، و هذا ما قد يفوّت على الإسْلام فرصة الانتشار في اليمنِ ، لأنّ العَنْسيَّ لن يسمح للمسلمين بالقيام بنشاطات تبشيريّة فيها ، و لم يكن أمام مُحَمَّدٍ من خيارٍ إلاّ الصّدام معه ، بيد أنّه كان يفتقد للقوة العسكريّة الكافية الَّتِي تسمح له بالتدخل في الصّراع الدائر في اليمنِ بين القبائل العَرَبيّة بقيادة العَنْسيّ ، و بين الأبناء ؛ و لهذا طلب من المسلمين في اليمنِ النهوض والتّصدي للعَنْسيِّ ، و حثّهم على كسب الأنصار بين الأهالي ؛ و تكاتب مع أهل نجران بهذا الشأن ؛ فتعهّدوا له بالتّعاون مع المسلمين للقضاء عليه . كان مُحَمَّدٌ يهدف عبر اتصالاته تحريك الوَضْعية باليمنِ بما يخدم هدف القضاء على العَنْسيّ اعتماداً على القوى المحليّة فيها ، و ربما كان يفكر بإرسال جيش إليه ، لكنّه كان يعرف أنّ هذا الجيش يجب أنْ يكون قوةً تساعد القوى المحليّة المناوئة للعَنْسيّ ، و أنّ هذه القوى المحليّة هي الَّتِي يجب أن تتحمل العبء الأكبر في المنازلة المرتقبة .

لكنّ مجريات الأحداث أخذت خلاف هذا المخطط ، و إنْ خدمت هدفه النّهائيّ ، فنتيجةً للخلافات الَّتِي كانت داخل قيادة حركة الأسود العَنْسيِّ أُقيمت علاقة بين قيس بن عبد يغوث ـ قائد جند العَنْسيّ و بين المسلمين ،[١١] و ليس واضحاً من كان المبادر لفتح هذه الطريق ، و من هم المسلمون الَّذِين كانوا يلعبون دور رجال الاتصال . و على أساس هذه العلاقة تشكّلت مجموعة وضعت نصب عينيْها هدف

---

[١٠] تاريخ الطبري : ٢ / ٢٤٨ ؛ الكامل : ٢ / ٣٣٧ ـ ٣٣٨ .
[١١] تاريخ الطبري : ٢ / ٢٤٨ ؛ الكامل : ٢ / ٣٣٨ .

اغتيال العَنْسيّ مستغلين نقطةً شديدة الضعفِ لديه ، إلا و هي زواجه من آذاد ، و هي امرأة شَهر ، الَّذِي قُتل في مَعْرَكَة صنعاء ، كما أنّها ابنة عمّ فَيْروز ، الَّذِي دخل في صراع خفي مع العَنْسيّ ؛ فاستطاع المتآمرون كسبها إلى جانبهم أيضاً .[١٢] كانت المجموعة تسير وفق سُنَّةٍ تاريخيّةٍ ، و الَّتِي تقضي بأنّ المتآمرين يمتون دائماً إلى الرجال البارزين ، و ذوي المكانة ، و الحظوة عند الأمير ؛ لأنّ النَّاسَ الآخرين لا يستطيعون تدبير المؤامرات ، كونهم لا يملكون سلطاناً ، و لا تماسَّ لهم مع الأمير ؛ و لهذا فهم فاقدو الأملِ في تنفيذ المُؤامَرَةِ تنفيذاً ناجحاً ، و يفتقرون إلى كلِّ فرصةٍ للتنفيذ . و يُلاحظ كذلك أنّ عددَ مَنْ تآمروا مدفوعين بالمطامع في المنافع لا يقلّ عمّن تأمروا مدفوعين بالسّخْطِ على ما لحقهم من أذىً .[١٣]

بدأت الخلافات بين القادة تتعمق رويداً رويداً ، و في غضون ذلك عملت المجموعة المُتآمرة على تجييش الهمدانيّين و الحميريّين استعداداً للهجوم على معقل العَنْسيّ بعيد تنفيذ عملية الاغتيال . أمّا العَنْسيّ فلم تكن الشكوك تراوده و حسب ، بل كان متأكداً من أنّ العداء بينه و بين هذه المجموعة قد بلغ ذروته ـ و أنّ ثَمّ تحركاً معادياً له في الخفاء ، فحذّر قيساً وجُشَيشَ و فَيْروزَ ، و لم يسارع لقتلهم لاعتبارات تتعلّق بردة فعل الأهالي على مقتلهم ، وعلى الرَّغْمِ مِنْ أنّه اتّخذ قرارَ قتلهم ، إلاّ أنّه كان عليه انتظار اللَّحظة المناسبة . كان كلُّ طرفٍ يراقب الطَرفَ الآخر و ينتظر الحين المواتي ، فزاد هذا من التّوتر بين الطرفيْن حَتَّى كاد يجبر المتآمرين على إلغاء خطتهم قُبيل سُوَيعات ، لولا تشجيع آذاد و بثّها الثقةَ في نفسِ فريق الاغتيال ، و طلبها منه عدم التراجع ؛[١٤] و قد استجاب المتآمرون لها بعدما بدا جلياً لهم أنّ قتلهم قد أوشك .

نجحت المجموعة في تنفيذ مهمتها في ربيع الأول ١١ هـ / أيار (مايو) ـ حزيران (يونيو) ٦٣٢ م ، و انتظرت حَتَّى الصّباح ، حيث ارتقى رجال العملية على حِصنٍ مرتفع ، فأذّن وبر بن يخنس ، إيذاناً بساعة الهجوم على القَصْر . أُعلن مقتل العَنْسيّ ، و أُلقي برأسه إلى النّاس المحتشدين ، فلمّا شاهد مقاتلو

---

[١٢] تاريخ الطبري : ٢ / ٢٤٨ ؛ الكامل : ٢ / ٣٣٧ ـ ٣٣٨ ؛ و عند ابن الأثير و ابن خلدون : **آزاد** .

[١٣] مُطارحات مكيافلي ، نيقولا مكيافلي ، ترجمة : خيري حمَّاد ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط ٣ ، شباط (فبراير) ، ١٩٨٢ ، ص ٦٠١ ـ ٦٠٢ .

[١٤] تاريخ الطبري : ٢ / ٢٥٠ ؛ الكامل : ٢ / ٢٤٠ ، ٣٣٩ .

العَنْسيّ ما جرى أسْرَحوا خيولهم ، و شرع كلُّ واحدٍ منهم يأخذ غلاماً من الأبناء معه ، فأخذوا معهم ثلاثين غلاماً ، بينا تمكّن الأهالي من احتجاز سبعين رجلاً منهم . و فيما بعد سيتبادل الطرفان الرهائنَ .

صار أتباع العَنْسيّ يجوبون فيما بين صنعاء و نجران . و بذلك انتهت حركة العَنْسيّ الَّتِي استمرت ثلاثة أو أربعة أشهر ؛ و رجع عمال مُحَمَّدٍ إلى أماكن عملهم .[١٥] و بذلك تكون صنعاء قد تخلّصت من حركة العَنْسيِّ بعد نجاح عملية اغتيال قائدها . و حسماً للخلاف على الإمارة اتفقت نخبة الأهالي على مُعَاذ بن جبل ، فكان يصلي بهم . و كتبوا إلى مُحَمَّدٍ بالخبرِ؛ فلما قدمت الرسل المدينة علموا بأنّ مُحَمَّداً قد مات صبيحة ليلة الاغتيال ، فأجابهم أَبُو بَكْر . و قد أُعتبر هذا النبأُ أوّلَ نصرٍ أتى أَبَا بَكْر و هو بالمدينة .[١٦] لكنّ اليمنَ لن تكون طيعةً لأَبِي بَكْر ، فما إنْ يصل خبرُ وفاةِ مُحَمَّدٍ إليها حَتَّى تهتز سُلْطَة المسلمين ثانيةً ، لتُفتح جبهة اليمن مجدداً على جميع الاحتمالات .

في هذه الأثناء كان على أَبِي بَكْر معالجة مسألة مُلِحّة في عقر داره ، ألاّ و هي كيف له أنْ يواصل حشد مجتمع المدينة أمام الخارج ، و هو الدرب الَّذِي سلكته حَمْلَة أُسَامة ؛ كان أمامه حلٌّ وحيدٌ ، التمسك بمسألة الزَّكاة ، الَّتِي قَنَّنَها مُحَمَّدٌ قبل موته ، فلقد طلب مُحَمَّدٌ جمع الزَّكاة ـ الضريبة ـ من القبائلِ الَّتِي أعلنت ولاءها له ، و حَتَّى وفاته لم يكن قد جمع شيئاً منها ، و إذا كان هذا الشق من أوامر مُحَمَّدٍ يرتبط بالتّطوّر الحاصل في الحركة الإسْلاميّة ، إلاّ أنّه لا توجد مؤشرات تسمح لنا بالقول إنّ القبائلَ المعنية بالقرار قد وافقت على دفعها ، فمما لاشك فيه أنّ هذا الأمر أحدث انقساماً في كل قبيلة معنية بالقضية ، لكنّ وفاةَ مُحَمَّدٍ ، والقرار لم يدخل حيز التطبيق الفعليّ بعد ، جعل مسألةَ دفع الزَّكاةِ أمراً غيرَ مقبولٍ به بالنسبة إليها ، و لهذا توجهت وفودٌ من بني أسد ، و غطفان ، و هَوَازن ، و طيِّىءٍ ، و قضاعةَ إلى المدينة لإلغاء هذه القرار ، و تحدثنا التواريخ بأنّهم أعلنوا عن موافقتهم إقامة الصلاة مقابل إعفائهم من الزَّكاة ؛ لكنّ أَبَا بَكْر رفض ، مما أثار نقاشاً في أواسط قيادة المدينة .

---

[١٥] تاريخ الطبري : ٢ / ٢٥٠ ، ٢٥٢ ؛ الكامل : ٢ / ٢٤٠ ـ ٢٤١ ؛ البداية و النّهايَة ؛ فصول من تاريخ الإسْلام ، ١٩٢ ؛ شوفاني ، ١٨ .

[١٦] الكامل : ٢ / ٣٤١ . تذهب بعض الرِّوايَات إلى أنَّ اغتياله كان بعد موت مُحَمَّدٍ (فُتُوح البُلدَان ، ص ١١٤) .

النقاش حول مسألة الزَّكاة

اختلفت آراء قادة المدينة بصدد كيفية التعامل مع القبائل العَرَبِيّة الَّتِي رفضت دفع الزَّكاة ، و قد رأى فريقٌ منهم أنّه لا يجوز اعتبارهم كفاراً ، و كان عُمَرُ بن الخطّاب ممثل هذا الجناح الَّذِي طالب بعدم مقاتلتهم ، و نحن لا نعرف تفاصيل النّقاش ، و كل ما تخبرنا به المصادر أن عُمرَ استدل على صوابيّة موقفه بقول مُحَمَّدٍ : ((أمرت أنْ أقاتل الناس حَتَّى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءَهم و أموالهم)) ؛ لكنّ أَبَا بَكْر ، الَّذِي تميّز بذاكرةٍ تستحضر النصوص في اللّحظات الحرجة يجد مطعناً على حجة عُمَرَ بقوله : ((أليس قد قال النَّبِيّ بعد هذا : ((إلا بحقها)) ، و من حقها إقامة الصلاة و إيتاء الزَّكاة)) ؛ ثُمّ نقدَ عمرَ أشد النّقد ، قائلاً له : ((رجوتُ نُصرتك و جئتني بخذلانك ، جباراً في الجاهليّة خوّاراً في الإِسْلام)) ،[١٧] و أضاف : ((و الله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدّونه لرسول اللهِ لقاتلتهم عليه)) .

لا تنقل لنا هذه الرِّوايَة مضمون الحوار الحقيقي ، و ذلك لاعتباريْن : أولهما ، قول عُمرَ بأنّ مُحَمَّداً أُمر بأن يُقاتل النّاس حَتَّى يقولوا لا إله إلاّ الله ، و هذا ما لا يمكن نسبته لِمُحَمَّدٍ ، لأنّه لم يكن قد نَهَجَ فكريّاً و لا عمليّاً سِيَاسِيّة التوسع (الفتوحات) ؛ ثانياً ، لأنّه لم يؤدِّ أحدٌ شيئاً حَتَّى ذلك الحين لِمُحَمَّدٍ ، و أَبُو بَكْر لن يستشهد بما لم يجرِ أمام عمرَ ، أو غير عمر في هذه النقطة . لكنّنا إذا أخذنا المعطيات داخل المدينة ، و العَوامل الخارجيّة (وَضْع مكّة والطائف) ، و الَّتِي كان على أَبِي بَكْر التعامل معها ، فإنّنا نستطيع الافتراض أنّ أَبَا بَكْر بسط وجهة نظره على نخبة حركته ، معتبراً قراره بالإصرار على الزَّكاة استمراراً لخياره الأول ، و الَّذِي أظهره عبر بعثه حَمْلَة أُسَامة . ثُمّ إنّه شرح بأنّه لم يعد ممكناً للمدينة البقاء منكفئةً على نفسها بعد الآن ، إذ إنّ هذا الانكفاء يعني تضيع ثمرات حَمْلَة أُسَامةَ ، و النفوذ الكبير الَّذِي تحقق في الجَزِيْرة العَرَبِيّة منذ خضوع مكّة للحركة الإِسْلاميّة ؛ دعْ عنك أنّ المدينة لا يمكنها العيش دون موارد تأتيها من الغنائم ، فمجتمع المهاجرين و منذ هجرة مُحَمَّدٍ إلى المدينة ارتبط بشكل ما

---

[١٧] تاريخ الخلفاء ، ٩٣ .

بالغارات ، إذ كانت مسألة شنّ الغارات أمراً لا مفرّ منه ، و ذلك لأنّ المهاجرين كانوا يفتقدون إلى الخبرة الضروريّة ، الَّتِي تساعدهم على مزاولة الزّراعَة ، و هو أساس اقتصاد المدينة ، علاوة على أنّ المهاجرين كانوا يكنون الازدراء لها ، و يبدو أنّهم لم يحاولوا التكيّف مع الوضع المستجد ، و لم يسعوا لإعادة تأهيلهم من أجل العيش في المدينة . مع مراعاة حقيقة أنّ الأراضي لم تكن تحتمل أعداداً إضافيّةً من العمال ، و بالتالي ربما تلقى المهاجرون تشجيعاً من الأنصار على التوجه صوب الغزوات . و فيما بعد ، عندما تخوض الحركة الإسْلاميّة حروبها التوسعيّة ، فإنّ بعضاً من الأنصار سيلاحظ أنّ المهاجرين كانوا قادة الجيوش ،[١٨] و يعود هذا إلى أنّ الغزوَ المصدرُ الأساسيّ للمهاجرين ، و من هنا كانت مشاركة المهاجرين في حروب الردة أكبر من مشاركة الأنصار . و علينا ألا ننسى أنّ غزوات المهاجرين في عهد مُحَمَّدٍ كانت لا تشذ عن ممارسات قبائل الجَزِيْرة العَرَبيّة البدويّة ، و الَّتِي كانت تعتمد على الغزو كوسيلة أساسيّة للمعاش ، و كلّ ما كان على المسلمين فعله هو أنْ يبرروا عملياتهم بحجج سماويّةٍ ؛ و أصل عقيدة الجهاد الإسْلاميّة تعود إلى هذه المرحلة .

إذاً ، أصبحتَ الحَرْبُ دَرْباً لا مناص منه للقائد الجديد فمن كل الأوجه كانت الخيار الأمثل ، وفق اعتبارات متعددة أدركها أَبُو بَكْر ، و من معه ، و بذلك أُسْقِط في يدي عمر ، ولم يعد يستطيع رفض حجج أَبِي بَكْر الصائبة من منطق الظروف ، و المدعومة بالأحاديث النَبَوِيّة عند الحاجة ، أو لعله استشعر صوابيّة القرار ، و فهم المقاصد الكامنة من قرارِ الحَرْب في نقاشات لاحقة مع الخَلِيْفَةِ ، لكنّه طلب منه الرفق بتلك القبائل . و فيما بعد عندما يتولى عمر زمام السُّلْطَة سيقوم بردّ السبايا و الأموال الَّتِي استولت عليها جيوش المسلمين إلى قبائلها ، و يطلق سراح الأسرى .[١٩]

---

[١٨] الصّدّيق ، ١٠٦ .
[١٩] الملل و النحل ، ٧ .

التَّعْبِئَة في المدينة بعد رجوع أُسَامة

تطلب خيارُ الحَرْبِ من الخَلِيْفَةِ استدعاء النخب القُرَشيّة الموجودة خارج المدينة ، فطلب أَبُو بَكْر من عَمرو بن العاص القدوم إليه ، و كان يؤمئذٍ بعُمَانَ ، و كان عاملاً لِمُحَمَّدٍ عليها ، فخرج عمرو مُشْيّعاً بفرسان عُمانَ [٢٠] لحمايته .

في طريق عودته نزل عَمرُو بن العاص بقُرّة بن هُبَيْرة بن سلَمة بن قُشير ، و حوله عسكر من بني عامر ، الَّذِين لم يحسموا قضية التعاطي مع الزَّكاة بعد ، فاجتمع عَمرُو و قرّة على انفرادٍ ، فطلب منه الأخير عدم المضي بمسألة الزَّكاة ، و سماها **إتاوَةً** ، و حذر من أن الإصرار عليها سيحرض القبائل العَرَبِيّة على مناوئة حركة الإِسْلام ، لكن ردّ عمرٍو جاء فظاً، فقال لقرة : ((أكفرت يا قرّة !)) ، فأحرج هذا الردُّ القاسيّ قرةَ ، فأجابه : ((اجعلوا بيننا و بينكم موعداً)) ، فردّ عليه عَمرُو : ((أتوعدنا بالعربِ و تخوّفنا بها ! موعدك حَفْشُ [٢١] أمك ـ ؛ فوالله لأوطِئنّ عليك الخيل)) ، فلما قدم المدينة أخبر أَبَا بَكْر بما جرى .[٢٢]

كما كتب أَبُو بَكْر إلى أبَان بن سعيدٍ الأمويِّ يستقدمه من أرض البَحْرَيْن ، و قد كان مُحَمَّدٌ وجهه إليها أميراً ؛ فخرج أبَان من البَحْرَيْن و معه ثلاثين فارساً من عبد القيس ، حَتَّى أوردوه المدينة سالماً ؛ في حين شرع النّاس يجتمعون إليه من كل أوب ، و بذلك يكون أَبُو بَكْر قد أنجز عملية استقدام النخب الضروريّة للمعارك المقبلة . و استعداداً للصدام مع البدو الَّذِين كان يتوقع هجماتهم على معقله قام أبو بكر بمركزة قواته حول المدينة .[٢٣]

---

[٢٠] كتابُ الرَّدة ، ٨٨ ـ ٨٩ .
[٢١] الحِفْش : بيت تنفرد فيه النفساء ، و البيت الصغير .
[٢٢] تاريخ الطبري : ٢ / ٢٦٣ ؛ الكامل : ٢ / ٣٥٢ .
[٢٣] كتابُ الرَّدة ، ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٨ ـ ٩٩ .

مَعْرَكَة ذي القَصَّة

كانت دواعي التّأهّب تمركز قوات معاديّة في فترة المفاوضات بينه و بين وفود القبائل البدويّة (وفود : أسد ، و غطفان ، و طيِّىءٍ) ، حيث اجتمعت ثعلبة بن سعد ، و مُرّة ، وعَبْس بالأبرق ، و انضم إليهم مقاتلون من بني كنانة ، فتوزعوا إلى فرقتين بسبب مِنْ كثرة عددهم ، أقامت إحداهما بالأبرق ، و سارت الأخرى إلى ذي القَصَّة .[٢٤]

بالفعل تعرضت المدينة لغارةٍ من الأعراب ، لكنّها صُدت من قِبل رجال المدينة ؛ فقرر أَبُو بَكْر مواجهة الأعراب الضاربين حول المدينة . إذ استغل أَبُو بَكْر رجوع أُسَامة ، فطلب من الجيش العائد البقاء في المدينة من أجل أنْ يستريح ، و توجه لمحاربة القوات المتمركزة في هاتيْن المنطقتيْن ـ ذي القصّة ، والأبرق ـ ، فحقق نصره فيهما على بني عبسٍ و ذُبيان ، و مجموعات من بني كنانة في أيلول (سبتمبر) ٦٣٢ م .

كانت لمَعْرَكَة ذي القَصَّة ـ أوّل نصر عسكريّ للمدينة ـ نتائج متباينة إذ سيطر أَبُو بَكْر على أرض ذُبيان مما دفع عبساً و ذُبيان للالتحاق بطُلَيْحَة ، و الَّذِي كان أمدّ حشود ذي القَصَّة بعددٍ من المقاتلين ـ لا تذكر المصادر عددهم ـ بقيادة ابن أخيه حِبال بن سَلَمة بن خُوَيْلد ، فزادت هذه المَعْرَكَة من حدة التّوتّر بين المسلمين و غير المسلمين داخل القبائل ، الَّتِي كانت قد ارتبطت بعلاقاتٍ مع مُحَمَّدٍ ، فتحركت بنو ذُبيان و عبس للانتقام من مسلميهم قتلاً ؛ فلما علم أَبُو بَكْر النبأ ، أقسم إنّه سيقتل في كل قبيلة بمَنْ قتلوا من المسلمين ، و زيادة ، و أعلن أنّ أراضي بني ذُبيانَ صارت ملكاً للحركة الإِسْلاميّة .[٢٥]

جاء قَسَمُ أَبِي بَكْر بأنّه سيقتل بمَنْ قُتل من المسلمين و زيادة نتيجة لخياره بانتهاج طريق الحَرْبِ ، و حروف الحَرْب لا تكتب إلاّ بالدماء . إن الحَرْب تعني العنف ، و منبع ضرورته بالنسبة لأَبِي بَكْر ، هو ترسيخ هيمنة حركة صاعدة ،

---

[٢٤] تاريخ الطبري : ٢ / ٢٥٤ ـ ٢٥٥ ؛ الكامل : ٢ / ٣٤٤ .

[٢٥] تاريخ الطبري : ٢ / ٢٥٥ ـ ٢٥٦ ؛ البداية و النّهايَة ؛ الكامل : ٢ / ٣٤٥ ؛ أيام ، ١٤١ ـ ١٤٣ ؛ شوفاني ، ١٥ ؛ الصّدّيق ، ١٠١ .

و تحقيق توسعها ، و التخلّص من الاحتقان الداخليّ ؛ إذ يستحيل على الأمير الجديد النّجاة من سمْعَة القسوة ، و الصّرامة ، و ذلك لأنّ الدول الجديدة تتعرض دائماً للأخطار الكثيرة ،[٢٦] والخطر الَّذِي كان يحيق بالحركة الإسْلاميّة ، و بقيادة المدينة بعد وفاة مُحَمَّدٍ ليس من عدوٍ خارجيٍ ، بل من غياب هذا العدو ، الَّذِي يجب القضاء عليه ، و غيابه يعني أنْ تحبس المدينةً ضمن حدودها ، و ألاّ تنمو الحركة الإسْلاميّة ، و في توقف نموها موتها آنذاك ، و هي في مهدها . و إذا كان الخطرُ ليس خارجيّاً بل داخليّاً محضاً ، فإنّ أَبَا بَكْر بإصراره على قبض الزَّكاة من القبائل قلب المعادلة كلياً ، فحوّل الأزْمَة مع القوى السِّيَاسِيّة الداخليّة إلى أزمة مع القوى القبليّة الخارجيّة .

توجيه الحملات

بعد تحقيق النّصْر في ذي القصّة ، جاءت صدقات كثيرة إلى المدينة ، و لم تكن هذه الصدقات مرتبطة بنصر ذي القصة ، بل جاءت بدوافع الظروف الخاصة لكلِّ قبيلةٍ كما سنرى لاحقاً ، دون أنْ يعنى أنّ هذا النّصْر لم يشجّع على وصولها ، لكنّه لم يكن سبباً رئيساً لمجيئها. و إذ كانت الأموال تفيض عن حاجات المدينة ، فإنّ الخليفةَ سارع إلى توظيفها خدمةً لاستراتيجيته ، فقرّر توجيه الحملات العسكريّة ؛ فأُصدرت الأوامر إلى خَالِد بن الوَليدِ بالتوجه إلى طُلَيْحَة بن خُوَيْلد الأسديّ و من معه من بني أسد ، و غطفان ، و فزارة . و يتضح من التعليمات الَّتِي أُعطيت لخَالِد إنّ عليه أنْ يحاول أولاً استمالة أشراف هذه القبائل حسب مكانتهم الاجْتِمَاعيّة ، و لا يسارع إلى الاشتباك إلا بعد التأكد من إصرار القبائل على عدم الخضوع . و كان مع خالد يومئذٍ مقاتلون من بني أسد ،[٢٧] الَّذِين لن يتردد بعضهم في تحذير قومهم .

---

[٢٦] الأمير ، ١٤٣ .
[٢٧] كتابُ الرَّدة ، ١١٠ ، ١١٢ .

من جهة أخرى أصدر أَبُو بَكْر نص تعليماته لقيادات الجنود ، و كانت التعليمات تقضي بأنْ لا يقبل قواد الجند من القبائل إلا الاستسلام غير المشروط ، و ذلك بإعلان الإِسْلام، و بخلاف ذلك كانت التعليمات تقضي بالتنكيل الشديد بالرافضين ، بينا كانت رسالته للقبائل تتضمن انذاراً بإعلان الإِسْلام ، أو العقاب الشديد ، من قتل أو تحريق ، و سبي للنساء و الأولاد [٢٨] .

هذا المناخ السِّيَاسِيّ العام في الجَزِيْرة العَرَبِيّة ، و حيث نذر الحرب في كلِّ مكانٍ فيها، ساعد على تكوين أمزجة قلقة في السكان ، و دفع شخصاً كانت تستحوذ عليه غريزة عدوان عميقة إلى اختراق التقاليد و الأعراف القبليّة ، الَّتِي طالما ضبطت نزعته تلك ؛ فسعى في ظل أجواء التوتر العسكريّ لإشباعها ؛ كان الفجاءَة السُّلميّ هو هذا الشّخص ، و لم تذكر المصادر التّاريخيّة غيره .

الفجاءَة السُّلميّ (إياس بن عبد ياليل)

بينا كان خالد يسير لمقاتلة بني أسد قدم الفجاءَة بن عبد ياليل ـ من بني سليم ـ إلى أَبِي بَكْر ، و طلب منه معونة ماديّة لمحاربة غير المسلمين من قومه ؛ فأعطاه أَبُو بَكْر عشرة خيول ، و سلاحاً مؤلَّفاً من سيوفٍ و رماحٍ و قسيٍ و سهامٍ ، و وجه معه عشرة مسلمين ؛ فلما اقترب من قبيلته بني سليم ، استدعى مجموعةً منها ، و تمكن بمساعدتها من قتل المسلمين ، الَّذِين كانوا معه ؛ ثم إنّه فرّق الخيل و السّلاح على مَنْ أتبعه ، و سار يقتل النّاس عشوائياً من قومه ، و من غيرهم ، كان يمارس عملية قتل مدفوعة بهواجس ذهانية ، هو ومن لف لفه من هذه المجموعة .

بلغَ الخبرُ أَبَا بَكْر فأمر خالداً بتوجيه من يطارد الفجاءَة ، و الإتيان به حيثما كان ؛ فوجه خالدٌ رجلاً من بني سليم ، برفقة ثلاثمئة فارسٍ من عساكره لهذه المهمة .

التقت القوتان ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، و كانت الدائرة في أول اللِّقاء على المسلمين .[٢٩] و في ساحة المَعْرَكَة حمل رجلٌ من قوات المسلمين على الفَجاءَة ،

---

[٢٨] تاريخ الطبري : ٢ / ٢٥٨ ـ ٢٥٩ ، ٢٧٣ .
[٢٩] كتابُ الرِّدة ، ١١٧ ـ ١١٩ ، ١٢١ ـ ١٢٢ .

فكبا به فرسه ، و سقط على الأرض ، فأُخذ أسيراً ؛ بينا ولى أصحابه منهزمين . ثم حُمل الأسيرُ إلى المدينة بناءً على أوامر خالدٍ ليحكم فيه أَبُو بَكْر . فلما أُحضر إلى أَبِي بَكْر ، لم يكلّمه أَبُو بَكْر بكَلِمَةٍ ، و لا سأله عن بواعث تصرفاته ، بل دعا رجلاً من بني سليم يُقال له طُريفة ، و طلب منه إحراق الأسير خارج المدينة بالنار . فأُخرج الفجاءَة ، ثم جمع له الحَطَب بمصلىَّ المدينة ، أي المكان الَّذِي كان يخرج إليه مُحَمَّدٌ و المسلمون لصلاة العيدَيْن ، و للصلاة على الجنائز ، فشدّت يداه و رجلاه ، و وضع في وسط الحَطَبِ ، و أضرم الحطبَ بالنّارِ ، و أحرق حَتَّى صار فحماً .[٣٠] و فيما بعد في سويعات احتضاره سيتذكر أَبُو بَكْر هذا القرار ، و يتمنّى لو أنّه لم يكن قد حرّق الفجاءة ![٣١]

في هذا الأثناء كان خالد يتابع المَسِيْر إلى طُلَيْحَة بعدما أنجز عملية القضاء على مجموعة الفجاءَة .

طُلَيْحَةُ بنُ خُوَيْلدُ

تمتزج حالة المؤمن النّفسيّة ـ الرُّوْحِيّة بالمُقَدّس ، و المُقَدّس في الوَثَنِيَّة يتجلى في الكثرة ، و يتجسد في صور و أشكال عدة في الطبيعة ، في الملموس ، و العياني . المُقَدّس في الوَثَنِيَّة قريب من المؤمن و على تماس مباشر معه ، و مع تطور الدِّين كعاقبة لتطور المجتمع فإنّ المُقَدّس المتعدد يميل أكثر فأكثر للانحصار في أقلّ عددٍ من الأشكال ، الَّتِي تجلي في نفسها المُقَدّسَ ، إلى أنْ يصل إلى مرحلة يصبح المُقَدّس واحداً ، متعالياً ، بعيداً ، مجرداً ، و لا شخصيّاً . في زمن نشأة الإِسْلام ، كانت ثمة سيرورة تجري في الجَزِيْرة العَرَبِيّة للارتقاء بالمُقَدّس المُشخّص الوَثنيّ باتجاه المطلق السّماويّ ، المجرد و المتعالي . و هذه العملية في الدِّين هي التمهيد الرُّوْحِيّ لتأسيْس الدّوْلَة ، أو تتساوق معها .

تُعتبر الصّلاةُ الوَسِيْلَة الأساسيّة للاتصال بالمُقَدّس / المُقَدّسات ، فيها يشعر المُتَعَبِّد بحضور هذا المُقَدّس ، و منها يستمد القوة على مواجهة الصعوبات ،

---

[٣٠] كتابُ الرِّدة ، ١٢٤ ـ ١٢٥ ؛ الكامل : ٢ / ٣٥٠ ـ ٣٥١ ؛ تاريخ ابن خلدون ، م ٢ ، ج ٢ / ٧٢ ؛ البداية و النّهايَة ؛ الشيخان ، ٨٤ . في الكامل و تاريخ ابن خلدون ؛ فإنّ طريفة بن حاجز هو الَّذِي أسر الفجاءة بعد أنْ وجّه أَبُو بَكْر للقضاء عليه .

[٣١] الإمامة السياسة ، ١ / ١٩ ؛ مُروُج الذّهَبِ : ٢ / ٣٠٣ ؛ رضا ، ١٧٦ .

و العزاء على ما فات ، فهي لها قوةٌ معنويّة كبيرةٌ على المُتَعَبِّدين ؛ من خلالها يعبر المُصلّي إلى نقطة التّلاقي مع مقدسه ، و يختبر بها حالة وَجْدٍ ، لكنّ هذا المنسك لا يبلغ درجاته الحقيقيّة إلاّ القلّة من المُتَعَبِّدين ، بينا نجد أنّ مؤمنين مختلف العصور لا يصلون إلى هذه النقطة كونهم يؤدّون مجموعة من الحركات الطقوسيّة وفق ما تتطلبه منهم العقيدة و حسب .

إنّ كلَّ صيغة للصّلاة تعكس المستوى التّجريدي للدين ، و الصّلاة الإسْلاميّة الَّتِي تتألف من ركوع و سجودٍ كانت وَسِيْلة للانضباط الرُّوْحِيّ و لإشعار المؤمن بوجود القوة المركزيّة ـ و هنا اللَّه المطلق المتعالي في السماء ـ ، و لهذا فإنها لم تكن ملائمةً لمزاج البدو أو بالأحرى لظروف المجتمع البدويَّ ؛ فالبدويّ الَّذِي لم يكن منضبطاً في علاقاته الأرضيّة ، و لا يتحدد سلوكه مِنْ قِبَل إرادة خارجيّة تمثلها الدّوْلة ، سيرفض من كلِّ بدٍ الخضوع لضوابط روحيّة دون أنْ تجد أساسها الأرضيّ . لم تكن مسألةُ الصّلاةِ ، أو التوجه للإله المطلق حالةً مفهومةً بالنسبة إليه عقليّاً ، كما لم يكن يجد فيها تلبيةً لحاجة نفسيّة ؛ لأنّ الظروف الخارجيّة لم تبررها أو توفر لها فرصة الحضور ؛ و هذا أحد أسباب تعقد العلاقة بين البدو و الإسْلام ، حيث يلاحظ أن الإسْلام يتجذر بصعوبة بين البدو . و قد اشتكى القرآن من سلوك الأعراب ، فقال : ﴿ قالت الأعراب آمنا ، قُل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا ﴾ ؛[٣٢] هذه العلاقة المعقدة بين الإسْلام كدينٍ توحيدي ، و البداوة كتكوين اجْتِمَاعيّ يتعارض في بنيته مع الإسْلام التوحيديّ العاكس لجذوره المكّية الَّراقية لقيت انعكاسها في بنية العقيدة الإسْلاميّة ، فبقي الإسْلام يحمل شكوكاً حادة تجاه البدو ، و قد انعكس ذلك في أحاديث نَبَوِيّة ، حذَر فيها مُحَمَّدٌ من أَنْ يتحول المرء إلى البدواة : ((**من بَدَا جَفَا**))، أي من نزل البادية صار فيه جَفاء الأعراب .[٣٣] كما رفضت الشريعة قبول شهادة البدويّ بحق القرويّ : ((لا تَجُوز شَهَادَةُ بدويّ على صاحب قَرْيَةٍ)) ؛ لأنّ البدويّ فيه من الجِفَاء في الدين و الجهالة بأحكام الشرع ، و لأنّهم في الغالب لا يضبطون الشهادة على وجها[٣٤] .

---

[٣٢] الحجرات : ١٤ .
[٣٣] مسند أحمد : ٨٤٨١ ، ٩٣٠٦ ، ١٧٨٧٦ ؛ لسان العرب ، **بدا** .
[٣٤] سنن ابن ماجه ، (م ح ش) : ٢٣٥٨ ، ٣١٢٦ ؛ لسان العرب ، **بدا** .

و قد استمرت علاقة التعارض بين النمط البدويّ ، و الإِسْلام حَتَّى العصر الحديث ، و عندما نشأت الحركة الوهابيّة في الجَزِيْرة العَرَبِيّة فإنّها جابهت مقاومة بدويّة كانت ترتبط بشدة بالعقائد الوَثَنِيِّة ، و إن كانت مجلببة بالإِسْلام ، و يمكن أن نجد شواهد معاصرة تؤكد هذه القاعدة .

لقد فشل مُحَمَّدٌ في التّقرّب من البدو عندما ألغى نظام النسيء ، و أصرخ مثال على فشله معهم نجده جلياً في تحرك طُلَيْحَة ، الَّذِي أعلن أثناء حياة مُحَمَّدٍ النبوّةَ بعدما كان كاهناً ، كما تقول المصادر ، و لا يوجد من المعطيات ما يثبت هذا التوصيف ، و من الصعب علينا قبول كهانةَ طُلَيْحَة حالةً نَبَوِيّةً ، و لربما قرّر أنْ يدعي لنفسه هذا اللَّقب مدفوعاً بنبوة مُحَمَّدٍ ، و مُسَيْلِمةَ ، و ليست واضحة شعائر الدِّين الَّذِي كان يدعو إليه في حال أنه أعلن النّبُوّة حقاً ، و كل ما نجده في خطب طُلَيْحَة أفكاراً تنسجم مع الطبع اللقاحي البدويّ ،[٣٥] إذ كان يطلب من أتباعه عدم ممارسة الصلاة الإِسْلاميّة ، الّتي تتألف من سجودٍ و ركوعٍ ، فكان يقول لهم : ((إنّ اللّه لا يصنع بتعفّر وجوهكم و تقّبح أدباركم شيئاً ، اذكروا اللّه أعفة قياماً)) .[٣٦]

هنا أخذ رفضُ سيرورةَ نشأة الدّوْلَة ، أو مركزة الجَزِيْرة العَرَبِيّة شكلَ رفضَ صيغة صلاة الإِسْلام . و قبل وفاته أراد مُحَمَّدٌ نشر الإِسْلام في قبائل بني أسد البدويّة ، فبعث ضِرار بن الأزور لمتابعة شئون المسلمين في بني أسدٍ ، و ليس ثَمّة ما يؤكد على حضور الإِسْلام فيهم ، و كلُّ ما نعتقده أنّ الانقسام داخل بني أسدٍ أَوْهَمَ الرواة بأنّ المجموعات المتحالفة مع مُحَمَّدٍ قد دانت بالإِسْلام ، و تقول الرِّوايَات إنّ كفة المسلمين كانت راجحة حَتَّى وصل خبرُ موت نبِيَّهُم ، فأختل الميزان بسرعة ، إذ تناقص عددهم ، و مال كثيرٌ إلى طُلَيْحَة ، الَّذِي بدأ نجمه يعلو ؛ و هذا يؤكد على أنّ العلاقة كانت علاقة تحالف بشكلٍ ما ، و استمداد قوة من مُحَمَّدٍ بوصفه قائداً لحركة مهمة ، لا علاقة مؤمنين بنَبِيّ ، و قد سبب موت مُحَمَّدٍ تخلخلاً في توزع القوى في بني أسدٍ .

---

[٣٥] **القوم اللَّقاح** : القوم الَّذِين لا يخضعون للسُلْطة بحكم ضعف التطور الاجتماسيّ و غياب مؤسَّسات الدَّوْلَة ، و جذر الكلمة يعود للكلمة السّريانيّة **لَقْحو (ܠܩܚܐ)** ، و الَّتِي تعني ما وراء المدينة . و لمزيد من النقاش حول هذه النقطة يمكن الرجوع لدراسة المفكر الراحل هادي العلوي " حول اللّقاحيّة " المنشورة في كتابه ((فصول من تاريخ الإِسْلام السِّيَاسِيِّ)) ، و كذلك لدراسته المُعنونة " من اللّقاحيّة إلى الشورى " ، و المنشورة في كتابه ((محطات في التّاريخ والتراث)) .

[٣٦] الكامل : ٢ / ٣٤٤ .

إنّ النّظرة إلى العلاقة الداخليّة المعقدة بين قبائل غطفان و طيِّىءٍ ، الَّتِي تحالفت مع طُلَيْحَة ، قَمِينةٌ بأنّ تفسر لنا دوافع الارتباط بالإِسْلام .

دوافع رفض أسدٍ و غطفانَ و مجموعات من طيِّىءٍ لحركة الإِسْلامِ

كان النّزاع و التّوتّر السِّمَة المميزة للعلاقة بين طيِّىءٍ و بني أسد و غطفان ، و تعود جذور العداء بينهم إلى أنّه كان بين أسَدٍ و غَطَفانَ و طيِّىءٍ حِلفٌ في الجاهليّة ، ثُمّ تفكك تحالفهم قُبيل الدعوة المُحَمَّدية ؛ فتحالفت غطفانُ و أسدٌ على طيِّىءٍ ، مما أضطر هذه الأخيرة بفرعيها (غَوْث و جَدِيلة) للجلاء عن أراضيها . لكنّ الصّراع لم يتوقف بل استمر ، فتبدلت فيه التحالفات ، حيث جدد بنو أسدٍ العلاقة مع طيِّىءٍ مما سمح لهم بالعودة إلى موطنهم ، فأثار هذا التحالف غضب غطفان ، مما أدى إلى توتر الأجواء بينها و بين أسد ؛ فلما مات مُحَمَّدٌ قام عُيَيْنة بن حِصْنِ في غطفان ، فطلب من قومه تجديد التحالف مع أسدٍ ، كي يعزز موقع قومه ، و قال بأنّه سيتابع طُلَيْحَة ، و أضاف : ((و اللّه لأن نتبع نَبِيّاً من الحليفَين ـ أي أسد ، و غطفان ـ أحبُّ إلينا من أن نتبع نَبِيّاً من قريش ، و قد مات مُحَمَّدٌ ، و بقي طُلَيْحَة)) ؛ فلقي من قومه كلَّ الموافقة .[٣٧]

لم يجدد عُيينة التحالف مع أسدٍ و حسب ، بل أشعل نار الصّراع بين هذه القبائل الثلاث ، لكن تحت شعار جديد كل الجُدّة في الجَزِيْرة العَرَبِيّة ، شعار الصّراع الدينيّ . و بالمقابل حثّ عَدِيّ بن حَاتِمِ الطائيّ قبائل طيِّىءٍ على عدم قطع العلاقة مع الحركة الإِسْلاميّة ، و أقترح تنفيذ الالتزامات المترتبة على الارتباط معها ، و طلب منهم أيضاً مقاتلة رافضيّ الإِسْلام من أسدٍ و غطفانَ ، و فزارة ؛[٣٨] ـ و فزارة إحدى بطون غطفان ـ فهي الفرصة المواتية لتصفية الحسابات القديمة ، و الثّأر لكرامتهم الجريحة جراء جلائهم من ديارهم لبعض الوقت ، و يبدو أنّ طيِّئاً كانت تخشى أن يكون إعادة التحالف بين أسدٍ و غطفانَ على حسابها، و أن تُهجّرَ من أراضيها مرة أخرى من قِبلهما ؛ و لهذا أيدت شخصيات أخرى من طيِّىءٍ عدياً من أجل مواجهة هاتيْن القبيلتيْن ، كما استجابت

---

[٣٧] تاريخ الطبري : ٢ / ٢٦٢ ؛ الكامل : ٢ / ٣٤٣ .
[٣٨] كتابُ الرِّدة ، ٩٩ ـ ١٠٠ .

جميع بطون طيِّىءٍ له ، مما مكّن عَدِيّ بن حَاتِمٍ ، و زيد الخيل من جمع نصاب طيِّىءٍ من إبل الزّكاة ، ثم قدما على أَبِي بَكْر ، و أعلنا تأييدهما لحركة الإِسْلام ، و أبديا استعداداً للوقوف إلى جانبها في وجه تلك القبيلتيْن ؛ فأفادت هذه الإمدادات ـ الزَّكَاة ـ أَبَا بَكْر لاحقاً في تقوية جيش خالد [٣٩] الَّذِي لن يلبث إلاّ أنّ يتوجه لمحاربة طُلَيْحَة ـ أعداء طيِّىءٍ ـ . و الجدير ذكره هنا أنّ طيِّئاً ، و رغم أنّها كانت مسيحيّة ، لكنّها كانت تنتمي لمنطقة النفوذ الفارسيّ أكثر منها لمنطقة النفوذ البيزنطي ،[٤٠] و ليس واضحاً ما إذا كان هذا العامل الأيديولوجي ـ السِّيَاسِيّ لعب دوراً ما في قرار الطائيّين الارتباط بحركة الإِسْلام ، فهل انضاف هذا العامل لعامل العداء القديم نحو بني أسدٍ و غطفانَ فقرّبهم من الإِسْلام أم إنّه لم يلعب أيَّ دورٍ في قرارهم ؟

بعد مَعْرَكَة ذي القصّة أرسل طُلَيْحَة إلى جَدِيلة ، و الغَوْث ـ بطنان من طيِّىءٍ ـ يعرض عليهما الانضمام إليه ، فانضمت إليه جماعات منهما ، و كان عديّ في يثربَ عند أَبِي بَكْر ؛ فلما رجع إلى قومه ، و علم بشأن الملتحقين بطُلَيْحَة ، سعى لإعادتهم ، و نجح في ذلك، لا بل أنضم إلى خالدٍ ألفُ مقاتلٍ من طيِّىءٍ ،[٤١] و هذا يعني أنّ بعضاً من طيِّىءٍ كان يميل للارتباط بطُلَيْحَة بحكم الروابط الجغرافيّة ، و العلاقات السابقة ، و لم يكن على دراية بحسابات زعماء طيِّىءٍ ، و قلقهم على وَضْعهم من تحالف أسدٍ و غطفانَ ، لكن الاتجاه العام في طيِّىءٍ كان يستشعر هذه المخاوف بحكم العداء الراسخ لديهم ؛ و لهذا استطاع عديٌّ إعادة الملتحقين بسهولة . و سيكون انتصار جيش خالد الإِسْلاميّ على قوات طُلَيْحَة عائداً بجزء لا يستهان به إلى انضمام قواتٌ من طيِّىءٍ لقوات خالد ، فمن جهة خفف عدد الأعداء المحتملين، و من جهة ثانية عزز الجيش الإِسْلاميّ .

بينا كان خالدٌ يسير صوب طُلَيْحَة ، ثَارَ جدلٌ داخليٌّ في غطفانَ بشأن انضمامهم إلى طُلَيْحَةَ بن خُوَيْلد ، و كان هذا الجدل على خلفية أنّهم لا يريدون أنْ يصبحوا أتباعاً لبني أسدٍ ، مما أدى إلى انشقاق زعيم منهم يُقال له زياد بن عبد الله مع جماعة من أقربائه ، و التحاقه بخالد . كما فضلت بنو عامر مراقبة الأحداث ، و التّريّث على من تدور الدوائر .

---

[٣٩] كتابُ الرَّدة ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٨ .
[٤٠] وات ، ١٣٤ .
[٤١] تاريخ الطبري : ٢ / ٢٦٠ ؛ الكامل : ٢ / ٣٤٦ ـ ٣٤٧ ؛ البداية و النّهايَة .

كل ذلك جعل ثقة عُيَيْنةَ بنِ حِصْنِ الفزاريّ ـ زعيم غطفان ـ تهتز بجدوى التحالف مع طُلَيْحَةَ ، مثله مثل قيادات قبليّة عديدة كانت قلقة على مصيرها ، كحال قُرَّة بن سلمة بن هبيرة القشيري الَّذِي طلب من بني عامر بن صعصعة الرجوع تجنباً لمواجهة خالد ، و قال إذا ظفر خالد بطُلَيْحَة فقد هلكنا ؛ لكن قومه أبوا ، و قالوا : ((لا نعطي الدنيّة في ديننا أبداً ، ونحن أحق بالزَّكاة من ابن أبي قحافة)) .[٤٢] و مع وصول أخبار زحف قوات المسلمين بقيادة خالد ، أستبدّ القلقُ كليّاً باتباع طُلَيْحَةَ ، مما دفعه إلى جمعهم ، و خطب فيهم قائلاً :

((يا معشر بني أسدٍ ، لا يهوّلنكم ما قد اجتمع إلى خالدٍ من هذا الجيش ، فإنّهم على باطلٍ ، و غرورٍ . و أخرى فإنّهم لَهَجوا [٤٣] بهذه الصّلاة ، فهم يظنون أنّهم محسنون ، و لقد أتاني جبريل يخبرني عن ربي أنّه ليس يحتاج إلى تعفير وجوهكم ، و فتح أدباركم ، و لا يريد منكم ركوعاً ، و لا سجوداً . و لكنْ يريدكم أنْ تذكروه قياماً و قعوداً ، **فانظروا أنْ تمنعوا القومَ أموالكم ، كما منعتموها في جاهليتكم . و أما عُيَيْنة بن حِصْنِ فقد أخبرني عنه جبريل أنّه قد خاف من حرب القوم**)) .[٤٤]

يتضمن هذا النّصُّ فكرتيْن ؛ أولاهما ، إنّ طابع الحَرْب بين أتباع طُلَيْحَة و قوات المسلمين هي حرب دفاع عن التكوين القبليّ بالنسبة لبني أسدٍ ، و الحفاظ على ميوعة السُّلْطَة و رفض مركزة الجزيرة تحت حكم الإسْلام و زعامة مؤسِّسيه ؛ و ثانيهما ، إدراك طُلَيْحَةَ لضعف تلاحم التحالف الَّذِي يقوده ، و الَّذِي أبرزه بالإشارة إلى تردد عُيَيْنة ؛ أيْ إنّ الحالة المعنويّة لبني أسدٍ و حلفائهم لم تكن تؤهلهم للمواجهة المرتقبة ؛ علاوة على أنّ صفوف بني أسدٍ كانت مفككة كما تكشفه واقعة أنّ بعض الأسديّين كانوا قد انضموا لقوات خالد المتوجهة لمحاربة كاهنهم ـ طُلَيْحَة .

عندما اقترب خالدٌ من طُلَيْحَة ، حاول إجراء مفاوضات معه ، لكنّ طُلَيْحَة رفض ،[٤٥] ومن المفترض أنّ الحوارَ بين خالدٍ و طُلَيْحَةَ لم يكن حواراً تفاوضياً ،

---

[٤٢] كتابُ الرَّدة ، ١٢٦ ـ ١٢٨ ، ١٣٠ ـ ١٣١ ؛ الكامل : ٢ / ٣٤٧ .
[٤٣] لَهِجَ بالأمر لهَجَاً ، و لهْوَج ، و ألهَجَ : أولع به و اعتاده .
[٤٤] كتابُ الرَّدة ، ١٣٤ .
[٤٥] كتابُ الرَّدة ، ١٣٦ .

بل هو مجموعة قرارات طلب خالدٌ تنفيذها وفق كتاب أَبِي بَكْر للقبائل ، و لم يكن في وُسْع طُلَيْحَةَ إلاّ رفضها .

مَعْرَكَةُ بُزَاخَةَ

أصبحت المَعْرَكَةُ بين قوات المسلمين ، و قوات بني أسدٍ و حلفائها أمراً حتمياً ، فالتقى الجيشان بمنطقة تسمى بُزَاخَة ، حيث اقتتلا بضراوةٍ ، و قاتلت بنو أسدٍ ، و غطفان ، وانضم إليهم كذلك سبعمئة [٤٦] من بني فزارة بقيادة عُيَيْنَة . في المَعْرَكَة كان مقاتلو جيش طُلَيْحَة ينادون : ((لا نبايع أبا الفصيل [٤٧] - أي أَبَا بَكْر)) .

عُيَيْنَة الَّذِي أظهر تذبذباً في العلاقة مع طُلَيْحَةَ قُبَيل المَعْرَكَة سرعان ما انهارت ثقته بالنّصْرِ بعدما اشتدت حمى المَعْرَكَةِ ، و بشرعيّة المحاربة مع طُلَيْحَة ، حَتَّى أنّه أتهم طُلَيْحَة بالكذب و كان هذا أمراً طبيعياً في حالة قائدٍ ارتبط بتحالفٍ غيرِ مدروسٍ ، و كانت تعتمل في قرارَة نَفْسه جملةُ رغبات متناقضة ؛ و لهذا لم يتردد في الانسحاب من المَعْرَكَة مع قواته من فزارة ، و ترك بني أسدٍ و غطفان للهزيمة . و قد حددت نوار - زوج طُلَيْحَةَ - سبب الهزيمة ، و أرجعته إلى ضعف المعنويات في جيشِ طُلَيْحَةَ ، فقالت : ((أما إنّه لو كانت لكم نية صادقة لما انهزمتم عن نَبِيّكم)) . ثُمّ إنّ عُيَيْنة وقع في الأسر ، و معه جماعة من بني عمه بعد أنْ طارده خالدٌ . و إذا أخذنا الحالة المعنويّة المتردية لعُيينة ، فالرّاجح أنّه إسْتَأسَرَ ؛ و قد أرسل خالدٌ الأسرى بالأغلال ، مع الغنائم إلى أَبِي بَكْر ، و في الأسر أتهم عُيينة بالكفر بعد الإيمان ، فرفض هذا الاتهام ، و قال : ((واللّه ما كنت آمنت باللّه قطّ)) . و مع ذلك فضّل أَبُو بَكْر أنْ يعفو عنه ، و كذلك

---

[٤٦] تملك الأعداد دلالات رمزية ، و قيماً سحريّة في الأحلام و الأساطير ، و الأدب الشعبي ، و العدد سبعة هو الأكثر حضوراً في الأساطير الإسْلامية ، و قد مرّ معنا إنّ سبعين رجلاً حضر اجتماع العقبة الثانية ، وإنّ أبا بكر أعتق سبعة رجالٍ ، و إنّ المسلمين أسروا سبعين قرشيّاً في معركة بدر ، و في هذا القسم كان أتباع العَنْسيّ يبلغون سبعمئة مقاتلٍ ، و قد أُلقي القبض على سبعين مقاتلاً منهم غداة مقتل العَنْسيّ . أما في القرآن فثمة سبع سمواتٍ (المؤمنون ، ١٧ ؛ فصّلت ، ١٢ ، الطلاق ، ١٢ ، الملك ، ٣ ؛ نوح ، ١٥) . وسيتكرر هذا الرقم مراراً .

[٤٧] الفصيل : ولد الناقة أو البقرة إذا ما فُطم و فصل عن أمه ، و هذا لقب استخفاف و استهزاء بأَبِي بَكْر ، لأن البكر هو الفصيل ، و قد ردّ حسان على ذلك ، د حسان (١ / ٣٣٤) .

عن قُرّة بن هُبَيْرة ، بوصفه أحد أشراف بني عامر ، فأطلقَ سراحَ عُيَيْنَة ، و سراح من كان معه من بني عمه .[٤٨]

عقب هذه الهزيمة النكراء التحق طُلَيْحَة بالشّام ، و في ملجئه بلغه خبر العفو عن قُرّةَ، و عُيَيْنَةَ ، و أن أسداً و غطفانَ و عامراً قد أسلموا فأرسل من ملاذه طلباً بالعفو . ثم خرج نحو مكّة معتمراً في خلافة أَبِي بَكْر ، و مرّ بجنَبات المدينة ، فعلمَ أَبُو بَكْر به ، لكنّه لم يتعرض له ، و علّق قائلاً : ((ما أصنع به ! خلّوا عنه . فقد هداه الله للإِسْلام)) . و لم يزل مقيماً في منفاه الاختياري متردداً في القدوم إلى المدينة حَتَّى مات أَبُو بَكْر ؛ فجاء إلى عُمَرَ ، ثُمّ رجع إلى دار قومه ؛ فأقام بها إلى أن وجهه عُمَرُ للمشاركة في محاربة الفرس مع سعد بن أبي وقاص .[٤٩]

بعد المَعْرَكَة

لم يحصل المسلمون من هذه المَعْرَكَة على سبيٍ ؛ لأن أسداً و غطفانَ أحرزوا نساءَهم، لكنّها أدت إلى إقرار المنهزمين بالإِسْلام خوفاً على أُسَرِهم ، و كذلك إلى انصياع بني عامر ، و اعترافهم بسلْطَةِ الحركة الإِسْلاميّة عليهم .[٥٠] علاوة على بثّ الرّعب من قوات المسلمين في أرجاء الجَزِيْرة العَرَبِيّة .

أما خالدٌ فإنّه أصرّ بعد المَعْرَكَةِ ، و حسب تعليمات أَبِي بَكْر إليه على وجوب تسليم الَّذِين حرّقوا و مثّلوا بالمسلمين أثناء فترة المعارك من أسدٍ ، و غطفانَ ، و هَوَازنَ ، و سُليمٍ ، و طيِّىءٍ . و إذ رضخوا لطلبه ، فإنّه قام بإحراقهم بالنيران و رضَخهم بالحجارة ، و رمى بهم من الجبال ، ونكّسهم في الآبار ، و خَزَق بالنّبال ، ثم كتب إلى خليفته بما فعل .[٥١] و قد استغرق تنفيذ عمليات الانتقام شهراً ، و كان الغرض منها نشر الرعبِ وَسْط القبائل البدويّة الرافضة لسُلْطَة المدينة .

---

[٤٨] كتابُ الرَّدة ، ١٣٦ ، ١٤٠ ـ ١٤١ ، ١٤٤ ـ ١٤٦ ، ١٥٢ ؛ الطبري : ٢ / ٢٦٣ ـ ٢٦٤ ؛ الكامل : ٢ / ٣٤٧ ـ ٣٤٨ ؛ أُسد الغابة : ٢ / ٤٨٥ .

[٤٩] تاريخ الطبري : ٢ / ٢٦٤ ؛ كتابُ الرَّدة / ١٥٣ ـ ١٥٤ ، ١٥٦ ؛ الكامل : ٢ / ٣٤٨ ؛ تاريخ ابن خلدون ، م ٢ ، ج ٢ / ٧٠ ـ ٧١ .

[٥٠] الكامل : ٢ / ٣٥٠ .

[٥١] الطبري : ٢ / ٢٦٥ ؛ الكامل : ٢ / ٣٤٩ ـ ٣٥٠ .

كان تصرفُ خالدٍ متطابقاً من قرارات قيادته في المدينة ، و بنصٍّ صريحٍ مِنْ أَبِي بَكْر حسب الرِّسالَة الَّتِي كتبها لقواد الجند ، و تُظهر أعماله الانتقاميّة أنّ الممارسات الميدانيّة أبان نشأة الدّوْلَة الإسْلاميّة لم تتطابق مع قوانين الأخلاق ، و هذه الممارسات ليست خاصيّة الدّوْلَة الإسْلاميّة ، بلْ خاصية محايثة لتكّون أيُّة دولةٍ ، و في أيِّ عَصْرٍ ، فالمعايير الأخلاقيّة كانت و مازالت منفصلةً كلياً عن السلوك السِّيَاسِيّ في أزمنة نشوء الدول ، و هذه حالة أدركتها نخبة الإسْلام آنذاك ، و قد تجلّى الانفصال بين الأخلاق و السِّيَاسة لا في انتقام خالد بُعيد مَعْرَكَة بُزَاخَة فقط ، بل في مسلكه المفرط في العنف فيما بعد ، و المنفصل عن تبرريه السّماويّ ، إذ كانت مستدعياته أرضيّة تماماً ، و هذا ما سنراه لاحقاً في حركة السّيطرة على الجَزِيْرة العَرَبِيّة ، و عند النخب الَّتِي أدارت هذه العملية ، حيث تنفصل فلسفة الأخلاق ، عن شئون السِّيَاسِيّة و عمليات الفتح لدى مؤسِّسي الدّوْلَة الإسْلاميّة ، و لا يمكن أن نحاكم أحداث نشوء الدّوْلَة الإسْلاميّة ، و لا نشوء أية دولة وفق قوانين الأخلاق المجردة ، بل من منظور الحركة التاريخيّة ؛ و ما نلاحظه أنّ أَبَا بَكْر و غيره لم يفكروا بفلسفة تصرفاتهم أخلاقياً ، بل تحركوا وفق الاعتبارات الاستراتيجيّة ، و بمعايير الفوائد العمليّة ، هذا بغض النظر عن موازينها الأخلاقيّة ، و ربما من الأصح أنْ نقول خلافاً لكلِّ معيارٍ أخلاقيٍّ ، إذ كانت المسألة المُلِحّة في هذا الطور هي مسألة بسط سلطة الحركة الإسْلاميّة على أوسع رقعة في الجَزِيْرة العَرَبِيّة ، و إخضاع القبائل البدويّة لحركة الإسْلام . و إذا كانت ثَمّة قواعد أخلاقيّة تحكم النخب السِّيَاسِيّة ، فهي قواعد خاصة بقضايا الحَرْب و السِّيَاسِيّة ، لا القواعد الَّتِي يجب أنْ يتحلّى بها الفرد العادي في المجتمع المستقر ، الَّذِي ينعم بالسلام ، و لا القواعد الخاصة بالقيادة في أوقات السِّلْم الاجْتِمَاعيّ . إنّ تاريخ نشوء الدول ، و الانقلابات الثوريّة منذ العصور القديمة حَتَّى العَصْر الحديث قائمٌ على العنف و الإبادة ، و يترافق دائماً مع سيل الدماء البشريّة ؛ و لم يسجل التّارِيْخُ أنّ دولةً تأسَّست على أساس طوعيٍّ ، لا عنفيٍّ ، بل إنّ أبسط تعديل سِيَاسِيّ لخريطة الدّوْلَة ، أو تغيير النخبة الحاكمة يكلف ثمناً بشرياً فادحاً . إنّ الدّوْلَة الجديدة لا تُبنى بالعرقِ و الحجارةِ ، بل بالدمِ و الجماجم ، و من غير المحتمل أنْ يقدم التاريخ لنا نموذج دولةٍ نشأت على غير هذه الأسس ، و عندما نَنظر إلى التاريخ من منظورٍ أخلاقيٍّ ، فإنّنا سنجد حقيقةً مفجعةً للقلب ،

و هي أنّ البشريّة لم تكن إنسانيةً قَطٌّ ، و لم تصبح إنسانيةً بعد ، و من المستبعد أنْ تصيرَ إنسانيّةً في الأفق المنظور على الأقلّ .

أمّ زِمْل تقود جيوب المقاومة

بقيت بعض جيوب المقاومة ، إذ اجتمع فُلاّل غطفانَ ، و طيِّىءٍ ، و سُلَيْم ، و هَوَازنَ إلى أم زِمْل (سَلْمى [٥٢] بنت مالك) بنت أمّ قِرْفة بنت ربيعة ، و كانت أمّ زِمْل قد سُبيت من قِبَل المسلمين ، فصارت في حوزة عائشةَ ، الَّتِي أعتقتها لاحقاً ، فرجعت إلى قومها ، ثُمّ شاركت في التّحرك المناوئ للإسْلام ، فقادت فلول مَعْرَكَة بُزَاخَة ؛ و لهذا سار خالدٌ إليها ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، و انتهت المَعْرَكَة بانتصار قواتِ خالدٍ بعد أن قُتلت هي ، و يبدو أنّها كانت تتمتع بهيبةٍ كبيرةٍ وَسْط أتباعها ، إذ تقول الرِّوايَات بأنّه قُتل مئة رجل من أتباعها دفاعاً عنها ،[٥٣] و لعل تأثيرها ، و سلطتها المعنويّة كانتا ناتجتيْن عن حقدٍ شديد على الحركة الإسْلاميّة ، و الَّذِي يعود لما جرى مع أمها أم قرفة (فاطمة بنت ربيعة بن بدر) ، الَّتِي كانت قد أُسرت في حياة مُحَمَّدٍ على يدِ سريّةٍ إسْلاميّةٍ ، كان يقودها زيدُ بن حارثة ، و قد انتهت أم قرفة ـ و هي عجوز كبيرة ـ نهاية مفجعة عندما قام قيس بن المُحسِّر بربط رجليها بحبلٍ و ربطها بين بعيريْن ثم زجرهما فقطّعاها ،[٥٤] و من المفترض أنّ ذلك تمّ بأمرِ زيدِ بن حارثة ـ قائد السّريّة . كان واضحاً أنّ قتلها جاء انتقاماً لما جرى مع ابن حارثة ، الَّذِي كان قد قاد سريّةً سابقةً على قومها ، فتعرّضَ أثناءها لجُرْحٍ مميتٍ ، و كانت أم قرفة هي من تحرّض على القتال في الموقعة الأولى ، الَّتِي أُصيب بها ابن حارثة ،[٥٥] و لم نسمع تنديداً بهذه الفعلة النكراء من قِبل مُحَمَّدٍ أو حَتَّى مواساة للبنت المفجوعة بنهاية أمها المثيرة لأشد مشاعر الألم على الأم ، و المقت الحاد على المسلمين .

---

[٥٢] سلمة ، ابن كثير .
[٥٣] الكامل : ٢ / ٣٥٠ ؛ خلدون ، م ٢ ، ج ٢ / ٧٢ ؛ البداية و النّهايَة .
[٥٤] ابن سعد : ٢ / ٩٠ .
[٥٥] الصّدّيق ، ١٢٤ ـ ١٢٥ .

بنو تميم و تحرك سَجَّاح بنت الحارث بن سُوَيد

كانت قد تشكّلت علاقات بين مُحَمَّدٍ ، و زعماء بني تميم ، و على أساسها اعترف مُحَمَّدٌ بزعامتهم على قبائلهم ، و قد اعتبرتهم كتبُ التاريخ الإسْلاميّ لَاحقاً عمالاً على قومهم بأمرٍ من مُحَمَّدٍ ؛ لكنّهم لم يكونوا عمالاً لأنّهم كانوا زعماءَ قومهم قبل مد روابط الاتصال بحركة الإسْلام . و بعد موت مُحَمَّدٍ ، فإن بعضاً من هؤلاء ((العمال)) قرر الالتحاق بالحركة الإسْلاميّة وفقَ اعتبارات داخليّة خالصة ، ليس فيها شبهة خضوعٍ ، و البعض الآخر رفض الخضوع لها وفق اعتبارات داخلية مغايرة .

لما تُوفّي مُحَمَّدٌ اختلفت مواقف أولئك الزعماء من حركة الإسْلام ، و بالتحديد الموقف من الزَّكاة ؛ و كان الاختلاف مؤسَّساً على التوزيع السيا ـ قبليّ ، و الَّذِي كان على الشكل التالي :

١ ـ الزِّبْرِقان بن بدر : المُعين على الرِّباب و عوف و الأبناء ، فطلب منهم البقاء على الإسْلام ، و أعلمهم بأن طيِّئاً أبقت على علاقتها بالإسْلام ، و أدت الزَّكاة لأَبِي بَكْر . ثم إنّه أرسل صدقات الرباب و عوف و الأبناء ، و تشير الدلائل إلى أنّه أراد بذلك إحراج قيس بن عاصم الَّذِي كان على علاقة سيئة معه ، بالرَّغْمِ مِنْ علو بعض أصوات المعارضة لذلك من قومه .[٥٦]

٢ ـ قيس بن عاصم : على مُقَاعِس و البُطُون . وكان ينتظر قرار الزبرقان ليخالفه.[٥٧] فلمّا طال انتظار قيس ، قرر أن يقسم أموال الزّكاة عليهما . هذا إذا كان قد تمكن من جمعها أصلاً كما تروي الرِّوايَات .

٣ ـ صفوان بن صفوان : على بني عمرو ـ قبيلة من تميم ، و حين وصل إليه خبرُ وفاة مُحَمَّدٍ أرسل إلى أَبِي بَكْر بصدقات قومه مثلما فعل الزبرقان .

٤ ـ سَبْرَة بن عمرو : على خَضَّم ـ قبيلة من بني تميم ـ .

٥ ـ وكيع بن مالك : على بني مالك .

---

[٥٦] كتابُ الرَّدة ، ١٠٦ ، ١٠٨ .

[٥٧] الكامل : ٢ / ٣٥٣ .

٦ ـ مَالك بن نُوَيْرَةَ : على قومه بني يربوع .

كان ثَمّة توترٌ شديدٌ بين قبائلَ بني تميم ، كما عكسته مواقف زعمائهم المختلفة حيال المدينة ، عندما كان يتصرف أحدهم عكس تصرف الآخر ، و قد كان الخلاف على الشكل التالي :

عَوْف و الأبناء في مواجهة البُطون ؛ الرّباب ضد مقاعس ؛ خَضّم ضد بني مالك ؛ بَهْدى ضد بني يربوع .

و قد ازداد الوَضْع السِّيَاسِيِّ سوءاً عندما جاءتهم سجاح بنت الحارث التميميّة ، و الَّتِي كانت تقيم في أخوالها من بني تغلِب من الجزيرة ، و كانت تقود مجموعات من مختلف بطون ربيعة ، و معها : الهُذَيل بن عمران في بني تغلِب ، الَّذِي تتحدث الرِّوايَات عن أنّه كان يعتنق المسيحيّة ، و تبعها كل من : عَقَّة بن هلال في النّمِر ، و زياد بن فلان في إياد ، و السَّليل بن قيس في شَيْبان . فلما وصلت بني تميم تصاعدت حدة التّوتّرِ و القلقِ الداخليّين .[٥٨]

فمَنْ هي سجاح الَّتِي جاءت إلى بني تميم ، و زجت نفسها في صراعات الجَزِيْرة العَرَبِيّة ، و لماذا اختارت بني تميم للبدء بمغامرتها .

سَجاح بنت الحارث بن سويد بن عُقْفان (أم صادر)

يعود نسب سجاح إلى بني يربوع ، و هو بطن من بني تميم ، و أخوالها من بني تغلبٍ ، و كانت متزوجة فيهم ، و بعد وفاة مُحَمَّدٍ أعلنت النّبوّة بالجزيرة في بني تغلب ، فاستجاب لها الهُذيل ـ أحد زعماء بني تغلب ، و ترك المسيحيّة . و كان لسجاح مُؤَذّنٌ يؤذّن لها ، و يقول : ((أشهدُ أنّ سجاحَ نَبيّة اللَّهِ)) .[٥٩] هذا ما تقوله المصادر الإِسْلاميّة عنها ، و لا يوجد ما يفيد عن حياتها قبل هذه المرحلة ، و كيف تحركت ، و متى بالضبط أعلنت النّبوة . و من المعتقد أنها كانت تعتنق المسيحيّة ،[٦٠] و لا توجد تفاصيل عن عقيدتها ، و ربما كانت هذه العقيدة تقوم على معتقدات القبيلة المسيحيّة الَّتِي عاشت في كَنَفِها ، مع بعض الشرائع في القضايا

---

[٥٨] الكامل : ٢ / ٣٥٤ .
[٥٩] كتابُ الرَّدة ، ١٧٠ ؛ فُتُوح البُلدَان ، ١٠٨ ؛ الصّدّيق ، ١٢٨ .
[٦٠] البداية و النّهايَة .

العمليّة . كما يمكن أن تكون محاولةً لاستبدال معتقدات تغلب الَّتِي تؤمن بطبيعة واحدة للمسيح بمعتقدات تميم النّسطوريّة ،[٦١] و قد تكون مزيجاً من المسيحيّة و الوَثَنِيَّة تشكّل جرّاء التداخل الاجْتِمَاعيّ بين قبائل المنطقة ، والَّتِي تتعرّض لتأثيراتٍ ثقافيّةٍ من فارسَ ، و من المسيحيّين الهاربين من بيزنطةَ ، إضافةً للعوامل المحليّة .

عندما وصلت سجاح أرض تميمٍ ، عقدت اتفاقَ سلامٍ مع مَالك بن نُوَيْرَةَ ، و وكيع ، و لعلّ الاتفاق تمّ مع ابن نُوَيْرَة كونه ينتسبُ إلى بني يربوعٍ ، و الّذين تنتسب إليهم سَجاح أيضاً ؛ فقرّر هؤلاء الثلاثة (سَجاح ، و مَالك ، و وكيع) تجنبَ الصّراع مع قيس بن عاصم لما رأوه متردداً ، آملين بأنْ ينضم إليهم . و حسب تعليمات سجاح قرروا مهاجمة الرباب ؛ وبالفعل حدثت مصادمات بينهما ، فزاد هذا من حدة الشّقاقِ بين بطون بني تميم .

ثُمّ إنّ مالكاً و وكيعاً قررا إبطال التحالفَ مع النَّبِيّة من أجلَ تحقيق السّلْم الداخليّ ، ويبدو أنّهما آثرا فكّ التحالف معها وفق اعتبارات عدة ؛ فأولاً ، لم تظهر سجاح عزيمةً قويةً في منازلة أعدائها ، و ضعف عزيمتها ناتج غالباً عن قلّة عدد قواتها ، و من الممكن أنّها كانت ترغب بالتحالف مع بني تميمٍ ، و لم تكن ترغب بالمجابهة معهم ، أي إنّها بدورها كانت تخشى الفتنة على قومها ؛ ثانياً ، لا شك إنّ زعماءَ بني تميمٍ كانوا يدركون أنّ أيَّ صراعٍ داخليٍّ محتملٍ سيدمر حياتهم القبلية المشتركة ، بل حَتَّى منَ الممكن أنّ أفرادَ بني تميمٍ لمْ يكونوا يؤيدون الصّراع ، و التطاحن الداخليّ ، لاسيما بغياب العناصر الحافزة على الاقْتتال . و إذ أنهى مالك و وكيع التحالف معها ، فإنّهما وافقا على السماح لها بالعبور عبر أراضيهما و حسب ؛ [٦٢] فغادرت سَجاح أرضَ تميمٍ ، و اتجهت صوب مُسَيْلِمة .

قتل مَالك بن نُوَيْرَةَ بالبُطاح

بعد دَحْره قوات طُلَيْحَة و انتهائه من عمليات التنكيل بالأعداء ، قرّر خَالدٌ التوجه صوب مَالك بن نُوَيْرَةَ ؛ فرفض مقاتلو الأنصار المسير معه بدعوى أنّهم لم يتلقوا كتاباً من أَبِي بَكْر بهذا الشأن ، و كان الأنصار يستندون إلى قرارٍ سابق

---

[٦١] وات ، ٢١١ ـ ٢١٢ .

[٦٢] تاريخ الطبري : ٢ / ٢٦٨ ـ ٢٦٩ ؛ الكامل : ٢ / ٣٥٤ ـ ٣٥٥ ؛ تاريخ ابن خلدون ، م ٢ ، ج ٢ / ٧٢ .

للخليفة ، و ذلك عندما بعث خالداً إثر عدي إلى طيّىء ، و طلب منه ألاّ يتوجه إلى ساحة قتال أخرى حَتَّى يتلقى أوامر من المدينة ؛ فكان ردُّ خالدٍ على الأنصار ، بأنّه عليه انتهاز الفُرصْةَ المناسبة للسيطرة على قبائلَ تميم الرافضة للخضوع إليهم ، و التّأخّر عن اغتنام الفرصة قد يضيعها ؛ و هو بذلك كان يستندً إلى حقِّ القائد الميدانيّ في المبادرة تجاه وَضْعية ديناميكيّة تتطلب سرعة الحركة ؛ فعلى القائد أنْ يدخل المَعْرَكَة الَّتِي يكون فيها النصر أكيداً ، و حَتَّى لو كان الحاكم يحظر عليه ذلك ؛ [٦٣] و لهذا قرّر خالد المسير بمن معه من المهاجرين ، و إزاء ذلك لم يملك الأنصار إلاّ اللحاق به بعد أن تشاورا فيما بينهم ، و خافوا مغبة أنْ يُصاب الجيشُ بمصيبة يمكن أنْ تضعهم موضع الاتهام من قبل المهاجرين ، أو حرمانهم من الغنائم في حال الانتصار . [٦٤]

في غضون ذلك كانت قبيلة مالكٍ ـ بني يربوع ـ منقسمة على نفسها بصدد الانصياع للمدينة ، فمنهم مَنْ كان مع إعطاء الزَّكاة ، و منهم ضدَ ذلك ؛ و هذا ما أقلق مالكاً، و أضعف موقفه ، لا سيّما بعد إعلان حليفه الوحيد في بني تميم ـ وكيع بن مالك ـ خضوعه للمدينة ، و تقديمه أموال الزّكاة إلى خالد عندما اقترب منه ، و قد علّل وكيعٌ لخالدٍ السبب الَّذِي جعله يناوئ سلطة الإسْلام بأنّه كان يرغب بتصفية حسابات سابقة ، و إنَّ الظروفَ السِّيَاسِيّة كانت ملائمة . كما أنّ قَيس بن عاصم أعلن استسلامه ، عندما أقترب منه العلاء بن الحضرميّ ، و أخرج الصدقة ؛ [٦٥] و يبدو أنّ علاءً كان قائداً في جيش خالدٍ ، إذ لا يوجد ذكرٍ في المصادر لجيشٍ بقيادته في هذه المرحلة . بهذا بقي ابن نُوَيْرَةَ الوحيد ، الَّذِي لم يعترف بسلطة المدينة في بني تميمٍ ، مع مَنْ اجتمع إليه بالبُطاح .

وصل خالد إليهم ، و عسكر بأرضهم ، فقرّر مالكٌ عدم مجابهة قواتِ خالدٍ ، و طلب من مقاتلي قبيلته التفرّق بالدّيار ، وعدم خوض القتال حقناً للدماء ، كانت رغبته في التّوصّل إلى اتفاقِ سلامٍ واضحةً من قراره هذا . ثُمّ إنّ إحدى السّرايا الَّتِي بعثها خالدٌ لتجوب المنطقة ألقت القبضَ علَى مَالك بن نُوَيْرَةَ ، و هو في بستان له ، و معه امرأته ، و جماعة من بني عمه ، فأخذتهم السّرية بما فيهم زوجُ

---

[٦٣] Sun Tzu, op.cit., (X , 23).

[٦٤] كتابُ الرَّدة ، ١٥٧ ؛ الكامل : ٢ / ٣٤٦ ، ٣٥٧ ـ ٣٥٨ .

[٦٥] تاريخ الطبري : ٢ / ٢٧٢ ؛ الكامل : ٢ / ٣٥٤ ، ٣٥٧ ؛ كتابُ الرَّدة ، ١٥٨ .

ابن نُوَيْرَةَ الَّتِي كانت بها مسحة جمال .[٦٦] و يبدو أنّه كان منوطاً بالسرية القبض على ابن نُوَيْرَةَ ؛ لأنّها لم تجده خارج بستانه ، بل توجهت إليه رأساً ، كما لم تلقِ القبض على غيرهم .

أمر خالدٌ بقتل الأسرى ، فاحتَجَّ شيخٌ منهم بأن أَبَا بَكْر قد نهى عن قتل منْ صلّى إلى القبلة ، لكن خالداً أنكر صلاتهم ؛ فتدخل أبو قَتَادَة مؤكداً لخالد صلاتهم ، و أخبره أنّهم صلوا سوّيةً بُعيد أسرهم ؛ لكنَّ خالداً أمضى قراره بقتل الأسرى بحجة أنّهم منعوا الزَّكاة ، و هذا مبرر كافٍ لقتلهم . و لما جاء دور مالك ليُضرب عنقه ، سأل خالداً ، كيف يقتله و هو مسلم يصلّي ، فأجابه خالد بأنّه لو كان مسلماً لما منع الزَّكاة ، و لا أمر قومه بمنعها ؛ و في هذه اللَّحظة التفت مالكٌ إلى امرأته و قال : ((يا خالد بهذه تقتلني)) ،[٦٧] و تقول إحدى الرِّوايَات إنّ خالداً ، و بعد أنْ قُطعَ رأس ابن نُوَيْرَةَ ، أمر بأنْ يُوضع الرّأس المقطوع ، و يجعل مع حجريْن من أجل أن يطبخ على الثلاثة درأً [٦٨] فأكل منها خالد تلك اللَّيْلَة ليرهب بذلك الأعراب الرافضين .[٦٩]

و الرِّوايَة الأخرى تفيد بأنّ خالداً كان قد قرّر الانتظار ، بعدما حدث الخلاف بصدد الأسرى هل هم على الإسْلام أم لا ، فحبسه عند ضرار بن الأزور ، و كانت اللَّيْلَةُ باردةً ، فأمر خالد منادياً ، فنادى : ((أدفئوا أسراكم)) ، و هي في لغة كنانة القتل ؛ فظنّ القوم أنّه أراد قتلهم ، فقتلهم ضرار و كان كنانيّاً و لم يكن خالد يُرِد إلاّ الدفء ؛ فلما سمع خالدٌ الصراخ و الجلبة على الميت و نعيّه ، قال : ((إذا أراد الله أمراً أصابه)) .[٧٠]

لم يمنع هذا الخطأ ـ حسب الرِّوايَة الثّانية ـ خالداً من التزوج من امرأة ابن نُوَيْرَةَ المقتول للتو ، و هذا أمر تتفق جميع الرّوايات على حدوثه ، و على الرَّغْمِ مِنْ أن التقاليد العَرَبِيّة كانت ترفض هذا المسلك في الحَرْبِ ، و ترى فيه أمراً يلحق العار بمرتكبه .

---

[٦٦] كتابُ الرَّدة ، ١٦٠ ؛ تاريخ الطبري : ٢ / ٢٧٢ ـ ٢٧٣ .
[٦٧] كتابُ الرَّدة ، ١٦١ ـ ١٦٣ .
[٦٨] الدّرُ : اللبَن ، الرائد .
[٦٩] البداية و النّهايَة .
[٧٠] الكامل : ٢ / ٣٥٨ ؛ تاريخ ابن خلدون ، م ٢ ، ج ٢ / ٧٣ ـ ٧٤ .

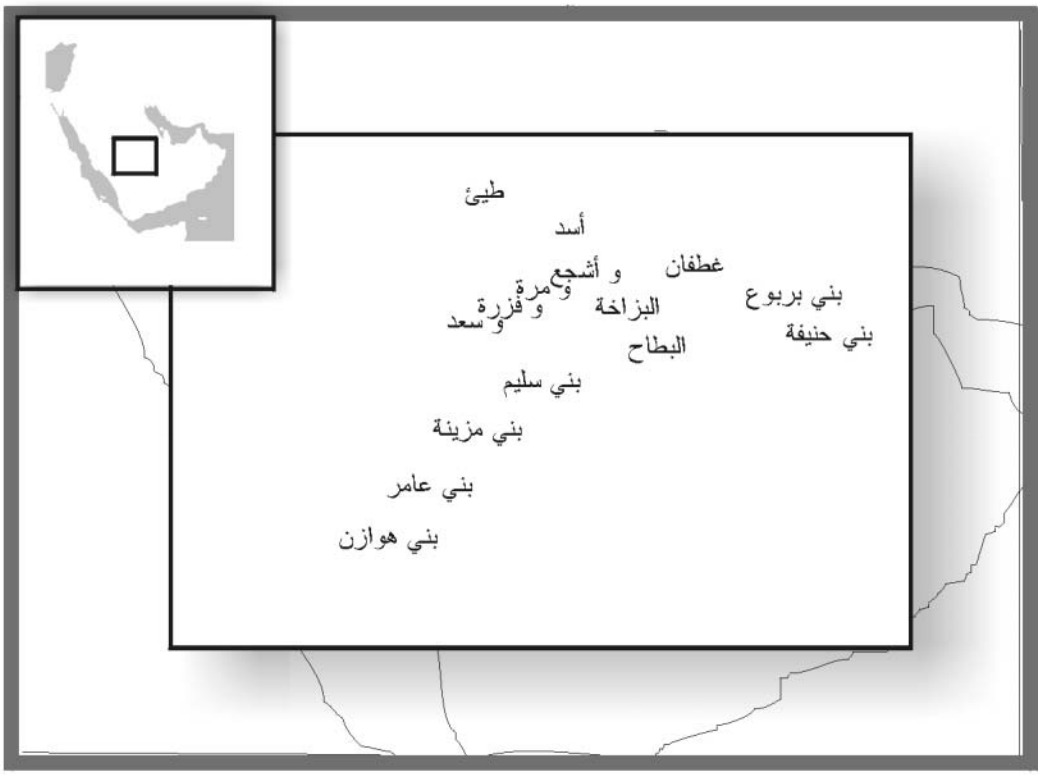

مواقع المعارك الأولى

[Blank Page]

في الحقيقة نحن لا نستطيع أن نفسّر تصرّف خالدٍ مع ابن نُوَيْرَةَ بدواعٍ عسكريّة ، فالكائن البشريّ يملك في لاشعوره طاقةً تدميريّةً هائلةً ، و هي مشحونة بشدة ، و متجذرة بعمقٍ ، في مسلكه اليوميّ يفصح الكائن البشريّ عن هذه النّزْعة في عباراتٍ عفويّةٍ ، و التي تبدو و كأنّها مجردُ كلامٍ عابرٍ ، نطق به اللّسان في لحظة تذمر و غضب ، و القتل الَّذِي يرتكبه بعض المجرمين في حالاتٍ معينة ، تُعتبر أسبابها تافهةً جداً عند كلِّ ذي عقلٍ متوازنٍ، يجب أنْ ننظر إليه على أنّه حالةٌ أفلتت بها هذه الرغبة التدميريّة من السّيطرة ، و خالدٌ في البُطاح كان ينظر إلى ابن نُوَيْرَةَ كعائقٍ أمامه من أجل الحصول على الأنثى الَّتِي رغب بها ، أي إنَّ ابن نُوَيْرَةَ كان بالنسبة لخالدٍ كأَبحاً لرغبته في الامتلاك . و إذ حاكمنا تصرفه هنا و في ساحات أخرى بشكلٍ مجردٍ فإننا نجد أن بواعث تصرفاته تعود إلى نفس الدوافع الَّتِي حركت الفجاءَة السُّلميّ ، إذ لا يوجد فرقٌ أخلاقيٌّ بينهما في هذه الحالة ؛ كلاهما كان يحوز على نزعة قتلٍ و تدميرٍ هائلةٍ ، و كلاهما سعيا لإشباع هذه الغرائز ، لكنّ الفارقَ الوحيدَ إنّ خالداً كان يتحرك في إطار مشروع بناءِ دولةٍ ، و قد قيض لمشروع الدّوْلَة الإسْلاميّة أنْ ينجح ، في حين أنّ الفجاءة لم يكن يتحرك في إطار مشروعيّة سياسيّة تجعل ما فعله أمراً قانونيّاً ، لا يثير الاستهجان ، و لو كانت تحركاته تمت لصالح حركة الإسْلام لكان موقعه في التاريخ الإسْلاميّ مختلفاً ؛ كذلك الأمر بالنسبة لخالد بن الوليد ، لو أنّ مشروع بناء الدّوْلَة فشل ، لما سُجلَ اسمه في سجل الأبطال ، و العظماء ، و لنُظر إليه اليومَ كما ينُظر إلى الفجاءَة السُّلميّ . و قد علقّ طه حسين على مقتل ابنِ نُوَيْرَةَ ، قائلاً : ((تبين هذه القصة ميل خالدٍ للعنف والقتل، و تظهر حبه للتزوّج ؛ كما تظهر لنا خُلُقاً ثالثاً لم يكن مقصوراً على خالدٍ ، و إنما كان خُلُقاً معروفاً في عشيرته من بني مخزوم و هو العُجب و الخُيلاء)) .[٧١]

أغضبت هذه المجزرة أبا قَتَادَة الَّذِي عاهد اللَّه ألاّ يشهد مع خالدٍ حرباً أبداً بعد ذلك اليوم .[٧٢] و لربما كان يدرك أن غاية الحَرْب هي تقويض العدوِّ ، و من الحق قتل حُماتِها ما داموا حاملين سلاحاً ، فإذا ما وضعوا السلاح و سَلّموا أنفسهم

---

[٧١] الشيخان ، ٧٢ .

[٧٢] تاريخ الطبري : ٢ / ٢٧٣ ؛ كتابُ الرِّدة ، ١٦٢ ـ ١٦٣ ؛ الكامل : ٢ / ٣٥٨ .

كفوا عن كونهم أعداءً أو أداةً للعدوّ ، و أصبح لا يكون لأحدٍ حَقٌّ في نَزْع حياتهم ؛[٧٣] فرجع إلى المدينة ، و قد كلّم شخصيات المدينة بشأن ما جرى ، و أراد أنْ يدخل على أَبِي بَكْر ليشكوا إليه خالداً ، فأبى أَبُو بَكْر لقاءه غضباً عليه لأنّه ترك الجيش من غير إذن من أميره.[٧٤] كان رفض أَبِي بَكْر لقاءه نابعاً من ضرورة الانضباط العسكريّ ، و رغبته بمنع أفراد الجيش من التصرف على هواهم ، إذ إنّ رفضه استقبال أبي قَتَادَة كان يعني رفضه للفوضى و تأكيده على أهميّة الالتزام بطاعة القادة الميدانيين ، و بغض النظر عن الانتهاك الَّذِي أُرتكب من قِبلهم ، و ما إذا كان هذا يعجب أفراد الجيش أم لا .

لما آب خَالِدٌ بن الوَلِيدِ من البُطاحِ كان يلف عمامةً على رأسه ، و قد غرز فيها أسْهُماً؛ فلقيه عُمرُ بن الخطّاب ، فأنتزع الأسهم ، و حطَّمها ، ثم قال : ((أرِئاء ! قتلتَ امرأً مسلماً ، ثم نزوت على امرأته ! واللَّه لأرجمنّك بأحجارك)) . ثم إنّ خالداً اجتمع بأَبِي بَكْر ، و أعتذر منه ، فقبل منه الخَلِيْفَة عذره ،[٧٥] و برر عفوه للناسِ بـ : ((أنّه تأوّل فأخطأ)) .

لم يكن تبرير أَبِي بَكْر لما فعله خالدٌ ينحصر في ضرورة مناصرة القائد الميداني وحسب ، بل توجب على الخَلِيْفَة تجاوز هذه الجريمة بسبب من المهمات الصعبة الَّتِي ما زالت تنتظر الحركة الإسْلاميّة ؛ و لأنّه كان يدرك أهمية عدم تعريض خالد لهزة معنويّة ، أو إضعاف روحه القتاليّة في مَعْرَكَة شرسة لاحقاً ، مما كان سيؤثر على سير العمليات العسكريّة. و عندما ألحّ عُمَرُ على أَبِي بَكْر من أجل عزل خالد ، و أضاف : ((إنّ في سيفه رَهَقاً)) ،[٧٦] فإن الخَلِيْفَة بقي رافضاً لمعاقبته ، و أكتفي بدفع دية ابن نُوَيْرَةَ ، و بذلك يعترف الخَلِيْفَة بالطبيعة الجرمية لسلوك خالد ، لكنّه لم يكن ليتخلى عن ((سيفٍ سلّه اللَّه على الكافرين)) على حد تعبيره ، و هو بذلك يقتدي بنَبِيّه الَّذِي تجاوز عن خالد بعد حادثة بني جذيمة .[٧٧]

---

[٧٣] العَقْدُ الاجتماعيّ ، ٣٩ .
[٧٤] الشيخان ، ٧١ .
[٧٥] الطبري : ٢ / ٢٧٤ ؛ الكامل : ٢ / ٣٥٩ .
[٧٦] الرَهَق : غِشْيان المحارم من شرب الخمر و نحوه ، و فيه رَهق أي حدة ، و خِفّة .
[٧٧] تاريخ الطبري : ٢ / ٢٧٣ ؛ الكامل : ٢ / ٣٥٩ ؛ تاريخ ابن خلدون ، م ٢ ، ج ٢ / ٧٤ .

لقد بقي أَبُو بَكْر يستحضر من ذاكرته ما نسيه الآخرون ، ليبرر موقفه المتساهل من خالدٍ ، فقال بأنّه سمع مُحَمَّداً يقول عنه : ((نِعم عبد اللَّهِ و أخو العشيرة خَالِد بن الوَليدِ ، سيفٌ من سُيُوف اللَّه سلّه على الكفّار و المنافقين)) .[٧٨] و يقول ابن سعد بأنّ ما دفع أَبَا بَكْر لذكر هذا الحديث النَبَوِيّ هو أنّ خَالِد بن الوَليدِ توجه للقضاء على تمرد في بني سُليم ، و هناك جمع منهم رجالاً في حضائر ثمّ أحرقهم بالنّار ، فجاء عُمَرُ إلى أَبِي بَكْر ، فقال له : ((انْزِعْ رجلاً عذّب بعذاب اللَّه)) ، فقال له أَبُو بَكْر : ((لا أشيم سَيفاً سَلَّهُ اللَّه على الكفّار)) .[٧٩] و لن يكون هذا التعليق الإيجابي الوحيد بحقِّ خالدٍ ؛ ففي سنة (١٢ هـ) عندما دخل خالد أَمْغِيْشِيَا ـ في العراق ـ و كان أهلها قد جلوا عنها ، و تفرّقوا ، أمر خالد بهدم البلدة ، و كانت حسب قول الرواة مِصْراً (مدينةً) كالحيرة ، فلما وصلت الأنباءُ أَبَا بَكْر قال : ((أعجزت النساء أن ينسلن مثل خالد !)) .[٨٠]

لم يكن مستغرباً ألاّ نسمع أصواتاً منددة بخالدٍ ، و لا من قِبل أيِّة شخصيّة صحابيّة ، و ذلك ، لأنّ هذه الاستراتيجيّة كانت بموافقة الخَلِيْفَة ، و كانت السبيل الوحيد لتحقيق انتصارات تالية ، إذ لما توصلت نخبة المدينة إلى خيارِ الحَرْبِ أدركت ما يعنيه هذا الخيار ، و كان إرهاب العدو وسيلةً ضروريّةً من أجل تحقيق نجاحات استراتيجيّة في الميدان ؛ و في الحَرْبِ لا يُحسب حسابُ الحياة الفردية للمدنيين ، و بالأخص حياة مدنيي العدو ؛ و من جهة أخرى كان السبب الثاني لغياب الأصوات المعارضة ، هو إنّ الحَرْبَ ضد أيّ عدوٍ تغيّب الجوانب العقلانيّة في التّفكير ، و تشلّ المشاعر الإنسانيّة بما لها من دور كبيرٍ تلعبه في تغذية الجوانب اللاعقلانيّة في الإنسان ، و إثارة غرائز العنف البدائيّة فيه ، و ليس في العَصْر السالف ، بل حتى في عصرنا الحالي ، الَّذِي ندعي أنّنا ارتقينا قمماً حضاريةً عاليةً ما زالت البشريّة تبرهن على قوة الشرّ الكامنة فيها ، و على الرغم من تراث عشرات القرون من الحضارة ، و الثقافة ((الإنسانيّة)) .

---

[٧٨] تاريخ الخلفاء ، ١١١ .
[٧٩] ابن سعد : ٧ / ٣٩٦ ؛ و الحَضائِر ج الحُضيْرة ، و هي موضع التمر .
[٨٠] تاريخ الطبري : ٢ / ٣١٥ .

الاستثناء الوحيد كان يشكّله عُمرُ بشخصيّته المثيرة و الرقيقة ، الَّذِي كان يعرف بأنّ خالداً قد أرسل قادة أشهروا السيف ضد الحركة الإِسْلاميّة (مثل : عُيَيْنة بن حِصْنِ الفَزَاري ، و الفجاءة) و لم يقتلهم ، بل ترك أمر عقوبتهم للخليفة ، أما بالنسبة لابن نُوَيْرَةَ ، فقد كان الغرض واضحاً من قتله إياه ، لا سيّما أنّ ابن نُوَيْرَةَ لم يشهر السلاح ، و طلب من مقاتلي بني يربوع عدم التّأهب ؛ و لن ينسى لخالد فعلته ، و غيرها من الخروقات الكثيرة الَّتِي اقترفها في حروبه ، فما أنْ يتسلّم مقاليد السُّلْطَة عقب وفاة أَبِي بَكْر ، حَتَّى يكتب إلى أبي عُبَيْدة بن الجّراح بنقل قيادة الجند إليه ، و قال بعد هذا الكتاب : ((لا يلي لي عملاً أبداً)) .[٨١]

في غضون ذلك كان مُسَيْلِمة يوطد سُلْطَته في بني حنيفة ، كما أنّه تلقى تأيداً من نَهار الرَّجال بن عُنْفُوَة . و كان نَهار قد هاجر إلى مُحَمَّدٍ ، و إطّلعَ على فحوى العقيدة الإِسْلاميّة ، فبعثه مُحَمَّدٌ من أجل أن يحاول نشر الإِسْلامِ في الْيَمَامَةِ ، و ليحاول سحب البساط من مُسَيْلِمة، لكنّه بدل من ذلك أنضم إليه ، و أيده ؛ فاعتبرت قيادة المدينة انضمام نهار إلى مُسَيْلِمة أمراً أكثر فتنة من نشاط مُسَيْلِمة نفسه .[٨٢]

مُسَيْلِمة

تقول بعض الرِّوايَات إن مُسَيْلِمة بن حبيب [٨٣] شرع بنشاطه في السّنَة التاسعة هجرية، و نحن نعتقد أنّه برز خطره في تلك السّنَة ، على اعتبار أنّ نشاط أيّة حركةٍ لا يؤتي أُكله في غضون أشهر ، و الاعتقاد بأنّه بدأ دعوته في السّنة التاسعة يعود إلى نقص شديد في المعلومات من جهة ، و التشويه اللاحق لسيرته من جهة أخرى ؛ علاوة على أمر هام هو أنّه ظهر تعارضه مع الحركة الإِسْلاميّة جلياً في هذه الفترة بالذات ، و بالتالي برز لسطح الأحداث في عيون المؤرخين الإِسْلاميّين في هذه المرحلة ؛ و مما يرجح قِدَم نشاط مُسَيْلِمة الدينيّ هو أنّ أعداء مُحَمَّدٍ القُرَشيّين أكدوا بأنّه يتلقى الوحي من رجل من الْيَمَامَةِ اسمه **الرحمان** ، و إنْ كانت المعطيات التاريخيّة العامة لا تسمح لنا بالقول بأنّ مُسَيْلِمة

---

[٨١] الكامل : ٢ / ٤٢٦ .
[٨٢] الكامل : ٢ / ٣٦١ .
[٨٣] ثُمامة بن كبير بن حبيب عند البلاذري .

كان له نشاط ضد مُحَمَّدٍ خلال فترة الدعوة المكّيّة ،[٨٤] و في الفترة اليثربيّة قبل السّنَة التاسعة للهجرة .

ملامح شريعة مُسَيْلِمةَ

إنّ المعلومات المتوفرة عن عقيدة مُسَيْلِمةَ قليلةٌ للغاية ، و قد تعرضت لتحريفٍ واضح، و كل ما نملك عن عقيدته أنّه حرم ممارسة الجِنْس لِمَن عنده ولد ذكر ، و الاستثناء الوحيد لذلك ، هو حاجة الرجل لإنجاب ولد ذكر في حال وفاة ولده ،[٨٥] و نجد في خطبه أفكاراً من المسيحية بأكثر مما نجد في أحاديث مُحَمَّدٍ ،[٨٦] و بكلمات **ف. بارتولد** فإنّ مُسَيْلِمةَ كان يقف أكثر ٠ قرباً إلى المسيحيّة ، و إلى الإسْلام المبكر من مُحَمَّدٍ نفسه في نهاية حياته ؛[٨٧] بينا يرى **جيب** أنّ حركة مُسَيْلِمة تأثرت بالنسطورية Nestorian . على أنّ ثَمّة رأياً يعتبره من أئمة حركة الأحناف خارج الحِجَاز .[٨٨]

يعود التَّبَايُن في تقييم عقيدة مُسَيْلِمة إلى أنّ المصادر التاريخيّة لا توفر لنا أيّة معطيات دقيقة بصدد عقيدته تسمح لنا بتحديد طبيعتها ، و ما هي مصادرها الفكريّة ، و الفرض الأكثر معقوليّة هو أنهّا تستند في بعض ممارستها للمسيحيّة ، و يبدو أنّ تأثّرها بالمسيحيّة عائدٌ إلى عاملَيْن : الأول ثقافيّ ، هو سعة انتشار المسيحيّة بين بني حنيفة ؛ و الثاني ، الوَضْع الاجتماسيّ في الْيَمَامَةِ الَّذِي سمح للمسيحيّة بترك هذا الأثر البَيّن . و بالنسبة لمنعه ممارسة الجِنْس إلا للإنجاب فإنّ من غير المعقول أنْ يتم فرض هذا القيد الشديد بصدد الجِنْس على جميع اتباعه ، مما كان سيبعد عنه الناس ، فهذا المسلك لا يقدر على الالتزام به إلاّ قلةٌ متميزةٌ جداً ، تتمتع بقدرة تصعيد (Sublimation) غريزة الجِنْسِ ، و تحويلها نحو حالة الاتحاد مع المطلق ، متسامية نحو السماء عوضاً عن الأرض ؛ و لهذا فثمة احتمالان : إما أنّ مُسَيْلِمة حثّ أتباعه على عدم ممارسة الجِنْس ، و المسألة لا

---

[٨٤] الفرقان : ٦٠ ، تفسير القرطبي ، و الطبري ، و البغوي ، البيضاوي ، وات ٢٠٣ ، كليموفيتش ، ١٧ .
[٨٥] تاريخ الطبري : ٢ / ٢٧٠ ؛ الكامل : ٢ / ٣٥٥ .
[٨٦] بروكلمان ، ٨٥ .
[٨٧] كليموفيتش ، ٤٠ .
[٨٨] كليموفيتش ، ١٨ .

تتعدى كونها سُنَّةً ـ حسب المصطلح الإِسْلاميّ ـ تحثّ شريعة مُسَيْلِمة على التمسك بها إنْ أمكن ، أو إنّ هذا المسلك غير مفروض إلاّ على شريحة خاصة .

لاشك إنّ الوضع الاجْتِمَاعيّ سمح للمسيحيّة بترك بصماتها على مجتمع الْيَمَامَةِ ، إذ كان تطور الإنتاج فيها على درجة كبيرة ، و قد بلغ حداً أنهم كانّوا يستعينون بالعبيد في أعمال الزراعة ، و كما استعانوا بالموالي من العجم و المجوس ، و يعود السبب إلى كثرة إنتاجها الزّراعيّ من الحبوب ، والَّذِي اشتهرت بجودته ، و الَّذِي سمح به وفرة المياه فيها ؛[٨٩] و هذا ما جعل بنيتها السِّيَاسِيّة معقدةً بالمقارنة مع بقيّة مجتمعات الجَزِيْرة العَرَبِيّة ، كما سمح لها بأنْ تكون قبيلةً قويةً ، و موحدةً سِيَاسِيّاً تحت قيادة مُسَيْلِمة ، و يلاحظ غياب الصراعات الداخليّة فيها ، باستثناء جماعة صغيرة بقيادة ثمامة بن أثال الَّذِي تحالف مع المدينة ، و لم تكن ذات أهمية تذكر .[٩٠]

بلورت هذه العوامل الاجتماسيّة مجتمع الْيَمَامَةِ طبقيّاً ، و خلق مؤسَّسة تحاذي آلةَ الدّوْلَة ، و هذه المؤسَّسة كانت شرط كل المجتمعات الطّبقيّة في طور التّبلور ، و قد كانت هذه هيئةً متفردةً في شمال الجَزِيْرة العَرَبِيّة ، و لم تكن المؤسَّسة السِّيَاسِيّة للمدينة في شخص الحركة الإِسْلاميّة تدانيها تطوراً ؛ لأنّ الوَضْعية التاريخيّة لليمامةَ كانت أكثر تقدماً ، لكن مصير الْيَمَامَةِ سيكون نفس المصير اللاّحق للدولتيْن العظميْن آنذاك (فارس ، و بيزنطة) حيث حققت قوة خارجة من الصحراء انتصارات ساحقة على الكيانات المجاورة الأكثر تطوراً، و التاريخ القديم محكوم بهذا القانون ، إذ الأقل حضارةً يدمر الأكثر حضارةً ، و قد أخذت هذه القانونيّة التاريخيّة مسارات مختلفة ، و فيما يتعلّق بالحركة الإِسْلاميّة الصاعدة أفضى هذا المسار إلى هيمنة الفاتحين العرب ، و هم الأدنى في سِلّم التطور ، ثم تبعتها سيرورة استيعاب ثقافات البلدان المَغزوة و نشوء حضارة تفاعليّة ، جعلت المنطقة لقرون مركزَ الحضارة العالميّة ، هي **الحضارة الإِسْلاميّة** ، و هي ليست عَرَبِيّة بالمفهوم القوميّ ، و إنْ كان العربُ شاركوا فيها مثل جميع القوميات ، و كذلك جميع الأديان ، و الاعتبار الَّذِي جعلنا نقول عنها إِسْلاميّة هو الإطار العام الَّذِي تحركت فيه القوميات ، و الأديان و حسب .

---

[٨٩] قُرَيْشٌ : من القبيلة ، ١٠٤ ، ١٩٣ .
[٩٠] شوفاني ، ١١٤ .

إنّ التمايز الواضح في تركيب مجتمع الْيَمَامَةِ من عوامل صعوبة التبشير فيه بالإِسْلام، و سيواجه المسلمون قبيلةً موحدةً ، و متماسكةً ، خلافاً للقبائل الَّتِي اصطدموا بها سابقاً . و هو المجتمع الوحيد ، الَّذِي كان متماسكاً ككلٍّ في مواجهة حركة الإِسْلام ، و قد كلفت السّيطرة على الْيَمَامَةِ ثمناً باهظاً جداً كما سنرى فيما بعد .

الصدام مع الحركة الإِسْلاميّة

قلنا إنّ نشاطَ مُسَيْلِمةَ الدينيّ لا بدّ أنْ يكون سابقاً للسّنَة التاسعة للهجرة ، و هذه الرّؤية مستندة إلى نصٍّ قرآنيٍّ ،[٩١] فالقرآن هو مصدرنا الوثيق فيما يخص السيرة النَبَوِيّة . أمّا بالنسبة للصدام بين الإِسْلام و مُسَيْلِمةَ فلم تصلنا أيُّة روايةٍ تفيد عن حدوث صدام بين حركة مُسَيْلِمة و حركة الإِسْلام أبانَ فترة الدعوة المكّيّة ، و كذلك في مرحلة المدينة ، و أوّل رواية تتحدث عن الصّدام الأول بينهما كانت في السّنَة التاسعة للهجرة ، حيث تفيد بعض الرِّوايَات أنّ مُسَيْلِمةَ كان ضمن أعضاء وفدِ بني حنيفةَ الَّذِي زار مُحَمَّداً في هذه السّنَة ، و أنّ لقاء الوفد جرى بمحضر أصحاب مُحَمَّدٍ ، و كان مع مُحَمَّدٍ عَسِيبٌ من سعَف النَّخل ،[٩٢] و في أثناء اللقاء تحدث مُسَيْلِمةُ ، فردّ مُحَمَّدٌ عليه : ((لو سألتني هذا العَسِيْب الَّذِي في يدي ما أعطيتك)) ، وأنّه لما عاد إلى الْيَمَامَةِ أعلن النّبُوّةَ .[٩٣]

لم نعرف مضمون الحوار الَّذِي دار بين الرجلْين ، أو بين وفد بني حنيفة ، و رجالات الحركة الإِسْلاميّة ، لكن توجد إشارة غامضة إلى محاولة تفاوض ، إذ قال مُسَيْلِمة : ((إنْ شئتَ خلينا لك الأمر ، و بايعناك على أنّه لنا بعدك)) ، فقال مُحَمَّدٌ : ((لا و لا نعمة عين ، ولكن اللَّه قاتلك)) .[٩٤] و من المرجح أن مُسَيْلِمة طلب من مُحَمَّدٍ حقوقاً محددةً ، تضمن لبني حنيفةَ التساوي ، أو الاعتراف بمساواة

---

[٩١] الفرقان : ٦٠ .
[٩٢] **العَسِيْب** : قضيب من النخل نزع عنه ورقه ، و **السّعَف** : أغصان النخل ، الرائد .
[٩٣] تاريخ الطبري : ٢ / ١٩٩ ؛ الكامل : ٢ / ٢٩٨ ؛ ابن سعد : ١ / ٣١٧ .
[٩٤] فُتُوح البُلدَان ، ٩٧ .

مجتمع الْيَمَامَةِ مع حركة الإِسْلام ؛ و هذا ما توضحه بجلاء الرّسالة الَّتِي بعث بها إلى مُحَمَّدٍ في السنة العاشرة للهجرة ؛ الَّتِي جاء فيها :

((من مُسَيْلِمَةَ رسولِ اللَّهِ ، إلى مُحَمَّدٍ رسولِ اللَّهِ : سلامٌ عليك ؛ أما بعد ، فإنّي قد أُشركتُ في الأمر معك ، و **إنّ لنا نصفَ الأرض ، و لقريشٍ نصف الأرض ، و لكنَّ قريشاً قوم يَعْتدون**)) .

و قد كتب مُحَمَّدٌ الردَّ التّالي :

((بسم اللَّه الرحمن الرحيم ، من مُحَمَّدٍ رسول اللَّه إلى مُسَيْلِمة الكذّاب : السّلام على مَنِ اتّبع الهُدى . أما بعد ، **فإنّ الأرض للَّهِ يورثها من يشاء من عباده** و العاقبة للمتقين)) .[٩٥]

كان هذا هو الصّدام الأوّل بين الحركة الإِسْلاميّة من جهة ، و بين مُسَيْلِمة و بني حنيفةَ من جهة أخرى ، و ليس واضحاً الغاية من وفادة بني حنيفة ، فربما كان الوفد يرغب بتنظيم علاقة تحالف معينة مع الحركة الإِسْلاميّة في المدينة ، أو أنّ اللّقاء كان استمراراً لاتصالات سابقة ، كما يُوحي بذلك ما يروى عن اتصالات سبقت الاستيلاء على مكّة بين مُحَمَّدٍ ، و هوذة بن علي ، زعيم بني حنيفةَ الكبير ، الَّذِي وافق حسب المصادر على دعوة مُحَمَّدٍ للإِسْلام ، مقابل شروط ، و إنّ مُحَمَّداً رفض ، و قال لما وصله قرار هوذة ، لو أنّه طلب منه بلَحة لما قبل ، و تضيف هذه الرِّوايَة بأنّ مُسَيْلِمة شرع بدعوته بعد وفاة هوذةَ .[٩٦]

فهل كان مُحَمَّدٌ يسعى للتوحيد السيا ـ أيديولوجيّ معهم ، لكنْ تحت قيادته ، و كان ردُّ بني حنيفةَ منسجماً مع قوتهم ، و تماسك جبهتهم الداخليّة ، مما أفشل المفاوضات ؟ يتبين من كلام مُسَيْلِمةَ لقومه رغبة محمّدٍ في إلحاق بني حنيفةَ ، إذ يتساءل : ((يا بني حنيفة أريد أن تخبروني بماذا صارت قريش أحقّ بالنّبوّة و الإمامة منكم ؟ و اللَّه ما هم بأكثر منكم و أنجد ، و إنّ بلادكم لأوسع من بلادهم ، و أموالكم أكثر من أموالهم)) .[٩٧]

---

[٩٥] ابن هشام : ٢ / ٦٠٠ ـ ٦٠١ ؛ تاريخ الطبري : ٢ / ٢٠٣ ـ ٢٠٤ ؛ الكامل : ٢ / ٣٠٠ .
[٩٦] عيون الأثر : ٢ / ٣٣٨ .
[٩٧] كتابُ الرَّدة ، ١٦٤ ـ ١٦٥ .

من الصعب التكهّن بطبيعة الاتصالات و الغاية منها بالنسبة لكلِّ طرفٍ مادمنا لا نملك نصوص الحوارات ، أو محاضر الجلسات ، و الواضح أنّ العلاقة بين الطرفيْن وصلت إلى حافة الهاوية عندما حضر وفد بني حنيفةَ إلى المدينةَ ، و لاحظ عن كثب التركيب الداخليّ فيها ، و المختلف عمّا يملك ، و الإدارة السِّيَاسِيّة المختلفة بطبيعة الحال ، و ربما استقرّ في ذهن هذه البعثة قرارٌ بتشكيل نظام سِيَاسِيٍّ خاصٍ ، شعوراً منهم بحاجة الْيَمَامَةِ لسُلْطَة تدير مسألة الدفاع عن بلادهم في مواجهة الأخطار المتوقعة عليها من قبل هذه الحركة ، بالأخص بعد رؤيتهم لنظام المدينة السِّيَاسِيّ و القائم على أيديولوجيّة مستمدة نسغها من السّماءِ ، وتتبلور فيها نزعات التوسع بعد الاستيلاء على مكّة .

ما جعل الصراعَ حتمياً بين الْيَمَامَةِ و الحركة الإسْلاميّة هو وضع الْيَمَامَةِ الَّذِي لا نظير له في الجَزِيْرة العَرَبِيّة ، إذ كانت تركيبتها الاجتماسيّة من أنضج التّكوينات في الجَزِيْرة العَرَبِيّة آنذاك ، و أشدها استعصاءً على الخضوع للإسْلام بسبب من هذا التطور . كان رفضها للإسْلام نابعاً من ظروف مغايرة تماماً لرفض القبائل البدويّة ، الَّتِي رفضت هي الأخرى الإسْلام و لكن بسبب من تخلّف تركيبتها الاجْتِمَاعيّة ؛ و قد واجه أَبُو بَكْر و قادة الحركة الإسْلاميّة هذا الواقع ، و لم يكن ثمّة وسيلةً متاحةً لإقناع بني حنيفةَ إلا السيف بعدما زادت انتصارات الجيوش الإسْلاميّة قادة الإسْلام قناعةً بأن الأنَبِيّاء المسلحين قد احتلوا وانتصروا بينما فشل الأنَبِيّاء غير المسلحين ؛[٩٨] و في هذه المرحلة البنائيّة لم يكن ممكناً توسل الإقناع ، و الانتظار حَتَّى يدخل الإسْلام إلى قلوب القبائل العَرَبِيّة ، إذ إن الانتظار كان يمكن أن يسبب نكسةً في نمو جنين دولة الإسْلام ، وكان يمكن أنْ تضيع كلُّ النجاحات المتحققة حَتَّى الآن ، و عندما اتخذ قادة الحركة الإسْلاميّة قرار الحَرْب فإنّهم قرروا المواجهة ، وفرض العقيدة بالقوة ، إذ كان فرض العقيدة ينسجم مع منطق تاريخ المكان والزمان ، و من ضرورات الحفاظ على صعود نجم يثربَ كمركزٍ للإسْلام ؛ مع مراعاة أنّ عاملاً اقتصادياً لعب دوره في تسريع المواجهة ، و ذلك لأنّ الطريقَ الَّذِي يَبدأ في البَحْرَيْن ، و عُمان ، وينتهي في مكّة كان من السهل قطعه على أيدي بني حنيفةَ في الْيَمَامَةِ . و كان ثمامة بن أثال ـ أحد قادة بني حنيفة ـ يعترض تجارتها في الْيَمَامَةِ . و فيما بعد ، عندما دخلت

---

[٩٨] الأمير ، ٨٢ .

مكّة تحت راية الإسْلام ، مُنعت تجارتها من العبور عبر أراضي بني حنيفة بقيادة مُسَيْلِمة .[٩٩] فوضع القُرَشيّون مسألة غزو بني حنيفة على رأس قائمة أولويات حركة الإسْلام .

من الملاحظ أنّ مُسَيْلِمةَ كان يستعدّ للدفاع عن مجتمعه ، و لم يسعَ أبداً للتوسّع ، وهذا فرق كبير بين حركته ، و حركة الإسْلام ، إذ كانت الحركة الإسْلاميّة في المدينة تواجه أزمات داخليّة تفرض عليها خوض الحروب ، كما كانت حاضرتها ـ المدينة ـ تعيش في طور النّمو ، و كان النّمو مؤلماً لأنّه كان يشترط التوسّع الجغرافيّ ، و بهذا اقتضت استراتيجيّة قادة المدينة المضي قدماً لمحاربة مُسَيْلِمة ، و اقتضت استراتيجية مُسَيْلِمة الاستعداد للدفاع عن تكوين الْيَمَامَةِ الَّذِي كان ناجزاً ، و لم تكن ثَمّة صراعات داخليّة تهدد وجود الْيَمَامَةِ، و تفرض على زعمائها التوجه للحروب من أجل حرف اتجاه الأزمة . هكذا فرض الواقع على قادة المدينة مصادمة مُسَيْلِمة وفق ما تمليه عليهم ضرورات نشأة دولتهم ، و خوفهم من موت الهيئة الناهضة ، بينا فرض على مُسَيْلِمَةَ الدفاع عن قبيلته من منطق الحفاظ على تكوينها الناجز ، و إذ وازنا بين الضرورتيْن فإنّ ضرورة حركة الإسْلام كانت أشدُّ إلحاحاً ؛ لأنّها ضرورة المستقبل ، و لهذا قيض لها أن تنتصر على ضرورة مُسيْلِمَةَ ، لأنّها كانت تجسد الحاضر الذاوي ماضياً .

لكنْ ، و قبل أنْ ننتقل إلى الصّدام المسلح بين الحركة الإسْلاميّة و حركة مُسَيْلِمةَ لنرَ ما جرى بين مُسَيْلِمة و سجاحَ ، الَّتِي توجهت إليه .

لقاء مُسَيْلِمة و سجاحَ

بعدما لم يثمر تحالفها القصير مع مَالك بن نُوَيْرَةَ عن شيءٍ ، و لم تجد حلفاء لها في بني تميم ، قررت سجاحُ التوجه صوب الْيَمَامَةِ ، و عندما وصلتها عقدت اجتماعاً مع مُسَيْلِمة؛ فماذا تقول المصادر التاريخيّة عن هذا الاجتماع ؟

تقول هذه المصادر إنّ الاجتماعَ تمّ بطلبٍ من مُسَيْلِمةَ ، الَّذِي كان راغباً في السّلْم بسبب صراعه مع ثمامة بن أثال ؛ و في الاجتماع عرض على سجاحَ تقاسم الأرضِ ، واشتكى من رغبة قريش في الهيمنة على الجَزِيْرة العَرَبِيّة ، قائلاً لها :

---

[٩٩] شوفاني ، ٩٤ .

« لنا نصف الأرض ؛ و كان لقريش نصفها لو عدلَتْ ، و قد ردّ اللّه عليك النّصف الَّذِي رَدَّت قريش ؛ فَحَباك به ، و كان لها لو قبلتْ » .[١٠٠]

و تضيف بأنّ مُسَيْلِمةَ عرض في الاجتماع على سجاحَ الزواج ، من أجل توحيد قومهما ، فوافقت عليه ،[١٠١] و طالبته بصداقٍ ، فكان صداقها رفع صلاتيْن من الخمس ، الَّتِي جاء بها مُحَمَّدِ بن عبد اللّه ، و هما : « صلاة العشاء الآخرة و صلاة الفجر » .[١٠٢] و تضيف المصادر التاريخيّة بأنّ مُسَيْلِمة وافق على تقديم نّصف غلاّت الْيَمَامَةِ لسجاحَ مقابل الاعتراف به نَبِيّاً . و رجعت سجاحُ على إثْر ذلك إلى الجزيرة و لم تشارك عملياً في أيِّ تحركٍ مناوئٍ لحركة الإسْلام أو داعمٍ له ، فبقيت في بني تغلب ـ أخوالها ـ حَتَّى انتقلت قيادة الدّوْلَة الإسْلاميّة إلى مُعَاوِيَة بن أبي سفيان بعد اغتيال عليّ بن أبي طالبٍ ، فتوجهت إلى الكوفة بأمر من مُعَاوِيَة الَّذِي أمر بانتقال عقفانَ ـ عشيرتها ـ و أسلمت حينئذ ، و ثمّة أقوال بأنّها انتقلت إلى البصرة ، و هناك ماتت ، و قيل إنّ أخبارها انقطعت لاحقاً مع توسّع الدّوْلَة الإسْلاميّة.[١٠٣]

نحن نجد في هذه الرِّوايَة جملة تناقضات ؛ أولاً ، الرِّوايَة لا تستقيم مع شريعة مُسَيْلِمة الدينيّة الَّتِي كان يبشّر بها ، و الاختلاق الفاضح لم ينتبه إلى هذا الأمر ، فكيف لِمَنْ حَظَرَ الجِنْس على أتباعه أنْ يتزوّج ؛ ثانياً ، لم تقدّم الرِّوايَة إيضاحاً عن سبب مغادرة سجاحَ بيت الزوجيّة بُعيد ذلك ، كما لم نرَ أية مشاركة لقواتها مع قوات مُسَيْلِمة في محاربة قوات المسلمين ؛ ثالثاً ، كيف لمُسَيْلِمةَ أنْ يرفع عن سجاحَ صلاتيْن مُحَمَّديتيْن ، في حين أنّها وأتباعها لم يقرّوا بالإسْلام ، و بنبوّة مُحَمَّدٍ ، و الَّذِي رافعهما لم يقرّ بدوره بالإسْلام و لا بنبوّة مُحَمَّدٍ أيضاً .

إنّ قِصّةَ مسيرة سجاحَ غير منسجمة كليّاً ، فالمصادر المولعة بالتفاصيل لا تذكر عدد قواتها ، و كلُّ ما فيها يدعو للشك في أنّها جاءت أصلاً لتقاتل من أجل نشر « عقيدتها » أو حَتَّى لتحصل على منافع اقتصاديّة ، و إلاّ لماذا لم تتجه صوب أَبِي بَكْر ؟ تحاول الرِّوايَة أن تقدمَ تفسيراً فتقول إنّها كانت ترغب بذلك لكن مَالك

---

[١٠٠] تاريخ الطبري : ٢ / ٢٧٠ ؛ الكامل : ٢ / ٣٥٥ ؛ تاريخ خلدون ، م ٢ ، ج ٢ / ٧٣ ؛ البداية و النّهايَة.
[١٠١] بينما يخبرنا الواقدي أنّ سجاحَ هي الَّتِي عرضت على مُسَيْلِمة الزواج .
[١٠٢] كتابُ الرَّدة / ١٧٠ ـ ١٧١ ؛ تاريخ الطبري : ٢ / ٢٧٠ ـ ٢٧١ .
[١٠٣] الكامل : ٢ / ٣٥٧ ؛ تاريخ الطبري : ٢ / ٢٧١ ؛ تاريخ ابن خلدون ، م ٢ ، ج ٢ / ٧٣ .

بن نُوَيْرَةَ ردّها عن هدفها هذا ، و دفعها نحو بني تميم ،[١٠٤] لكنّ ذلك لا يفسّر لماذا أحجمت عن مواجهة حركة الإسْلام فيما بعد ، و لماذا لم تشارك مُسَيْلِمَةَ ـ زوجها ! ـ في دفاعه ، كما أنّها لم تمضِ قدماً من قبلَ في الصّراع مع بني تميم . ثُمّ كيف لمُسَيْلِمةَ أنْ يقبل مقاسمتها نصف غلاّت الْيَمَامَةِ و هي بدون قوات تستطيع بواسطتها فرض ((إرادتها)) عليه ، و حَتَّى لو كانت تقود جيشاً ، فهل كان يمكن أن يكون أكثر عدداً من جيش مُسَيْلِمة ، و هل يمكن أن يخشى مُسَيْلِمة منها و من جيشها المزعوم ، و قد كان عدد قواته كبيراً ، و مجتمعه مستقراً ، و لم يكن مُسَيْلِمة ليطلب منها الصلح بسبب شخص منشق ـ ثمامة بن أثال ـ لا يشكّل عليه أيَّ تهديدٍ ، و كان أوّلى به أن يتقي شرَّ المسلمين لا شرَّ نَبِيّة مزعومة قد لا يزيد عدد مرافقيها على بضع عشرات .

إنّ سجاح فشلت في التدخل في شئون بني تميم ، الَّذِين كانوا أقل قوةً من بني حنيفةَ ، و رأينا كيف استسلموا تِباعاً لجيوش المسلمين ؛ فكيف لها أنّ ترعبَ مُسَيْلِمةَ بقوةٍ لا يعتد بها، و بنو حنيفة كانوا قوةً لا يستهان بها أبداً ، و سنرى فيما بعد أن المَعْرَكَة الَّتِي أدت لمقتل مُسَيْلِمة كلّفت الحركة الإسْلاميّة ثمناً باهظاً بالأرواح . و كلُّ ما نستطيع أنْ نفترضه أنّ سجاحَ أرادت تحقيق مكاسب بعينها و حسب دون التورط في صراع دام بين مختلف الأطراف في الجَزِيْرة العَرَبِيّة ، و أنّها لم تكن تخطط لمحاربة أَبِي بَكْر ، و لا حَتَّى مُسَيْلِمة . و مع ذلك ثمة أسئلة من قبيل : ما هو سبب اختيارها مُسَيْلِمة ، و هل يكفي وجود عوامل ثقافيّة مشتركة ، وهو سعة انتشار المسيحيّة في بني حنيفة و بني تغلب لتفسير هذا الخيار هل كانت تسعى لعقد تحالف ما لم يذكره المؤرخون ـ ربما بسبب عدم وجود شهود على الاجتماع بينها و بين مُسَيْلِمة ـ . في الحقيقة لا نملك أيّةَ إجابةٍ ، و كلُّ ما يمكننا تقديمه هو مجرد فرضيات ، قد لا تجد نفيها أو إثباتها أبداً ، و يستطيع القارئ أنْ يعملَ خياله ليقدم تفسيراته الخاصة . أما السّر الحقيقيّ فقد بقي مطوياً عند سجاحَ و حسب ، و لم يسعَ أحدٌ من الرّواة لنقل رواياتها للأحداث؛ و لعلها آثرت التواري عن الأنظار خوفاً من المسلمين أو شعوراً منها بالعار

---

[١٠٤] الكامل : ٢ / ٣٥٤ .

لتركها مُسَيْلِمة في حال كان ثمة اتفاق بينهما على التناصر ، و بذلك بقي أسباب تحركها غامضاً .

إنّ التاريخ الإسْلاميّ في روايته لما جرى بين مُسَيْلِمة و سجاح لم يتجاهل الانسجامَ الداخليَّ لبناء الرِّوايَات ، بل سعى لتشويه صورة مُسَيْلِمة بنسج قصصٍ تشنيعيّة حوله ، و رسم صورة كوميديّة له ، و هو يقوم بإغراء نبيّته ، فرُوي عن لسانه شعراً بعدما تيقن من إثارته شهوة سجاح :

ألاَ قُومي إلى النَّيْكِ ... فقَد هُيّيِ لكِ المَضْجَعْ
و إنْ شئتِ ففي البَيْتِ ... و إنْ شئتِ فَفي المَخدَعْ [١٠٥]

و تضيف الرِّوايَات تَشْنيعات أخرى ، فتروي مثلاً أنّه قيل لمُسَيْلِمةَ : ((بَرِّك على مولودي بني حنيفةَ)) ، فقال : ((و ما التبريك ؟)) ، فقِيل له : ((كان أهلُ الحِجَاز إذا ولد المولد فيهم أتْوا به مُحَمَّداً فحنَّكه [١٠٦] و مسح رأسه)) ؛ فلم يُؤتَ مُسَيْلِمةُ بصبيّ فحنّكه و مسح رأسه إلاّ قرع و لَثِغ و استبان ذلك بعد مقتله .[١٠٧]

المَعْرَكَة النّهائيّة مع مُسَيْلِمةَ

كان أَبُو بَكْر قد أرسل جيشاً إلى مُسَيْلِمة بقيادة عِكْرِمَةَ بن أَبي جهْل ، و أتبعه شُرَحْبيلَ بن حَسَنَة ، فجرى صدامٌ بين قوات عِكْرِمَةَ ، و مُسَيْلِمةَ ، مَنيت فيها قوات المسلمين بهزيمة ؛ إلاّ أنّ المصادر لا تتحدث عن قوات ضخمة ، أو عن مَعْرَكَةٍ كبيرة ، و يتضح من ذلك أنّها كانت بالنسبة لأَبي بَكْر مجردَ محاولةٍ منه لتقدير حجم قوات مُسَيْلِمةَ ، و مبلغ استعداداتها الدفاعيّة ، و لإشعاره بجدية قرار الحَرْبِ ؛ إذ كان أَبُو بَكْر يدرك صعوبة المَعْرَكَةِ مع بني حنيفةَ ، و بعد هذه المَعْرَكَة الخاسرة أمر أَبُو بَكْر عِكْرِمَةَ بالمضي نحو عُمان و مَهْرَة من أجل التدخل في

---

[١٠٥] تاريخ الطبري : ٢ / ٢٧١ ؛ الكامل : ٢ / ٣٥٦ . و تروى هذه الأبيات بألفاظ مختلفة في المصادر ؛ مثلاً : كتابُ الرِّدة ، ص ١٧٢ . و نعتذر للقارئ على إيراد هذا الشاهد ؛ لوجود مفردة في البيت الأول لها وقعٌ خشنٌ جداً على الأذن المعاصرة ؛ و كدنا نحذف هذا الشاهد .

[١٠٦] حَنّكَ الولدّ : دلك حنكه على أثر ولادته ، الرائد .

[١٠٧] تاريخ الطبري : ٢ / ٢٧٧ .

صراعٍ داخليٍّ فيهما . و أصدر أمره لشرحبيل بانتظار خالدٍ ، لكنّه لم يلبث أنْ خرق تعليمات خليفتهِ ، و اصطدم بقوات مُسَيْلِمةَ ، و مني بدوره بهزيمة .[١٠٨] و لعل ما دفع شرحبيل لخوض المَعْرَكَة مع مُسَيْلِمة طمعه بالغنائم .

كان من الطبيعي أن يكون خَالِد بن الوَليدِ قائدَ القواتِ المتوجهة صوب مُسَيْلِمةَ ، و إذا أخذنا السّمَات الواجب توفرها بِمَنْ ينهض لقيادة مواجهة داميّة فلن نجدَ مَنْ هو أفضل مِنْ خَالِد بن الوَليدِ يقوم بهذه المهمة ، فشَخصيّة خالدٍ الميالة للعنف تحقق الشرط الأساسي لمواجهة قوات متماسكة ، و مصرّة على الدفاع عن نفسِها ، و لهذا وجّهه أَبُو بَكْر بعد الانتهاء من ابن نُوَيْرَةَ ؛ و كانت الأوامر تقضي بعدم الاستهتار بقوة الأعداء ، الَّذِين وصفهم الخَلِيْفَة ((بأنّهم قومٌ أشداء البأس ، أقوياء العزيمة ، مختلفون عن جميع مَن قاتل خالد من قبل)) ، و طلب منه دعوتهم للإِسْلام قبل الدخول في المَعْرَكَة .[١٠٩]

وصل خالدٌ الْيَمَامَةَ و كان عليه مواجهة أربعين ألف مقاتل كانوا موزعين في قُرى وأنحاء الْيَمَامَةِ ، و هذا رقم مبالغ فيه ، و علينا ألاّ نأخذ به ، لكن بنفس الوقت لا يجوز التقليل من حجم قوات بني حنيفة ؛ و قد انضم لقوات المسلمين ثمامة بن أثال ـ أحد أشراف بني حنيفة و عدو مُسَيْلِمة ـ يقود مجموعة من قومه .[١١٠] و لا يوجد ما يشير إلى عدد هذه المجموعة التقريبي .

أسْرُ مَجَّاعةَ

تقول المصادر إنّ مَجَّاعة بن مُرارَة خرج عشيّة وصول خالدٍ في سريّة يطلب ثأراً له في بني عامر ، و أثناء عودتهم ، و بينا كانوا نياماً داهمتهم سريّة من سرايا المسلمين الَّتِي كانت تجوب المنطقة ؛ فوقع بالأسر مع ثلاثة و عشرون رجلاً من بني حنيفة .

إنّ هذا التفصيل الَّذِي يتحدث عن أَسْرِ مَجَّاعةَ يحتاج لتعديل ؛ أولاً ، لا تشير الرِّوايَات إنْ كان مَجَّاعة قد أخذ بثأره أم لا ؛ ثانياً ، كان بنو حنيفة يتوجسون خشيّةً من قدوم قوات المسلمين ، فكيف لمَجَّاعة أن يترك منطقته طلباً لثأرٍ في

---

[١٠٨] الكامل : ٢ / ٣٦٠ ـ ٣٦١ .
[١٠٩] كتابُ الرَّدة ، ١٧٣ .
[١١٠] كتابُ الرَّدة ، ١٨٠ ـ ١٨١ .

حين أنّ خطراً يستدعي مواجهته ؛ و لهذا يجب أنْ يكون خروج مَجَّاعة للاستطلاع و عندها وقع في الأسر .

دعا خالدٌ بمَجَّاعة و مَن أُخذ معه ، فسألهم عن موقفهم من مُسَيْلِمة ، فأجابوه بأنّ من الطبيعي أنْ يكون لبني حنيفةَ نَبيّ ، مثلما لقريش نَبيّ ، فقتل جميع الأسرى إلاّ مَجَّاعةَ ، و يُقال إنّه استثنى رجلاً من القتل يُقال له سارية بن عامر لم يقرّ بنبوّة مُسَيْلِمةَ . و من المرجح أنّ خالداً لم يسأل المجموعة عن حقيقة إيمانها و هذا ما يدل عليه قول مَجَّاعة لخالدٍ : « رأيتك عجلت على هؤلاء القوم بالقتل ، و أنا خائف على نفسي » ، و كان سبب إبقاء خالدٍ على مَجَّاعة ، و عدم قتله هو جعله رهينةً لموقعه في قومه كما يخبرنا الطبري ،[١١١] فأمر بتكبيله ، و دفعه إلى أم تميم امرأته ـ زوج مالكٍ المقتولِ .

مَعْرَكَة حديقة الموت [١١٢](أو عَقْرَباءَ)

عسكر مُسَيْلِمة بقواته في منطقة عَقْرَبَاءَ استعداداً لمواجهة قوات المسلمين ، فجرى الاقتتال بين الطرفيْن فيها في ربيع الأول ، ١٢ هـ / أيار (مايو) ـ حزيران (يونيو) ٦٣٣ م مع ملاحظة أنّ هناك خلافاً في تاريخ المَعْرَكَة ، فمنهم من يقول إنّها جرت سنة ١١ هـ ، و منهم في ١٢ هـ ، أو إنّها بدأت نهاية سنة ١١ هـ ، و انتهت مطلع ١٢ هـ .[١١٣]

في اليوم الأوّل للمعْرَكَةِ اقتتل الجيشان قتالاً شديداً ، بين كرٍّ و فرٍّ ، أما في اليوم الثاني لها فقد كثّف بنو حنيفةَ هجومهم ، مما أجبر المسلمين على التراجع ، و ترك معسكرهم بما يحتويه من مضارب ، و آلات ، و دواب ، و غيرها .[١١٤] و فرّ خالد من فُسْطاطه ،[١١٥] فدخله مقاتلو بني حنيفة ، و فيه مَجَّاعة ـ الأسير ـ عند أم تميم ، فكاد رجلٌ من المقاتلين أنْ يقتلها لولا أنّ مَجَّاعةَ أعلن حمايته لها ، و أضاف بأنّ على المقاتلين أن يقاتلوا الرجال .

---

[١١١] كتابُ الرَّدة ، ١٨٢ ـ ١٨٣ ؛ تاريخ الطبري : ٢ / ٢٧٨ ؛ الكامل : ٢ / ٣٦٢ .
[١١٢] **الحديقة** : بستان ذو شجر يحيط به حاجز .
[١١٣] البداية و النّهايَة ؛ الكامل : ٢ / ٣٦٢ ؛ شوفاني ، ١٦ .
[١١٤] كتابُ الرَّدة ، ١٩٢ ، ١٩٦ .
[١١٥] الفُسطاط : البيت من شعر .

هذا الهجوم الكاسح لبني حنيفة لم يحسم المَعْرَكَةَ ، الَّتِي بقيت سِجَالاً مرة على المسلمين و مرة على الحنفيين ، مما دفع خالداً للطلب من مقاتليه التمايز ، فامتاز الحضريون عن البدويّين ، و الأرجح حسب رواية أخرى أنّ التمايز تمّ بمبادرة من المقاتلين أنفسهم بعد أن جَبَّن المهاجرون و الأنصار البدو ، و جَبَّنهم الأعراب .[١١٦]

بيد أنّ خالداً لاحظ تكافؤ القوتين ، فحاول أن يسلك درب الدبلوماسيّة في المَعْرَكَة ، فدعا مُسَيْلِمةَ لحوارٍ ، لا يوجد شيئاً عن مضمونه إلا هذه الجملة : ((فعرض عليه ـ أيْ علي مُسَيْلِمةَ ـ أشياءَ مما يشتهي مُسَيْلِمة ، و رفض مُسَيْلِمةُ هذا العرضَ)) ؛[١١٧] أو عرض ((عليه النصف و الرجوع إلى الحقِّ)) ، نصف ماذا ؟ و متى بالضبط كان العرض ؟ لعله كان قبل المَعْرَكَة ، لا يوجد تفصيل الحوار . على أيّ حالٍ توصّل خالدٌ إلى قناعة بأنّ المَعْرَكَة لن تنتهي إلا بقتل مُسَيْلِمةَ .

في النهاية مالت كفة الميزان لصالح المسلمين ، فحذّر مُحَكّم بن الطُّفيل ، والَّذِي كان يلقب **بمُحَكّم الْيَمَامَةِ** قومه من الاستسلام ، و طالبهم بالتفاني في القتال خوفاً على نسائهم من السبي . ثمّ اضطر مُسَيْلِمةَ للجوء مع قواته إلى حديقة ـ سُميت حديقة الموت فيما بعد ـ . وقد أظهر الأنصار إقداماً عالياً ، عندما تقدم عبّاد بن بشير الأنصاريّ إلى باب الحديقة ، وطلب من الأنصار تحطيم أغماد السيوف ، و اقتحام الحديقة ، و قد فعلوا ذلك ، و اقتحموا وهم مئة و عشرون رجلاً ، فقاتلوا و لم يبقَ منهم على قيد الحياة إلاّ أربعة مقاتلين .[١١٨] و قد تمكّن المسلمون من اقتحام الحديقة . و هناك قُتل مُسَيْلِمةُ على يدِ وَحْشيٍّ ، و رجلٍ من الأنصار ؛ فأمّا وَحْشيّ فطعنه بحربته ، و أمّا الأنصاريُّ فضربه بسيفه ، و قد علّق وَحْشيّ لاحقاً : ((ربّك أعلم أيّنا قتله !)) . لما عرف مقاتلو بني حنيفة بمقتل نَبِيّهم ، تراجعوا و بهذا انتهت المَعْرَكَة بهزيمتهم .[١١٩]

---

[١١٦] تاريخ الطبري : ٢ / ٢٨١ ؛ الكامل : ٢ / ٣٦٣ ؛ البداية و النّهايَة .
[١١٧] الكامل : ٢ / ٣٦٤ .
[١١٨] كتابُ الرَّدة ، ٢٠٤ .
[١١٩] تاريخ الطبري : ٢ / ٢٧٩ ـ ٢٨٠ ؛ كتابُ الرَّدة ، ٢٠٦ ؛ الكامل : ٢ / ٣٦٥ . و الجدير بالذكر أنّ قتل مُسَيْلِمةَ نُسب إلى : خِدَاشُ بن بُشَيْر (من بني عامر) ، و عبد اللَّه بن زيد بن ثعلبة (الخزرج) ، و أبي دجانة ، و عبد اللَّه بن زيد بن عاصم (بني النجار) ، و وَحْشيّ ، و حَتَّى إلى مُعَاوِيَة بن أبي سفيان حسب الرِّوايَات الأموية (فُتُوح البُلدَان ، ٩٨ ـ ٩٩) ، و في الرِّوايَات رجل من الأنصار دون تحديد له ، و هذا في إطار

كانت نتائج المَعْرَكَةِ فاجعةً ، حيث بلغ قتلى المسلمين (١٢٠٠) رجلٍ ، و كان قتلى بني حنيفة سبعة آلاف .[١٢٠] و يُقال إنّ قتلى بني حنيفة بلغوا سبعة آلاف في الميدان ، و سبعة آلاف في حديقة الموت ، و سبعة آلاف أخرى عندما تعقبتهم قوات المسلمين ،[١٢١] و علينا أنّ لا نقبل هذا الرقم على عِلاَّتِه بسبب من ولع الرواة الإسلاميين بالرقم سبعة ؛ ثم إنّ المَعْرَكَة كان سجالاً ، و كان القتال متكافئاً بشكلٍ كبيرٍ ، و تغيّر اتجاه المَعْرَكَة في مرحلتها الأخيرة لا يسمح بتقبل هذا الرّقم ، و لنفرض بأنّ قتلى بنِي حنيفة ضعف قتلى المسلمين ؛ فيجب ألا يزيد عدد قتلاهم على (٢٤٠٠) رجلٍ .

مما لاشك فيه أنّ القوات الَّتِي دخلت إلى الحديقة قد انسحبت بعد مقتل مُسَيْلِمة ، و لا يمكن أن تكون قد بقيت مُحَاصَرة إلى النّهاية و إلاّ لشهدنا مجزرة رهيبة من كلى الجانَبيْن . فكيف لمقاتلٍ حُصِرَ في مكانٍ و هو يعرف أنّ الموت سيتخطّفه أنْ يقف مكتوف اليدين ينتظره ؟ إنّ أيَّ مقاتلٍ وُضع في هذه الوَضْعية سيتحول إلى ذئبٍ مفترسٍ ، و لم يكن خالدٌ ليضع مقاتليه أمام محنة مواجهة ذئاب لا أمل لها بالحياة إلا بالإسْتذْآبِ عليهم . إنّ أبسط أبجدية علم الحَرْب تقول : ((إذا طوقت جيشاً ، فاترك له مخرجاً ، و لا تضغط على العدوِ اليائس بقسوةٍ مفرطةٍ))؛[١٢٢] فعلى القائد الميداني ألاّ يضع مقاتليْ العدو بين خيارِيْن : الموت ، أو القتال المستميت للنجاة .

مهما يكن من أمر فإنّ عدد القتلى كان كبيراً بالنسبة للمسلمين ، و لغير المسلمين قياساً بعدد سكان الجزيرة العَرَبِيّة وقتها ، و لهذا لما بلغ المدينة أرقامُ القتلى قامت النائحات فيها عليهم ، و ارتفعت أصوات تطالب بقتل جماعي لبني حنيفةَ ، و قيل إنّ رسائل بهذا المعنى أُرسلت إلى خالدٍ .[١٢٣]

التنافس بين الرّواة من جهة ؛ و ربما بسبب أنّ القاتلَ هو وَحْشيٌّ ، بما يحمله من ذكرى مؤلمة للتاريخ الإِسْلاميّ

[١٢٠] تاريخ الطبري : ٢ / ٣٨٣ .

[١٢١] الصّدّيق ، ١٥٥ .

[١٢٢] Sun Tzu, op.cit., (VII , 36).

[١٢٣] كتابُ الرَّدة ، ٢١٣ .

الاستسلام لخالد

تقول الرِّوايَات إنّه بعد مقتل مُسَيْلِمة طلب خالدٌ من مَجَّاعةَ التعرّف على مُسَيْلِمةَ ، و بعد أنْ دلّه عليه اقترح على خالدٍ عقد اتفاق مصالحة بينهما ، و قال له إنّه لم يواجه كلَّ جنودِ بني حنيفةَ ، و نتيجة لمهارة مَجَّاعة التفاوضية الَّذِي أوْهَمَ خالداً بأنّ في الحصون مقاتلين آخرين ، عندما قام بصف النساء على حيطان الحصون ، وألبسهنّ السلاح ، قبل خالد مصالحته ممثلاً عن قومه . و كان شروط الصلح : على الذّهَب ، و الفِضّة ، و السّلاح ، ونصف السبّي ، و قيل ربعه و نصف الذّهَب و الفِضّة ، و حائط (بستان) من كلّ قرية ؛ ومزرعة ، على أن يُسْلموا .[١٢٤] و طلب من بني حَنِيفةَ إعلان بَيْعة البَراءة أمامه جماعيّاً ممَّا كانوا عليه . ثُمّ عَلَمَ خالدٌ بالخدعة ، فاستدعى مَجَّاعة ، و سأله عن ذلك ؛ فبرّر خداعه بقوله : ((إنّهم أهلي و عشيرتي ، و خشيت عليهم الفناء ، و أرجو أنْ يكونوا بعد هذا اليوم أعواناً لك على من ناوأك)) . فخطب خالدٌ إلى مَجَّاعة ابنته ، و الَّذِي سيوافق على مضض . و ما هي إلا قليلاً حَتَّى يصل كتابٌ من أَبِي بَكْر إلى خالدٍ ، يأمره بقتل كل محتلم من بني حنيفة في حال حقق النّصْر عليهم ، لكنّ وصول الكتاب كان بعد إبرام الصلح ، فلم ينقضه خالدٌ .[١٢٥]

هذا ما ترويه المصادر في تناقضٍ جليٍّ مع واقعة اقتحام فسطاط خالد ، فلم يكن الأسير ليبقى في مَأْسَرِه بعدما جاءت فرصة حريته ، و رَأينا أنّ مَجَّاعة جاء خالداً ممثلاً عن قومه بعد أنْ هدأ غبار المَعْرَكَة من أجل التفاوض على شروط ملائمة للصلح . و ربّما تقديراً من بني حنيفةَ إلى أن مَجَّاعة قد خبر عن قرب عقليّة القائد . و من جهة ثانية إذا افترضنا صحة كتاب أَبِي بَكْر ، فالمؤكد أنّ ما منع خالداً من نقض الصلح ، أو ممارسة عنفه المعتاد مع مَجَّاعةَ الَّذِي ((خدعه)) حسب المصادر التاريخيّة هو إدراكه أنّ قوات المسلمين قد نهكتها الحَرْب ، و طالت غيبة المقاتلين عن ديارهم ، مما أضعف من روحهم المعنويّة ، لا سيّما أنّ هذا الاتفاقَ منحهم متعة النّصْر ، و هم لهذا يرغبون بالرجوع منتصرين ، و ليس النّصْر بمؤكد في حال تجدد القتال .[١٢٦] ثُمّ إنّ المسلمين لم يتمكنوا من إبادة مقاتلي بني حنيفة ، و هذا يعنى أنّ المواجهة ستكون داميةً جداً إذا استهدف خالد

---

[١٢٤] تاريخ الطبري : ٢ / ٢٨٣ ؛ الكامل : ٢ / ٣٦٥ ؛ فُتُوح البُلدَان ، ١٠٠ .
[١٢٥] كتابُ الرِّدة ، ٢١٥ ؛ تاريخ الطبري : ٢ / ٢٨٤ .
[١٢٦] الكامل : ٢ / ٣٦٥ ؛ البداية و النّهايَة .

إبادة المقاتلين ، لأن الأربعين ألف مقاتل الَّتِي تتحدث عنهم الرِّوايَات كانوا موزعين في أرضي بني حنيفةَ ، و لم يشتركوا كلهم في مَعْرَكَة عَقْرَبَاءَ . و ثَمّة سبب آخر و هو أنّ القتال كان في أرض العدو ، و الاستمرار به يتطلب توفير إمدادات لوجستيكيّة للمقاتلين ، ناهيك عن أنّ خوض حرب طويلة الأمد يتطلب استبدال دائم للمقاتلين ؛ و على أساس هذه الاعتبارات فإنّنا نعتقد أنّ خدعةَ مَجَّاعة رواية مصنوعة للتقليل من شأن خَالِد بن الوَليدِ الَّذِي لن يستسيغ طعم الخداع من قوي ، دعْ عنك أن يخدع من عدو مهزوم .

أما إنْ يكون زواجه من بنت مَجَّاعة قد منعه من نقض الاتفاق كما ألمح الأنصار بشكلٍ مبطن ؛ فإنّ ذلك عامل ثانويّ لا يمكن أنْ نعتبره مؤثراً على منتصرٍ ، لا يتورع على قتل ابن نُوَيْرَةَ ، من أجل الفوز بزوج المقتول . و بالعكس سبب هذا الزواج مشاكل لخالد ، حيث كان يحتفي بأعمام هذه المرأة ، و يقضي حوائجهم ، فغضب لذلك المسلمون ، و قد عبّر حسانُ بن ثابت عن هذا الامتعاض بقوله :

أتَرْضَى بأنّا لا تَجِفُ دماؤُنَا ... و هذا عَرُوسٌ بالْيَمَامَةِ خَالِدُ
يَبِيت يُناغي عرْسَهِ في فِراشِهِ ... و هامٌ لَنَا مَطْرُوحَةٌ و سَوَاعِدُ
إذا نحن جئنَا صدَّ عنّا بوجْهِهِ ... وتُثْنَى لأعْمَام العَرُوسِ الوسائدُ [١٢٧]

كما أنّه تلقى نقداً حاداً من أَبِي بَكْر ، الَّذِي أغضبه هذا الزّواج ، و قد سأل عُمَرَ بنَ الخطّابِ عن رأيه ، فأجابه عُمَرُ : ((إنّا و اللّه لا يزال يأتينا من خالدٍ في كلّ حين ما تضيق به الصدور)) ؛ فكتب الخَلِيْفَة إليه : ((لعَمري يا ابنَ أمّ خالد ، إنك لفارغ تنكح النّساءَ ، وبفناء بيتك دَمُ ألف و مئتا رجل من المسلمين لم يجْفف بعد !)) ، و كتب له ـ حسب نص الواقدي ـ بأنّ فعله يشابه فعلته بمَالك بن نُوَيْرَةَ . و لم يزد الخَلِيْفَة على تعنيفه ، و يبدو أنّ الخَلِيْفَة أراد أن يسكّن من ثائرة الثائرين ، فلمّا نظر خالد في الكتاب ، قال : ((هذا عمل الأعَيْسر ـ يعني عمر بن الخطّاب ، و كان أعسر : أي يعمل بشماله)) ؛[١٢٨] و بالرَّغْمِ مِنْ كل ذلك فلن يتخلى خالدٌ عن متعته في التزوج في ساحات الوغى ، فبعد مَعْرَكَة دُومَة الجَنْدَل (١٢

---

[١٢٧] كتابُ الرِّدة ، ٢١٩ ـ ٢٢٠ ؛ د حسان : ١ / ٤٥٩ . يناغي : يغازل ، هام : ج هامة ، و هي وسط الرأس ، و في د حسان ، ((و تُلْقى لأَعمامِ العَروسِ الوسائد)) .

[١٢٨] تاريخ الطبري : ٢ / ٢٨٤ ؛ كتابُ الرِّدة ، ٢٢١ ـ ٢٢٢ ؛ شرح نهج : ١ / ٦٠ ؛ الصّدّيق ، ١٤٠ ـ ١٤١ .

هـ) اشترى ابنة الجوديّ بن ربيعة ـ أحد زعماء دُومةَ ـ و كانت جميلة ليتزوجها في الميدان [١٢٩] .

السيطرة على البَحْرَيْنِ

كانت البَحْرَيْنُ تخضع للنفوذ الفارسيّ ، و كان فيها قبائل عَرَبِيّة مقيمة في باديتها من عبد القيس ، و بكر بن وائل ، و تميم ، إضافةً لجماعة من التّجار الَّذِيَ قدموا من الهند و فارس ، و قد تَزَاوَجَ هؤلاء مع أهالي المنطَّقة فصار أبناؤهم يُسمّون **الأبناء** . و كان المنذر بن ساوى العبديّ زعيم العرب باسم الفرس .

في السنة الثّامنة هجريّة بعث مُحَمَّدٌ العَلاَءَ بن الحَضْرَميّ إلى المنذر بن ساوى ، وإلى سيبخت مَرْزُبان هَجَر [١٣٠] من أجل دعوتهما للإسْلام كما تقول المصادر التاريخيّة ، فوافق المنذرُ على الإقرار بالإسْلام ، فأقام العلاءُ بالبَحْرَيْن أميراً لِمُحَمَّدٍ من أجل جمع مال الزّكاةِ ، لكن سَرْعُان ما عزله مُحَمَّد بسبب شكوى بحقه فبعث أبان بن سعد عاملاً عليها . ثُمّ إنّ المنذرَ مات بُعيد رحيلِ مُحَمَّدٍ ، فأدت وفاته في البَحْرَيْنِ إلى حركة رفض العلاقة مع الحركة الإسْلاميّة ؛ و عندها طلب أَبُو بَكْر من العلاءِ الذهاب مرة أخرى .[١٣١]

لا نعرف الكثير عن الوَضْع في البَحْرَيْن آنذاك ، لكنّه من الواضح أنَّ القبائل العَرَبِيّة فيها كانت تشعر بثقل وجود الفرس في بلادهم ، و هذا ما دفع المنذر لإقامة علاقة مع حركة جديدة ، و ربّما كان في ذهنه السّيطرة كليّاً على البلاد مستعيناً بدعم مُحَمَّدٍ ، في حين أنّ المصادر نفسها لا تحدثنا عن نجاح العلاءِ في إقامة علاقة مع مرزبان هَجَر ، و من هنا نجد أنّ المصالح المتنافرة بين الفرس و العرب في البَحْرَيْن مكّنت الحركة الإسْلاميّة من التغلغل في المنطقة مع ملاحظة أنّ القبائل العَرَبِيّة لم تكن تشترك في مصلحة واحدة ، و على أساس هذه الاعتبارات فإنّنا لا نستطيع قبولَ أنْ يكون المنذر قد أعلن إسْلامه ، إذ دأب المؤرخون الإسْلاميّون على اعتبار كلَّ من أقام علاقةِ تحالفٍ أو أنشأ اتصالاً مع

---

[١٢٩] تاريخ الطبري : ٢ / ٣٢٥ ؛ رضا : ١٣٧ .
[١٣٠] المَرْزُبان : عند الفرس الرئيس .
[١٣١] ابن سعد : ٤ / ٣٦٠ ـ ٣٦١ ؛ فُتُوح البُلدَان ، ٨٩ ، ٩٢ ؛ البداية و النّهايَة ؛ الصّدّيق ، ١٦١ .

مُحَمَّدٍ مؤمناً برسالته ، و في الواقع تكشف لنا **حروب الرَّدة** أنّ العلاقة الَّتِي كان يقيمها زعماء القبائل مع مُحَمَّدٍ كانت مدفوعةً بهواجس داخليّة ، و أنّ الَّذِين ناوئوا الإِسْلام في كلّ مجتمعٍ إنّما ناوئوا خصومهم في إطار الصّراع الداخليّ ، فظهر و كأنّ الصّراعَ صراعٌ بين المسلمين والوثنيين في صفوف القبائل .

في حالة البَحْرَيْنِ نلاحظ أنّ الجارود بن المُعَلَّى استطاع إقناع عبد القيس بإعلان الولاء لحركة الإِسْلام بعد وفاة المنذرِ ، في حين أنّ بكرَ بن وائل حافظت على موقفها الرّافض للخضوع للإِسْلام . و يعود سببُ الموقف المتباين من الإِسْلام إلى أنّ عداءً مستحكماً بين بكر بن وائل ، و عبد القيس لعب دوراً في دفع البكريين لتبني موقفهم المعادي للإِسْلام ؛ إذ لما قررت قبائل عبد القيس البقاء على ولائها للإِسْلام ، قابلت بكرُ بن وائل هذا الموقف بنقيضه ، و قررت البحث عن شرعيّة دَوْلَتية لهم ، فتوصلوا إلى قرارٍ يقضي بإرجاع الملك إلى آل النعمان بن المنذر ؛ و لهذا قاموا بدعوة المنذر بن النعمان ـ الملقب بالغَرور ـ لتسلم الملك .[١٣٢]

أمّا لماذا اختارت عبد القيس مناصرة الإِسْلام ، و بنو بكر معاداته فلا نستطيع إلاّ أنّ نقدم فرضيةً ، و هي إنّ القيسيين كانوا أضعف من نواحٍ اقتصاديّةٍ ، و كانوا مهمشين في تلك البلاد ؛ و لهذا كانوا يرغبون بتغيير اللوحة السيا ـ اقتصاديّة ، فاضطروا للمراهنة على تلقي دعمٍ من القوة الجديدة ، في حين كان البكريون على علاقة جيدة بالفرس و نوابهم في البلاد ويملكون وَضْعيّة اقتصاديّة أفضل تستدعي منهم الحفاظ على ما هو قائم ؛ و لهذا فقد طلبوا من فارس الدعم ، و الَّتِي كانت على ما يبدو تستضيف المنذرَ ، فزوّدتهم بمئة من الخيل ، وسبعة آلاف مقاتلٍ بين فارس و راجل .[١٣٣]

نشبت المَعْرَكَة بين بني بكر ، و بني عبد القيس ، الَّذِين حاربوا تحت قيادة الجارود بن المعلّى في أربعة آلاف من عبد القيس و أحلافهم ، بينا كانت قوات بني بكر بن وائل بقيادة الحُطم ـ شريح بن ضُبَيعة ـ ، و مؤلفة من تسعة آلاف من الفرس ، و ثلاثة آلاف من العرب ، فحاقت الهزيمة بعبد القيس ، فأُجبروا على

---

[١٣٢] تاريخ الطبري : ٢ / ٢٨٦ ؛ كتابُ الرَّدة ، ٢٢٤ ؛ الكامل : ٢ / ٣٦٨ ، فُتُوح البُلدَان ، ٩٤ .
[١٣٣] كتابُ الرَّدة ، ٢٢٤ ـ ٢٢٥ . نحن نشكك بدقة رقم جنود الدعم ، و على الأقلّ بسبب رقم **سبعة** .

اللجوء لحصن لهم بمنطقة هَجَرَ يُقال له **جُواثاء** ؛[١٣٤] فضربت بنو بكر حصاراً شديداً عليهم ، و منعوا عنهم الطعام .

لمّا بلغت أَبَا بَكْر الأخبار هبّ لنجدة عبد القيس ، فبعث العَلاَءَ بن الحَضْرَميّ لمساندتهم مع ألفيْ مقاتلٍ من المهاجرين و الأنصار ، و طلب منه أنْ يستنهض كلَّ قبيلةٍ يمر بها أثناء مسيره .[١٣٥] و لعلّ ما دفع أَبَا بَكْر لاختيار العلاء ، كونه كان في البَحْرَيْن ، و من المفترض أنّه فهم طبيعة مجتمعات المنطقة ، و إطّلع على ماهيّة العلاقة السِّيَاسِيّة بين القبيلتيْن المتصارعتيْن .

في طريقه نحو البَحْرَيْنِ ، و لما بلغَ الْيَمَامَةَ ، التقى بثُمامة بن أثال الحنفي ـ حليف المسلمين ؛ فطلب منه المناصرة ، لكنّ ثُمامة لم يقدم التزاماً قبل أنْ يستشير قومه ، الَّذِين خرجوا لتوهم من حرب طاحنة مع قوات خالد ؛ و عندما دعا ثمامة قومه للمشاركة في مهمة العلاء ، رفضوا ذلك بسبب الخسائر الجسيمة الَّتِي لحقت بهم في الأرواح ، و الأموال أثناء محاربة قوات خالد ؛ و لهذا سار ثمامة مع العَلاَءِ بن الحَضْرَميّ في مجموعة صغيرة من بني عمه و حسب ، و فقط قدم بنو سعد ـ من بطون تميم ـ القرى ، و الإنزال ، و العلف . ورافق العلاء أشراف بني سعد حَتَّى تخوم مناطق بني تميم .[١٣٦]

وصلت قوات العلاء إلى البَحْرَيْن ، و تمكّنت من فك الحصار ، بعدما شنّت هجوماً ليليّاً مفاجئاً ، مما جعل البكريين ، الَّذِي كانوا يضربون الحصار على القيسيين بين فكي كماشة؛ و بعد ذلك انضمت عبد القيس لقوات العلاءِ فصار عددهم أكثر من ستة آلاف مقاتل . وعلى إثْر ذلك انسحبت قوات الفرس و بني بكر إلى موضع يُقال له **الرّدْم** ، بينما تابعت القوات الإسْلاميّة المسير إلى **دَارِين** ـ ميناء في البَحْرَيْن ـ ، و هناك قتلوا جميع الذكور البالغين ، و استولَوا على جميع ما فيها من النّساءِ ، و الذريّة ، و الأموال .[١٣٧]

اتجه العلاءُ بعد ذلك إلى الرّدْم حيث تمركزت قوات الأعداء المنسحبة ، و هناك حقق نصراً آخر عليهم مما دفع بتلك القوات للتشتت ، فانسحبت بنو بكر باتجاه الصحراء ، و لجأ المنذر بن النعمان إلى آل جفنة بالشّام و منهم من يقول

---

[١٣٤] تُكتب الكلمة بصيغ مختلفة : جُواثا ، جؤاثى .
[١٣٥] كتابُ الرَّدة ، ٢٣٠ ـ ٢٣٢ ، ٢٣٤ ـ ٢٣٥ ؛ ابن سعد : ٤ / ٣٦١ ؛ الكامل : ٢ / ٣٦٨ .
[١٣٦] كتابُ الرَّدة ، ٢٣٦ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ .
[١٣٧] كتابُ الرَّدة ، ٢٤٤ ـ ٢٤٦ .

إنّه قُتل ، أو التحق بمُسَيْلِمةَ ، و القول الأخير غيرُ ممكنٍ لأنّ مُسَيْلِمةَ كان قد قُتل من قبل في مَعْرَكَة عَقْرَبَاءَ ، أما الفرس ، فمنهم من رجع إلى فارس ، و منهم من استأمن إلى العلاءِ ، ومنهم من لجأ إلى المناطق الَّتِي لم يشملها نفوذ الإِسْلام ، ثُمّ إنّ العلاء بقي أميراً على البَحْرَيْن. لكن المسلمين لن يتمكّنوا من السيطرة على كامل البَحْرَيْن إلا في عهد عُمَرَ بن الخطّابِ ، إذ ستبقى مناطق منها عصيةً على الفتح [١٣٨] حَتَّى خلافة عمرَ .[١٣٩]

عندنا رواية ثانية جاءت عند الطبري ، و بالطبع عند ابن الأثير الَّذِي أخذ كثيراً منه ، و تقول هذه الرِّوايَة إنّ قوات العَلاَءِ بن الحَضْرَميّ وصلت إلى هَجَر ، فنزلها العلاءُ ، ثُمّ اجتمع إليه المسلمون ، و احتشد أعداء الإِسْلام بقيادة الحُطم ، و هناك خندق الطرفان ، و كانا يتراوحان القتال و يرجعان إلى خندقيهما ، و بقيا على هذه الحالة شهراً ، ثم قام المسلمون فجاءةً بشنّ هجوم حاسم ، مستغلين حالة سمر و سكر كانت تعم مقاتلي العدو . في الواقع تتسم هذه الرِّوايَة باللامعقوليّة ، و هذا سمَة تفاصيل الاستيلاء على البَحْرَيْنِ ، و المليئة بالغموض ، و الأساطير عند الطبري ، و لهذا أخذنا رواية الواقدي كروايةٍ دقيقةٍ ، و متماسكة في بنائها ، و الجدير بالذكر أنّ بقية الرِّوايَة عند الطبري تتابع النسج الأسطوريّ ، فتقول إنّ العلاءَ تحرك نحو دَارِين لملاحقة الفلاّل ، و لما واجهه البحر ، قام العلاء باجتيازه مع قواته كما لو كان على أرض يابسة .[١٤٠]

آن الأوان لنرى ما جرى في المناطق الأخرى في الجَزِيْرة العَرَبِيّة . و كانت ساحات سهلة بالنسبة للجيوش الإِسْلاميّة الَّتِي تمرّست في ساحات أشد ضراوةً ، و ما هي إلاّ يسيراً حَتَّى تتمكن الحركة الإِسْلاميّة من بسط نفوذها عليها ، و الفضل الرئيس يعود إلى الصّراعات الداخليّة فيها .

---

[١٣٨] السابور ، دَارِين ، الزارة .
[١٣٩] كتابُ الرَّدة ، ٢٤٨ ـ ٢٥١ ؛ فُتُوح البُلدَان ، ٩٥ ؛ معجم البلدان ، **البَحْرَيْن** .
[١٤٠] تاريخ الطبري : ٢ / ٢٩٠ ـ ٢٩١ ؛ الكامل : ٢ / ٣٧٠ ـ ٣٧١ .

السيطرة على المناطق المساحلة للمحيط الهندي و بحر عُمان

عُمان

كان الأزد يشكلون غالبيّة سكان عُمان ، و قد ناصروا ذا التَّاج لَقِيط بن مالك الأزديّ، الَّذِي كان يسمى في الجاهليّة الجُلَنْدي ـ في صراعه مع جَيْفَر و عبّاد ،[١٤١] و تعتبر كتب التاريخ الإسْلاميّة ذا التاج مُدّعيّ نبوّة ، إلاّ أنّها لا تقدم ما يدعم رؤيتها ، و قد درج المؤرخون الإسْلاميّون على النظر إلى كلّ زعيمٍ قبليٍّ ، دخل في صراعٍ مع الحركة الإسْلاميّة كمُدّعيّ نُبوّة .

تمكّن ذو التاج من السّيطرة على عُمان فأضطر جَيْفَر للانسحاب إلى الجبال ، و منها بعث إلى أَبِي بَكْر يستجيشه لمحاربة ذي التاج ؛ و لم يضيع أَبُو بَكْر الفرصة ، إذ بعث حُذَيفة بن مِحصن الغَلْفانيّ من حِمْيَر إلى عُمانَ ، و عَرْفجةَ البارقيّ من الأزد إلى مَهْرَة ، و طلب من عِكْرِمَةَ بنُ أَبي جهْل ـ بعد مَعْرَكَته الفاشلة مع مُسَيْلِمة ـ التوجه إلى عُمانَ لمساعدتهما . و نستطيع القول إنّ التدخّل في عُمانَ تمّ بالتزامن مع الانتصار على بني حنيفة ، أو حَتَّى سبقه قليلاً .

التحق جَيْفَرٌ ، و عبّادٌ بقوات المسلمين ، و التفت قواتهم في دَبا مع قوات ذي التاج ، و الَّذِي كادت قواته أن تحقق النصر ، لولا وصول إمدادات من بني ناجية ، و من عبد القيس، فتمكّن حلفاء الحركة الإسْلاميّة من تحقيق النّصْر .[١٤٢]

مَهْرَة

بعد ذلك توجه عِكْرِمَةُ إلى مَهْرَةَ ، و معه قوات من ناجية ، و عبد القيس ، و راسب، و سعد . و كانت مَهْرَةُ منقسمة بين معسكريْن : الأوّل مع شخريت ،[١٤٣]

---

[١٤١] عياذ ، الكامل .
[١٤٢] تاريخ الطبري : ٢ / ٢٩١ ـ ٢٩٢ ؛ الكامل : ٢ / ٣٧٢ ـ ٣٧٣ ؛ فُتُوح البُلدَان ، ٨٧ ؛ البداية و النّهايَة .
[١٤٣] سِخريت ، الكامل .

و الثاني مع المُصبَّح ، و الَّذِي كان معه أغلبيّة النّاس ؛ ففاوض عِكْرِمَةُ شخريت على الانضمام إليه ، و بالفعل وافق على الاقتراح و بذلك استطاع عِكْرِمَةُ الاستفراد بالمصبّح ، وألحق به هزيمة .[١٤٤]

اليمنُ

ما إنْ وصل خبرُ وفاةِ مُحَمَّدٍ إلى اليمنِ حَتَّى اهتزت الوَضْعيّة السِّيَاسِيّة فيها من جديد، عندما اشتعل الصّراع بين القوى الَّتِي شاركت في اغتيال العَنْسيّ ، فدخل قيس بن عبد يغوث المكْشوح في صراع مع فَيْروزَ و دَاذَوَيْه ، إذ حاول قتلهما ، و لم يتمكّن إلا من قتل دَاذَوَيْه ، و بينا استطاع فَيْروز النجاة . و لم تكن لوفاة مُحَمَّدٍ دور في إشعال نيران الصّراع بينهما ، بل نشأ على خلفيّة العداء بين الأبناء الَّذِين كانوا يؤيدون فَيْروزَ ، و دَاذَوَيْه ، و بين عرب اليمن ؛ لا سيّما أنّ أَبَا بَكْر كلّف فَيْروزَ مسئوليات إدارة البلاد كما تقول الرِّوايَات ، و لعله بارك توليه القيادة ، فلم يكن بوسع أَبِي بَكْر أنْ يكلّف شخصاً سُلْطةً لا يملكها . و الأزمة نشبت بسبب من تبوّؤ فَيْروز القيادة ، و شعور قيس بالغبن ، و هو من أهل البلاد الأصليين ، الَّذِين كانوا يشعرون بالتذمر من الأبناء .

شعوراً منه بالظلم ، تحرك قيس لتصحيح الخارِطَة السِّيَاسِيّة في اليمن ، فتمكّن من جمع مقاتلين من قبائل حِمْيَر ، و يعود نجاحه فيهم دون غيرهم إلى أنّه كان ينتسب إليهم ؛ بالمقابل استعان فَيْروز ببني عُقَيْل ، و بعكّ ، و قد التقت القوى المتعاديّة قرب صنعاء ، ومنيت قوات قيس بهزيمة أجبرتهم على الانسحاب و التذبذب فيما بين صنعاء و نجران . وبسبب من عدم قدرته على تحشيد القبائل العَرَبيّة في اليمن اضطر قيس لطلب المعونة من فلال قوات الأسود الَّتِي كانت تجوب في المنطقة أيضاً ، و تمكن بمعاونتهم من السيطرة على صنعاء و ما حولها .[١٤٥]

---

[١٤٤] تاريخ الطبري : ٢ / ٢٩٢ ـ ٢٩٣ ؛ الكامل : ٢ / ٣٧٣ ـ ٣٧٤ ؛ البداية و النّهايَة .

[١٤٥] تاريخ الطبري : ٢ / ٢٩٦ ؛ الكامل : ٢ / ٣٧٥ ـ ٣٧٧ ؛ تاريخ ابن خلدون ، م ٢ ، ج ٢ / ٦٧ ؛ أيام العرب في الإسْلام ، ١٧٥ ؛ الصّدّيق ، ١٧٠

لم يتردد أَبُو بَكْر في توظيف المستجدات في اليمن ، و بسرعة تدخل في صراعات أطرافها ؛ لمد سُلْطان الحركة الإِسْلاميّة إليها ، و لهذا قرر تجييش جنودٍ من قبائل موالية للمدينة في اليمن ، و ذلك لمساندة الأبناء في صراعهم ضد قيس و أتباعه ، و ما هي إلاّ يسيراً حَتَّى حاقت الهزيمة بقيسٍ ، و وقع بالأسر ، فتسلّم فَيْروز ـ المتحالف مع المدينة ـ ولاية صنعاء مجدداً .[١٤٦]

أُرسل قيس إلى المدينة ، فعفا عنه أَبُو بَكْر رغبةً منه في الاستفادة من خبرته لصالح الحركة الإِسْلاميّة حيث كان قيس على دراية جيدة بمسائل الحَرْبِ و وسائل الصراع السِّيَاسيّ، و سيبعثه أَبُو بَكْر فيما بعد إلى العراقِ و يأمر قواده أنْ يستشيروه ، و حسب ، و ألاّ يُنيطوا به أيّةَ مسئوليةٍ قياديةٍ .[١٤٧]

لقد انتهت الصّراعات الداخليّة في اليمن لصالح القوى الَّتِي تحالفت مع الحركة الإِسْلاميّة ، و الصراع فيها لم يكن موجهاً ضد الإِسْلام ، بل كان صراعاً محليّاً ، يسعى كل طرف فيه للحصول على دعم المدينة .[١٤٨] لقد تمكّنت المدينة من الهيمنة على اليمن بسبب من تفكك تركيبتها السِّيَاسيّة الداخليّة ، و حاجة الأطراف المتصارعة لقوى خارجيّة تساندها ، وفي كلتى المرتين (الأولى ضد العَنْسيّ ، و الثانية ضد قيس) كان حلفاء الحركة الإِسْلاميّة هم الَّذِين ينتصرون ، لكنْ في المرّة الثانية كان الانتصار قد تحقق بفضل إمدادات مباشرة من المدينة ، و عند هذه النقطة و بعد أن حقق فَيْروزُ انتصاره بفضل الدعم المباشر من الحركة الإِسْلاميّة أصبح مستحيلاً عليه الحفاظ على استقلاله ، لأنّ القوات الَّتِي ساعدته كانت تدين بالولاء لغيره ، فأساء فَيْروز السلوك السِّيَاسِيّ لأنّه لم يكن يفهم أن الأمير العاقل يتجنب القوات الخارجيّة ، و يعتمد فقط على قواته الخاصة ، و و يؤثر أنْ يخسر المعارك بقواته على أنْ يكسبها بقوات غيره ؛[١٤٩] لقد غدا فَيْروز أسير المدينة ، و حاكماً في بلاده بأمر قائد المدينة .

أمّا بالنسبة لسكان نَجْران فإنّهم آثروا بعد وفاة مُحَمَّدٍ البقاء بعيداً عن صراعات القبائل، فبعثوا وفداً ليجددوا عهدهم مع قيادة المدينة ، و قد صادق أَبُو

---

[١٤٦] تاريخ الطبري : ٢ / ٢٩٦ ؛ تاريخ خلدون ، م ٢ ، ج ٢ / ٦٧ .
[١٤٧] ابن سعد : ٥ / ٥٣٥ .
[١٤٨] شوفاني ، ١٧٥ .
[١٤٩] الأمير ، ١٢٧ .

بَكْر على العهدِ الَّذِي كان بينهم و بين مُحَمَّدٍ من قبل .[١٥٠] و في قرارهم هذا نجد أنّ أهل نجرانَ الَّذِين فضلوا المحافظة على العهد الَّذِي بأيديهم قد خففوا الضغط على قوات المدينة ـ مكّة ، و مكنوا المسلمين من السيطرة على اليمن ، إذ لو كانوا تدخلوا إلى جانب القبائل الحميريّة ، لكنا شهدنا حرباً داميّةً كالَّتِي جرت في عَقْرَبَاءَ ، لكنّ أهلَ نجرانَ المسيحيين سهّلوا على الحركة الإِسْلاميّة بسط نفوذها في اليمن بتجنبهم المشاركة في الصّراعات القبليّة الداخليّة؛ و لربما ظنوا لبعض الوقت أنّ الصّراع إِسْلاميّ ـ وثنيّ .

إخضاع حَضْرمَوْت

بعد الانتهاء من البَحْرَيْنِ ، قرّر أَبُو بَكْر توجيه جيشٍ لمحاربة الحضارمة ، الَّذِين تقول عنهم الرِّوايَات إنّ مُحَمَّداً مات و عمَّاله على بلادهم كتالي :

١ ـ زياد بن لَبِيد البياضيّ (الأنصاريّ) على حَضْرمَوْت .

٢ ـ عُكَّاشَةُ بنُ ثُوْرٍ على السَّكاسِك و السَّكون ـ من قبائل كندة الحضرمية ـ .

٣ ـ المُهاجرُ بنُ أَبِي أُميّةَ على كِنْدة ـ و كان مُحَمَّدٌ قد عيّنه عليها ، بيد أنّه لم يكن قد خرج من المدينة بعد حين تُوفيَّ مُحَمَّدٌ ، فبعثه أَبُو بَكْر للمشاركة في معارك اليمن والمُضِيّ بعد ذلك إلى عمله .[١٥١] و إذا كان شارك حقاً في معارك اليمن فإنّ مشاركته كانت بوصفه مقاتلاً لا قائداً عسكريّاً ، إذ لا يوجد له ذكر في لائحة القواد .

هذا ما تورده المصادر ، و كالعادة لا يمكن تقّبل هذه الرِّوايَات دون التشكيك الشديد بها ، و لا سيّما أنّ أحدهم ـ المُهاجرَ بن أَبِي أُميّةَ ـ لم يخرج إلى مهمته ، إذ مات مُحَمَّدٌ ، و هو في معقل حركة الإِسْلام ، فما هو الحائل الَّذِي منع التحاقه بعمله بعد وفاة مُحَمَّدٍ مباشرةً؟ و من جهة أخرى لا تذكر المصادر اسم شخصيّة مكلّفة بتعليم الإِسْلام . لكن ما يمكن قبوله بصدد حَضْرمَوْتَ أنّ ثمّة أسباباً معينة سمحت لِمُحَمَّدٍ بإرسال زياد بن لَبِيد ، و يبدو أنّ وجوده كان مرتبطاً بحركة

---

[١٥٠] تاريخ الطبري : ٢ / ٢٩٥ ؛ الكامل : ٢ / ٣٧٦ .

[١٥١] تاريخ الطبري : ٢ / ٣٠٠ ؛ الكامل : ٢ / ٣٧٨ ، و في الكامل : عُكاشة بن أبي أميّة .

العَنْسيّ ، الَّذِي ينتمي إلى مذحج ، و كان الحضارمة على عداءٍ معهم ، و على أساس هذا المعطى السِّيَاسيِّ أُقيمت علاقات بينهم ، و بين مُحَمَّدٍ ، و الَّذِي يجب أن يكون قد وعدهم المناصرة في حال تعرضوا لهجمات من العَنْسيّ الَّذِي بلغت سلطته حدود حَضْرَمَوْت ، هذه العلاقة خدمت الجانَبيّن ، فبالنسبة لِمُحَمَّدٍ كانت جزءاً من نشاطه لمحاصرة العَنْسيّ ، و بالنسبة للحضارمة كانت العَلاقة مع الحركة الإسْلاميّة توفر لهم حليفاً في حال تابع العَنْسيّ توسعه باتجاههم ، أي إنّهم دخلوا في إطار **السلم الإسْلاميّ** ، مما يرتب عليهم دفع الزّكاة كثمن للحماية الَّتِي منحتهم إيَّاها الحركة الإسلامية .

إذاً ، كان زياد عشية رحيل مُحَمَّدٍ في حَضْرَمَوْت بوصفه ممثلاً ـ عاملاً ـ لحركة الإسْلام ؛ على أنّ وجوده كعامل لِمُحَمَّدٍ لا يعني أن الحضارمة قد اعتنقوا الإسْلام ؛ و لهذا لما مات مُحَمَّدٌ لم يعلنوا قبولهم بسيطرة حركة الإسْلام عليهم ، و خصوصاً بوصول خبر مقتل العَنْسيّ ، فقرروا التريّث حَتَّى تقرّ القبائل بسُلْطة المدينة ، لكن زياداً أخبرهم أنّ المهاجرين و الأنصار قد اجتمعوا تحت راية أَبِي بَكْر ، فطلب منه الأشْعَثُ بن قَيسٍ إمهالهم حتى يروا إلامَ تئول الأمور ، فلم يعلّق زيادٌ على هذا الكلام . و هي إشارة واضحة من قِبل الأشْعَث إلى أنّ سيطرة الإسْلام على مناطق نفوذها (مكّة ، و المدينة ، و الطائف و محيط هذه الحواضر) باتت أمراً مشكوكاً به ، و كان الأشْعَث يفكر وفق الحساب التالي ، إنّ القبائل العَرَبيّة لن تخضع بسهولة للمدينة ، و كندة هي أبعد القبائل العَرَبِيّة عنها من جهة الجنوب ، و من الأفضل انتظار نتائج الصراعات الَّتِي ستخوضها الحركة الجديدة ، و هذا يسمح بتجنب الانزلاق إلى صراع معها .[١٥٢]

ككلّ مكانٍ في الجَزِيْرة العَرَبِيّة ، كان الحضارمة منقسمين على أنفسهم ، فرقة تؤيد الاستمرار بالعلاقةً مع حركة الإسْلام ، و الالتزام بتقديم الزَّكاة ، و فرقة ترفض دفع الزَّكاة ، و تؤيد الحفاظ على التشكيل الحالي للقبيلة و الاستقلال الاقتصاديّ . و من المرجح أنّ سبب هذا الانقسام وجود مصالح متعارضة بين بطون القبائل ؛ و هذا التعارض ـ إضافة لعدائهم مع مذحج ـ سمح لِمُحَمَّدٍ بإرسال زياد بن لَبِيد إليهم .

---

[١٥٢] كتابُ الرَّدة ، ٢٥٣ ـ ٢٥٤ .

في هذا الجو غير المستقرّ نسبيّاً شرع زياد بن لَبِيد يجمع الزّكاة ، من أجل أنْ يوجه بها إلى أَبِي بَكْر بعدما حققت القوات الإِسْلاميّة انتصاراتها الواضحة على القبائل المتمردة القريبة من المدينة ؛ و يبدو أنّ المقصود بعيد مَعْرَكَة ذي القصة . و على أي حال لم يكن الجميع يشعر بالرضى على جمع الزَّكاة ؛ مما جعل المَنَاخَ السِّيَاسيّ قابلاً للاشتعال جراء أيّة شرارةٍ ، و بالفعل ستهتز الأرض تحت أقدام زياد بن لَبِيد عندما طلب حارثة بن سُرَاقة ـ من زعماء كندةَ ـ منه استرجاع ناقة ، من الَّتِي أُخذت كصدقة ، و هي كانت لفتى من كندة ، على أنْ يعطيه غيرها من أبل حارثة نفسه ؛ إلاّ أنّ زياداً رفض ذلك ، رغبةً منه على ما يظهر بالتشدد ، و عدم التسامح مع أيّة نزعة تضمر تحركاً مناوئاً للإِسْلام .

ألحق هذا الرفض الَّذِي يفتقد للحكمة السِّيَاسِيّة إهانةً كبيرةً بحارثةَ بن سُرَاقة ، و دفعه للتوجه إلى المكان الَّذي تجمع فيه إبل الصدقة ، فاستردّ الناقة المطلوبة بنفسه ، ثمّ أعلن : ((نحن إنّما أطعنا رسول اللَّهِ إذ كان حيّاً ، و لو قام رجل من أهل بيته لأطعناه ، و أما ابن أبي قحافة فما له طاعة في رقابنا و لا بيعة)) .[١٥٣]

نحن نرى هنا أنّ رفض سُلْطة المدينة ـ مكّة يتجلى برفض لشخص هذه السُّلْطَة ، لا للسُّلْطة نفسها . و علينا الحذر من القول الَّذِي أنفرد به الواقدي : ((لو قام رجل من أهل بيته لأطعناه)) ، فالواقدي ينتمي لمدرسة المدينة في التاريخ ، و بنفس الوقت فيه شبهة تشيّع . على أيِّ حالٍ سيتخذ رفض سُلْطة الخلافة شكلَ رفضِ سُلْطة الشّخْص المتربع على كرسيها ، و الرافض يبحث عن البديل الوهمي ـ النقيض ـ للقيادة و حسب ، و هي تخفي الرفض الحقيقي برداء رفض شخصِ الخَلِيْفَة ـ ليس إلاّ ـ . و هذا ما يبقى الرافض في إطار المنظومة الإِسْلاميّة ، و يسمح له بالصّراع مع السُّلْطَة من خلال نفس المنظومة الفكريّة ، هذا إذا لم يكن من موقع إيديولوجي أقوى ـ موقع الدفاع عن السُّلْطَة الشرعيّة ، سلطة أهل البيت ـ . و هذه السيرورة قد جرت في عهد متأخر و يمكن أنْ نتلمّس خطوطها الأوليّة في نهاية عهد عثمانَ ، لكنّها ستتوضح في بداية عهد مُعَاوِيَة ، بعدما آل الصراع الدمويّ على السُّلْطَة بين عليٍّ و مُعَاوِيَةَ إلى انتصار الأخير ، و توطيده أسس الدّوْلَة المَلَكِيّة ـ شيمة دُوَلِ تلك الأزمنة ـ ، في هذا القول ، و مثليه نجد

---

[١٥٣] كتابُ الرِّدة ، ٢٥٦ ـ ٢٥٨ ؛ فُتُوح البُلدَان ، ١٠٩ ؛ الكامل : ٢ / ٣٧٩ ؛ معجم البلدان ، حَضْرمَوْت .

إسقاطات من أزمنة لاحقة ، و تفسيرات لأيام نشأة دولة الإسْلام ، تلبي حاجات الصّراع على السُّلْطَة و الشرعيّة في العهديْن الأمويّ ، و العباسيّ ، و لهذا لن نستغرب أن تحدثنا شخصيّات العهد الإسْلاميّ المبكّر بلسان غير لسانها ، بل بلسان رواتها ، و محرري أخبارها .

أحفظ تصرف حارثةَ زياداً ، فغادر مقرّه ، و معه أصحابه ، فلما صار على مسيرة يومَيْن كتب إلى القوم متوعداً ؛ فأغضب هذا الوعيد كندة أشدّ الغضب ، و علق الأشْعَثُ بنُ قَيسٍ على ذلك بأنّه كان حَرِياً بقومه قتل زياد بن لَبِيد ، فالعواقب أصبحت واحدة ، و رأى أحد الكنديين أنّ قبولهم لوجود زيادٍ يماثل موافقتهم على الخضوع للعبوديّة ، و أعلن : ((**والله لا طَمِعتْ قريش في أموالنا بعدها أبداً**)) .[١٥٤]

في هذه الأثناء بعث زيادٌ بأموال الزَّكاةِ الَّتِي كان قد جمعها إلى أَبِي بَكْر ، و عطف إلى بني ذهل بن مُعَاوِيَة ـ فرعٍ من كندة ـ ، و طلب منهم الحفاظ على ولائهم للحركة الإسْلاميّة ، فرفض الحارث بن مُعَاوِيَةَ ـ أحد ساداتهم ـ طلبه . و سرعان ما رفضت بقية قبائل حَضْرمَوْت الخضوع لسلطة المدينة ـ مكّة ؛ إذ إنّها لم تكن ترغب بنصرة زيادٍ على أحد بطونها .

و إذ لم يستطع ابن لَبِيد حيازة تعاطف قبائل كندة بسبب مسئوليته عن إشعال نار الفتنة من جهة ، و كون الصّراع كان مع بطنٍ كندي ؛ فإنّه قرّر العودة إلى المدينة ، و من هناك بعثه أَبُو بَكْر قائداً لجيش مكوّن من أربعة آلاف من المهاجرين و الأنصار لإخضاع حَضْرمَوْتَ .[١٥٥] و علينا أنْ نفترض أنّ بعث الجيش كان بعد الانتهاء من مُسَيْلِمة ، حيث كان يستطيع أَبُو بَكْر تجييش قوات كبيرة نسبياً للقتال .

أحدثت أنباءُ مسير جيشِ المسلمين انقساماً داخل مجتمع حَضْرمَوْتَ ، ما بين داعٍ للتراجع عن تحديهم لحركة الإسْلام ، و آخر رافض ، و قد زاد من قلق الحضارمة أنّهم كانوا على عداوة مع مذحج ، و خافوا من أن تنقلب الآية ، فتتكتل عليهم قوات مذحج ، و قوات المسلمين . و فيما هم يتجادلون أشرف جنود المسلمين

---

[١٥٤] كتابُ الرَّدة ، ٢٦١ .
[١٥٥] كتابُ الرَّدة ، ٢٦٤ ـ ٢٦٥ ، ٢٦٨ .

على بني كندة ، فأقبلت إليه السَّكاسِك و السَّكون ـ قبيلتان من قبائل كندة ـ فطلبوا من قائده السّلام ، و وعده المناصرة .[١٥٦]

كان بنو هند أوّل بطنٍ من بطون قبيلةَ كندة ، تعرّض لهجوم المسلمين ، فحاقت الهزيمة بهم ، و أخذ المسلمون نساءهم ، و أولادهم ، و استولوا على أموالهم ، و تتابعت انتصارات المسلمين ، على بني العاتك ، ثم على بني حجر ، و على بني جمر . فلما علم الأشْعَثُ بنُ قَيسٍ بما فعله زياد بن لَبِيد بتلك البطون الكنديّة ، أقسم على نفسه مواجهة قوات المسلمين ، فلم يعد ممكناً بالنسبة إليه تجنّب القتال بعدما تعرّضت نساءَ و أطفالَ كندةَ للسبي ، و استولى المسلمون على أموالهم .[١٥٧]

جمع الأشْعَث مقاتلين من بني مرّة ، و بني عدّي ، و بني جبلة ، و سار يريد التصدي لزياد ، و معه ألف فارسٍ من قومه ، و زياد في أربعة آلاف من المهاجرين و الأنصار ، إضافة لخمسمئة رجلٍ من السَّكاسِك و السَّكون .

التقى الفريقان قريباً من مدينة من مدن حَضْرمَوْت ، يُقال لها **تَرِيمُ** ، فاقتتلوا ، حيث حاقت الهزيمة بزيادٍ و من معه من المسلمين ، فأُجبروا على دخول مدينة تَرِيم ، و التحصّن فيها ؛ و يبدو أنّ تَرِيمَ حصنٌ أكثر من كونه مدينةً ، فاسترّد الأشْعَثُ الأموال ، و الغنائم ، والسبي ، فردّها إلى أهلَها ؛ ثُمّ إنّه ضرب حصاراً شديداً حول الموقع . و بينا هم مُحاصَرون أقبل المهاجر بن أميّة عليه في ألف فارسٍ ، فتنحى الأشْعَث عن باب تَرِيم ، و لما دخل المهاجر المدينة ، عاد زياد لفرض الحصار ، و طلب الأشْعَث من قبائل كندة العون ، فلباه الجبر بن القشم في قومه من بني الأرقم ، و أبو قرَّة الكندي في قومه من بني حجر ، والجفشيش بن عمرو في قومه من بني هند ؛ و هذا ما سمح بتشديد الحصار على زياد ، والمهاجر .[١٥٨]

وصلت الأخبار إلى أَبِي بَكْر ، فلم يجد بدّاً من الكتابة إلى الأشْعَثِ بن قَيسٍ مقترحاً عليه تسوية القضيّة ، و أخبره إنّه سيعزل زياداً إذا كان تصرفه هو الّذِي سبب انتفاضتهم ، ويولي عليهم من يحبون ، و قال لهم إنّ حاملَ الكتابِ مخولٌ

---

[١٥٦] كتابُ الرَّدة ، ٢٦٨ ـ ٢٧٣ ، ٢٧٨ .
[١٥٧] كتابُ الرَّدة ، ٢٧٨ ـ ٢٨٢ .
[١٥٨] كتابُ الرَّدة ، ٢٨٣ ـ ٢٨٤ .

بتوجيه الأمر لزياد بالانصراف في حال قبوله العرض . فلما وصل الكتاب إليه مع مسلم بن عبد الله ، لاحظ الأشْعَث بعد قراءته للرِّسَالة أنّها لا تحمّل ابن لَبِيد مسئولية القتال ، و به تبرئة له مِنْ قتل مَنْ قتل ، فأيّد الرسول ذلك ، مما أثار فتىً من بني مرّة ، فضرب الرسولَ بالسيف ، فأرداه قتيلاً ؛ و احتجاجاً على هذا التصرف رحل بنو حجر ، و بنو الأرقم . واحتجّ أبو شمر الكنديّ ـ من بني حجر ـ على ذلك ، فرد الأشْعَث : « يا هؤلاء لا تعجلوا فإنّه قد شهد عليّ و عليكم بالكفر . و بعد ، فلم أمر بقتله ، و لا ساءني ذلك » . و قد حاولت القوات الإسْلاميّة استغلال انسحابهما ، فتصادموا مع قوات الأشْعَث خارج تَرِيم ؛ إلاّ أنّهم فشلوا في تدمير قوات الأشْعَث ، و لاذوا مجدداً بتَرِيمَ ، فضُرب الحصار عليهم مرة أخرى.[١٥٩]

لإنقاذ المسلمين المُحاصَرين و حسب اقتراح عمر بن الخطّاب ، طلب أَبُو بَكْر من عِكْرِمَةَ بن أبي جهل ، و الَّذِي كان يومئذٍ بمكّةَ ، المسير بمَنْ تطوع من المكّيّين ، و أنْ يستنهض في طريقه القبائل العربيّة .[١٦٠] فتمكّن عِكْرِمَةُ من جمع ألفي مقاتلٍ من قريشٍ ، وأحلافهم ، و سار بهم حَتَّى وصل نجرانَ ، و بها جرير بن عبد الله البجلي ، في بني بجيلةَ ، فدعاه للمشاركة في محاربة الأشْعَث ، لكن جريراً أبى ذلك .

القضاء على تحرك الأشْعَث

استعداداً لقدوم عِكْرِمَةَ ، الَّذِي يحمل إمدادات إلى قواتِ المسلمين المُحاصَرة ، قام الأشْعَث بإصلاح حصن النَّجَيْر ، ثم جمع فيه نساء و أولاد قومه . و لما علم زياد بن لَبِيد بأنباء الدعم إليه شرع بالقتال مجدداً ، لكنه أخفق في هزيمة قوات الأشْعَث . ثم بعث عِكْرِمَةُ إلى زيادٍ يحدد له موعدَ قدومه ، و في اليوم المحدد خرج زياد لمحاربة الأشْعَث ، و بينما كانت رحى المَعْرَكَة تدور ، وصلت قوات عِكْرِمَةَ ، و هي في حالةٍ جيدةٍ ، على خلاف قوات الأشْعَث المنهكة ؛ و مع ذلك

---

[١٥٩] كتابُ الرَّدة ، ٢٨٦ ـ ٢٩٠ ، ٢٩٢ .
[١٦٠] كتابُ الرَّدة ، ٢٩٦ .

أبلت قوات الأشْعَث بلاءً حسناً ، و استمرّ القتال حَتَّى المساءِ ، و في النّهاية انهزمت قوات الأشْعَث ، فلاذت بالحصن الَّذِي تم إصلاحه .[١٦١]

اشتد الحصار على مَنْ في الحصن ، فتشاور الأشْعَث مع قومه ، و كان رأيهم الصمود حَتَّى الموت الكريم ، و في إيماءة ذات دلالة رمزية ، جزّ الأشْعَث ناصيته ،[١٦٢] وربطها على رأس رمحه ، و فعل القوم مثله ، و تبايعوا على الموت ، فلما كان الصباح ،ُفتح باب الحصن ، فخرج الأشْعَث في أوائل القوم ؛[١٦٣] فاقتتلوا على باب الحصن قتالاً دامياً ، ثم تراجعت قوات الأشْعَث إلى الحصنِ ، فحُوصرت مجدداً .

تحركت القبائل الَّتِي كانت قد تفرقت عن الأشْعَث بعد حادثة مقتل رسول أَبِي بَكْر ، فاتجهت لمحاربة قوات المسلمين ؛ و من أجل التصدي لها توجه عِكْرِمَةُ لملاقاتها و لا تحدد المصادر إنْ كان يقود القوات الَّتِي أتى بها أو بعضاً منها ، كما لا تحدد حجم القوات الحضرميّة الزاحفة لإنقاذ الأشعثِ ، أمّا زياد فإنّه بقي قائداً للقوات الضاربة الحصار على الحصن ، و قد طلب من عِكْرِمَةَ أنْ يبيد المقاتلين عن بكرة أبيهم في حال أتاحت الظروف القيام بذلك .[١٦٤]

اقتتلت قوات عِكْرِمَةَ مع القوات الزاحفة لمعونة الأشْعَث على مدار يومَيْن . في حين كان الأشْعَث لا يعلم بما يجري ، و لهذا فإنّه طلب من زيادٍ الأمان ، و لأهل بيته ، و لعشرة من وجوه أصحابه ،[١٦٥] و كان المقاتلون المُحاصَرون في الحصن يعتقدون أنّ الأشْعَثَ يفاوض على الأمان لهم أيضاً .

علم عِكْرِمَةُ بالاتصالات الجارية ، و بماهيّة الاتفاق بين زياد و الأشْعَث ، فأخبر الكنديين بذلك ؛ فغادروا ساحة المَعْرَكَةِ بعد فقدان مبرّرِ قتالهم ؛ كان الاستياء واضحاً عليهم ، و عبروا عن ذلك بسبّ الأشْعَث و لعنه . و رجع عِكْرِمَةُ مسرعاً خوفاً من أنْ تستأثر قوات زيادٍ بالغنائمِ في حال دخولها الحصن و هم غائبون ،

---

[١٦١] كتابُ الرَّدة ـ ٢٩٩ ـ ٣٠٠ ، ٣٠٢ ـ ٣٠٤ .
[١٦٢] النّاصِيَة : مقدم شعر الرأس .
[١٦٣] كتابُ الرَّدة ، ٣٠٤ ـ ٣٠٥ .
[١٦٤] كتابُ الرَّدة ، ٣٠٧ .
[١٦٥] يقول ابن خلدون في تاريخه (م ٢ ، ج ٢ / ٦٩) إنّ الأشْعَث طلب الأمان من عكرمة ، و هذا تفصيل غير مقبول لأنه لا ينسجم مع الرِّوايَة العامة ، و يختلف البلاذري بقوله إن الأمان طُلب لسبعين فرداً (فُتُوح البُلدَان ، ١١٢) .

فرجع و الأشْعَث يجري الترتيبات النهائية ، و لم يكن قد نزل من الحصنِ بعد ؛ و عندما أبصر زيادٌ عِكْرِمَةَ ، اتهمه غاضباً بالجبن و الطمع في الغنيمة .

غضب عِكْرِمَةُ أشد الغضب ، و اتهم زياداً بالتسبب بهذه الحَرْب بسبب من سوء تصرفه بقضية الناقة ، و أضاف بأنّه لولا مجيئه لكان تعرّض لسيوف الكنديّين ، و لوقع في الأسر ، و عزم على الرحيل في جنوده ، فأعتذر إليه زيادٌ عمّا سلف من كلامه ، و سوّى الإشكال معه .[١٦٦]

يكشف ما جرى بين زيادٍ و عِكْرِمَةَ ماهيّة العلاقة بين الجيوش الإسْلاميّة آنذاك ، إذ إنّ علاقتها ببعضها كانت علاقة جيوش و قوات مستقلّة ، و خضوعها لسُلْطان المدينة لم يكن خضوعاً لإدارة مركزيّة تشرف على إدارة مباشرة للعمليات العسكريّة ، بل كان ثمة فسحةٌ في قرار القائد الميداني ، و علينا أن ننظر إلى جيوش ذاك الزّمانِ الإسْلاميّة لا من خلال مَوْشُوْرِ رؤيتنا المعاصرة و مفاهيمنا عن الجيوش ، و قيادات أركانها .

إذاً ، قبل عِكْرِمَةُ من زياد اعتذاره ، و عقب ذلك سلّم الأشْعَث نفسه لزيادٍ ، فهمّ زيادٌ بقتله لأنّ اسمه لم يكن مثبتاً في لائحة الممنُوحين الأمان ؛ فتساءل الأشْعَث هل يضطر طالب الأمان لغيره أنْ يسجّل اسمه في اللائحة ، ثُمّ خوّفه ردّة فعل قبائل كندة .[١٦٧] و بعد ذلك دخل المسلمون الحصن ، و شرعوا يأخذون المقاتلين ، و يضربون رقابهم صبراً ،[١٦٨] فسألوا مستغربين عن سبب ذلك ؛ لاعتقادهم أنّ الأمان يشملهم ، فجاءهم الجواب بأنّ الأمان لا يشمل إلا مجموعة صغيرة من أقارب الأشْعَث ، عندها أدركوا خيانة الأشْعَث لهم .[١٦٩] و لن تكون الحالة الوحيدة في التاريخ الإسْلاميّ ، و غير الإسْلاميّ الَّذِي يقوم القائد بخيانة شعبه بعد أن يورطهم بحروب دامية .

بلغ عدد القتلى سبعمئة ،[١٧٠] و زاد زيادٌ في تنكيله في الأحياء عندما منع جثث القتلى من أنْ تُوارى ، و تركها للحيوانات المفترسة ؛ كان لهذا التصرف وقعٌ شديدٌ

---

[١٦٦] كتابُ الرَّدة ، ٣٠٨ ـ ٣٠٩ ، ٣١١ ـ ٣١٣ .
[١٦٧] كتابُ الرَّدة ، ٣١٣ ـ ٣١٤ .
[١٦٨] قُتل صبراً : شدّ يداه و رجلاه ، أو أمسك به أحد حَتَّى يُقتل
[١٦٩] كتابُ الرَّدة ، ٣١٥ .
[١٧٠] الرقم المميز .

على الناجين من المجزرة ، و بلغ السبي ألف امرأة .[١٧١] أمّا الأشْعَث فإنه رُحّل أسيراً إلى أَبِي بَكْر ، فطالب عُمَرُ بقتله ، لكنّ الأشْعَث برّر ثورته بأنّ زياداً جار على قومه ، فقتل منهم من لا ذنب له ، فأنف من فعلته ، و انتصر لقومه ؛ و طلب من أَبِي بَكْر تزويجه أمّ فَرْوة بنت أبي قحافة ـ أخت الخَلِيْفَة نفسه ـ ، و أكد له بأن هذا سيساعد على ضمان ولاء قبائل المنطقة للحركة الإسْلاميّة ، و تقول الرِّوايَات بأنّ الأشْعَث كان قد خطبها لمّا قدم على مُحَمَّدٍ ، و أخّر الزواج إلى أن يقدم ثانيةً ، و لما مات مُحَمَّدٌ تأخر هذا الزواج ، و لهذا حسب هذه الرِّوايَة فإنّه طلب من أَبِي بَكْر ردّ زوجه .[١٧٢] من الواضح أنّ هذه الرِّوايَة إضافة لاحقة لتبرير عفو أَبِي بَكْر ، لأنّ المؤرخين لم يفهموا استراتيجية أَبِي بَكْر القائمة على الاستمالة وقت الإمكان ، و العنف عندما يتعذر الأمر .

وافق أَبُو بَكْر على اقتراحه ، فأطلق سراحه ، و سراح من معه من زعماء كندة ، و زوّجه أخته ؛[١٧٣] فذهب الأشْعَث إلى سوق الإبل ، و شرع بعَرْقَبة الجمال و النوق ،[١٧٤] فقال الناس : ((كفر الأشْعَثُ)) ، فلما انتهى من ذلك طرح سيفه ، و قال : ((إنّي و اللّه ما كفرت ، و لكن زوّجني هذا الرجل أخته ؛ و لو كان ببلادنا لكانت لنا وليمة غير هذه . يا أهل المدينة انحروا ، و كلوا)) ، ثُمّ طلب من أصحاب الإبل القدوم لأخذ أثمانها .[١٧٥] لكنّ الوليمة الحافلة بالقتل كان قد قدّمها لزياد ، عندما فتح له الحصن ، و خدع مقاتليه ، و قدّمهم على طبقٍ من ذهبٍ للقتل و قبض هو ثمنهم زواجاً و رخاءً ؛ أمّا أَبُو بَكْر فسيندم في سويعات احتضاره على عفوه عن الأشْعَث ،[١٧٦] و لعلّه تساءل و ملاك الموت يقترب منه كيف له أن يزوّج أخته لِمَنْ خان شعبه .

---

[١٧١] معجم البلدان ، **النَّجَيْرُ** ؛ رضا ، ١١٣ ؛ تاريخ ابن خلدون ، م ٢ ، ج ٢ / ٦٩ .
[١٧٢] الكامل : ٢ / ٣٨٣ .
[١٧٣] كتابُ الرَّدة ، ٣١٩ ؛ فُتُوح البُلدَان ، ١١٠ .
[١٧٤] **عَرْقَب الدابة** : قطع عُرقوبها .
[١٧٥] أُسد الغابة : ١ / ١٣٧ ـ ١٣٨ ؛ رضا ، ١١٣ ـ ١١٤ .
[١٧٦] الإمامة السياسة ، ١ / ١٩ ، فُتُوح البُلدَان ، ١١٢ ؛ مُروُج الذّهَبِ : ٢ / ٣٠٣ .

الصدام مع أهل دَبا

بقي أنْ نذكر مَعْرَكَةً جرت مع أهل دَبا ، و يرويها الواقدي في سياق حديثه عن المَعْرَكَةِ مع الأشْعَث ، و سنرويها بلسانه ، و نعرض رَأْينا .

بعد أنْ غادر عِكْرِمَةُ ـ الزاحف لإنقاذ ابن لَبِيد ـ نجرانَ بلغ صنعاء ، و هناك تمكّن من جمع بعض المقاتلين ، ثم سار إلى مأرِب ، و في غضون ذلك بلغ أهل دَبا أنباءُ زحف عِكْرِمَةَ لمحاربة الكنديّين ، فأغضبهم هذا التحرك ؛ لأنّ قبائل كندةَ تمتّ إليهم بصلة نسب العمومة ؛ و لهذا قرروا طرد حذيفة بن عمرو ـ عامل أَبِي بَكْر ـ من بلدهم ، الَّذِي ألتحق بعِكْرِمَةَ .[١٧٧] فلما وصل خبرُ طردِ حذيفةَ أَبَا بَكْر طلب من عِكْرِمَةَ معاقبة المتمردين دون رحمة ، و إرسالهم إليه أسرىً ، على أنْ يتابع مسيره بعد ذلك لنجدة قوات زياد المُحاصَرة .

هنا نجد خللاً زمنيّاً في أحداث الرِّوايَة ؛ و لهذا فهي تحتاج إلى تصحيح ؛ فأولاً ، لم يكن أَبُو بَكْر ليطلب من عِكْرِمَةَ ترك قوات إسْلاميّة مُحاصَرة ، و يتهددها الموت جوعاً ، وعطشاً من أجل معاقبة قوم طَردوا عاملاً له ؛ ثانياً ، إنّ المسافة بين مأرِب و المدينة و الَّتِي تبلغ تقريباً ١٠٠٠ كم لا تسمح لعِكْرِمَةَ بانتظار قرار أَبِي بَكْر ، و كذلك المسافة بين مأرِب و دَبا شاسعة ، و الَّتِي تزيد على ١٥٠٠ كم ، حيث تقع الأولى في أرض اليمن ، و الثانية في أرض عُمان ، فكيف لأَبِي بَكْر أنْ يعلم بوقت مناسب ، و أنْ يقرر إرسال قوات نحو السّاحة الأبعد ، في حين أنّ ثمّة ساحةً أقربُ جغرافياً ، و في حاجة لإمدادات عاجلة من المدينة خوفاً من إبادة جيش إسْلامي . و رَأْينا أنّ أَبَا بَكْر لم يعلم بما جرى لعامل الحركة الإسْلاميّة في دَبا إلاّ بعد أنْ نفذّ عِكْرِمَةُ مهمته و فكّ الحصار ، فطلب منه أَبُو بَكْر التوجه إلى دَبا ، و على هذا الأساس نضع تاريخ المَعْرَكَة عقب استسلام الأشْعَث و اقتحام حصن النَّجَيْر .

بعد النَّجَيْر ـ حسب بنائنا للرّواية ـ ، توجه عِكْرِمَةُ إلى دَبا ، و هناك تصادم مع أهلها ، فانتصرت فيها قواته ، فأضطر المنهَزِمون إلى التحصّن في مدينتهم ، ثُمّ إنّ عِكْرِمَةَ فرض عليهم حصاراً ؛ و عند ذاك طلبوا من عاملهم السابق ـ حذيفة بن عمرو ـ **الصّلح مقابل دفع الزَّكاة** ، فبعث إليهم : « لا صلح بيننا و بينكم

---

[١٧٧] كتابُ الرَّدة ، ٢٩٦ ـ ٢٩٧ .

إلاّ على الإقرار منكم أنّا على الحق ، و أنتم على الباطل ، و أنّ قتيلنا في الجنّة و قتيلكم في النّارِ ، و على أنْ نحكم فيكم بما رأينا)) .[١٧٨]

نلاحظ أنَّ عرضهم للصلح ترافق مع استعدادهم لدفع الزَّكاة ، مما يعني أنّهم لم يدفعوها حَتَّى ذلك الحين ، و يكشف أنّ العامل الأساسيّ لطردهم حذيفة بن عمرو هو رفضهم دفع الزَّكاة ـ الضريبة ـ و أما مسألة تضامنهم مع قبائل كندة فهي مسألة أوحت بها لحظة تحركهم ، و لعلّهم رأوا أنّ الكنديّين كانوا هم الغالبين على قوات المسلمين ، و قرروا استغلال الفرصة للانعتاق من شبح سُلْطة المدينة المتمثل بعاملها ، و التخلّص كلياً من دفع الزَّكاة ، فطردوا العامل ، و خصوصاً أنّ الحركة الإسْلاميّة حققت نفوذها في عُمان نتيجة لصراعات محليّة فيها ، و بمساعدة قبائل من خارج المنطقة ، و ليس طوعاً من قبل أهاليها ، و لما رأى أهل دَبا أنّ كفة الميزان تميل لصالح جيرانهم الحضارمة اعتقدوا بأنّ يثربَ في حالة ضعف ، و أنّ الوقت آن للانتفاض عليهم .

وافق القوم على مبدإ أنّهم على باطل ، فخرجوا من المدينة بدون سلاحٍ حسب طلب حذيفة أيضاً ، فدخل المسلمون إلى حصنهم ، فقتلوا أشرافهم ، و سبوا نساءَهم و أولادهم ، و أخذوا أموالهم ، و وُجّه بالأسرى رجالاً ، و نساءً ، و أطفالاً إلى أَبِي بَكْر ، فهمّ أَبُو بَكْر بقتل الرجال ، فتدخل عُمَرُ ، و قال إنّهم على دين الإسْلام ، لكنْ **شحوا على أموالهم** ، و طالب بحبسهم و التريّث بأمرهم . و سيبقي الأسرى في الحبس إلى وفاة أَبِي بَكْر ، حيث سيقوم عُمَرُ بإعطائهم حقَّ الذهاب أينما شاءوا عندما يستلم زمام السُّلْطَة ؛ فرجع بعضهم إلى بلاده ، وتوجه آخرون صوب البصرة بعد عمارتها .[١٧٩]

بانتهاء معارك حَضْرمَوْت ـ دَبا ، و هي امتداد لمعارك اليمن تمكنت الحركة الإسْلاميّة من بسط سيطرتها على كامل الجَزِيْرة العَرَبِيّة تقريباً ، خلا بعض الجيوب في البَحْرَيْن ؛ و بذلك تطوى آخر صفحة من صفحات الرفض ـ الرّدة ـ في كتاب الحركة الإسْلاميّة ؛ ليبدأ فتح صفحات التوسع ـ الفتوحات ـ و الَّتِي قيض لأَبِي بَكْر أنْ يخطّ صفحاتها الأولَى بعدما تمكّن من تسطير الصفحات النّهائيّة لعملية مركزة الجزيرة العَرَبِيّة بيدِ الحركة الإسْلاميّ .

---

[١٧٨] كتابُ الرَّدة ، ٢٩٨ ـ ٢٩٩ .
[١٧٩] كتابُ الرَّدة ، ٢٩٩ .

[Blank Page]

ما بعد السَّيْطَرة على الجَزِيْرَةِ العَرَبِيَّةِ

أ ـ تحشيد القبائل خلف قيادة المدينة

لقد ورث أَبو بَكْر تركةً ثقيلةً من مُحَمَّدٍ ؛ إذ كان منوطاً به إدارة مجتمعٍ تتفاعل فيه أزمة سِيَاسِيّة عميقة ، و الَّتِي كانت امتداداً للحظة الانقسام الداخليّ في المدينة عقب الاسْتِيْلاء على مكّة ، و تمايز مجتمعها بين الأنصار أهل المدنية ، و المهاجرين ؛ فبدأ الأوّلون يفقدون تأثيرهم على الحركة الإسْلاميّة ، و صاروا يشعرون أنّهم يفقدون سلطتهم على مدينتهم نفسها، الَّتِي أصبحت معقل هذه الحركة ، بعدما بدا واضحاً أنّ زمامَ الأمورِ انتقلت عمليّاً إلى المهاجرين بعد الاسْتِيْلاء على مكّة ، و من ثم توسّع نفوذِ الحركة الإسْلاميّة ، و انضمام النخبة القرشيّة لِمُحَمَّدٍ ، لكنْ كنخبةٍ ، لا كأتباع عاديّين .

ما جعل الوَضْع يميل للاستقرار في حياة مُحَمّدٍ هو استراتيجيّته الناجحة عبر توجيه المقاتلين نحو تخوم الشّام ، و السّيطرة القويّة الَّتِي كان يتمتع بها ، لأنّه حاملُ رسالةِ السماءِ ، و يتلقى دعمها ؛ و مجريات الأحداث نفسها خدمت استقرار مثابته ـ يثربَ ـ عندما شرعت وفود القبائل العَرَبيّة بالقدوم إليه مقرةً بنفوذه مقابل ألاّ يعرضهم لضربات جنوده ؛ و هذه الوَضْعية ، و إذ سمحت له بتجاوز الأزمة السِيَاسِيّة في المدينة ، الَّتِي كانت قد دفعته للقيام بحملة تَبُوْك ، إلاّ أنّها خلقت صعوبة أخرى لِمُحَمَّدٍ ، و هي كيف له أنْ يدعم كيانه السِيَاسِيّ الناشئ اقتصاديّاً ، و قد أدرك مُحَمَّدٌ خطورة المشكل الاقتصاديّ في سنتيْه الأخيرتيْن ، و ذلك بعدما أعلنت قبائل بَدَوِيّة الولاء له ، و دخلت في **السّلم الإسْلاميّ** على حد تعبير وات ، وامتنعت عن القتال فيما بينها ، فلم يعد ممكناً لهذه القبائل التعويض عن عجزها الماديّ بالإغارة على جارتها ، و إذا كان يجب استمرار السّلم الإسْلاميّ ، فلا بدّ من المحافظة على مستوى المعيشة ، و لهذا مسّت الحاجة لمصدرٍ جديدٍ للرزقِ . و ربّما

رأى مُحَمَّدٌ لبعض الوقت الحلّ في تنمية التّجارة ، فنشأت تجارة بين المدينة و سوريا ، غير أنّ المصادر لا تتحدث عنها إلاّ نادراً مما يدلّ على أنّها لم تكن لها أية أهميّةٍ .[١] و رحل مُحَمَّدٌ، و لم يكن قد وجد حلاً شافيّاً لهذه المسألة المعضلة ؛ و على أساس هذا المعطى نحن ننظر إلى التحرك الرافض لسلطة الإِسْلام بعد وفاته كنتيجة إلى أنّ السّلم الإِسْلاميّ الَّذِي بناه ، و الَّذِي كان يشترط كبح هجمات القبائل على بعضها ، قد ألحق ضرراً أيضاً بالمصدر الماليّ للقبائل البَدَوِيّة ، و الَّتِي كانت الغارة أساس حياتها الاقتصاديّة ، و لم يكن مُحَمَّدٌ قد سلك درب الفتوحات بعد ، مما يسمح للقبائل المنضوية تحت لواء السّلم الإِسْلاميّ بالائتلاف فيما بينها ، و التعاضد . و إذا كان سبب ولائها الرئيس لِمُحَمَّدٍ يعود إلى رغبتها في المحافظة على كياناتها القَبَلِيّة ، فإنّ هذه العلاقة أدت إلى إغلاق المصدر الماليّ لحياة القبيلة و قضي عليه بالدّمار ، مما عنى أنّ انسحابها من علاقتها بمُحَمَّدٍ ـ السلم الإِسْلاميّ ـ صار أمراً لا مفرَّ منه بعدما بدا أنّ الأيام ستقلب لها ظهر المِجَنِّ فاقةً و جوعاً ؛ و أخذاً بهذه العوامل فإنّنا نعتقد أنّ مُحَمَّداً كان سيخوض بدوره **حروب الردة** لو بقي على قيد الحياة ؛ لأنّ الظروف الداخليّة في الجزيرة العربيّة لم تكن تسمح له بعد بتوجيه جيوشه بشكلٍ منهجيٍّ نحو الفتوحات . و فقط في المرحلة الثّانية لعهد أَبِي بَكْر ـ بعد السيطرة على حَضَرْمَوْتَ ـ تهيأت الظروف الداخليّة في الجَزِيْرة العَرَبِيّة لهذا الطور الَّذِي لم يعد بمستطاع أحد تجاهله و إلاّ غامر بتقويض الدّوْلَة الإِسْلاميّة وهي في المهدِ .

على الرَّغْمِ مِنْ أنّ مُحَمَّداً لم يخطُ نحو الفتح ، إلاّ أنّه كان يستشعر ضرورة اتباع سياسة التوسع ، و لهذا أسَّس لها عقائديّاً قبل وفاته ، كما يدل عليه تزايد الطابع العسكريّ للحركة الإِسْلاميّة منذ عقد صلح الحُدَيبِيَة ، و انعكاسه في فكر مُحَمَّدٍ ، الَّذِي أصبح قائداً عسكريّاً ، و نبيّاً مؤيداً من اللَّهِ ، كختام نهائيّ للمعركة الَّتِي بدأها منذ الهجرة . و بعد رحيله كان مطلوباً من خليفته المحافظة على الإنجازات الَّتِي تحققت ، و مواجهة ثلاث حركات ، كل منها بزعامة كاهنٍ ـ زعيم قَبَلِيٍّ : حركة مُسَيْلِمة في الْيَمَامَةِ ، و حركة الأسود العَنْسيّ في اليمنِ ، و حركة طُلَيْحَة في بنَي أسدٍ . كان يتأتى على الخليفة متابعة خطِّ مُحَمَّدٍ ، و أنْ يحملَ سمات نَبَوِيّة في نفس الآن ؛ بشرط أنْ يصبح هذا الخليفة نبيّاً مقاتلاً محضاً ؛ إذ كان يجب في هذا الطور

---

[١] وات ، ٢١٨ ـ ٢١٩ .

على السّماء أنْ تدعم ، و تبارك معارك قوات المسلمين بعد انتهاء عصر الوحي . و المتتبع لسيرة مُحَمَّدٍ يجد أنّ هذا الطور كان ينضج تدريجيّاً في حياته كما تعكسه بجلاء آيات سورة التوبة ، و الَّتِي تنمّ عن إدراك واضح يرى أنّ القوي ليس قويّاً بما فيه الكفاية ، حَتَّى يُحَوّل قُوَّتَه إلى حَقٍّ و طاعتَه إلى واجبٍ .[٢]

إنّ الحركات الَّتِي سمّتها التواريخ الإسْلاميّة **ردةً** لم تكن بأيّ معنىً من المعاني تندرج ضمن هذا الوصف ، فحركة مُسَيْلِمةَ ، و طُلَيْحَةَ ، و العَنْسيِّ كلها كانت في حياة مُحَمّدٍ نفسه ، و لم يكن أصحابها أو أتباعهم قد أقروا بالإسْلام قط ، و نحن لا نستطيع تقدير مصير الحركة الإسْلاميّة لو أنّ محمّداً بقي على قيد الحياة ، لا شك إنّ مسار الأحداث كان سيفرض على حركة الإسْلام التصادم مع هذه الحركات ، بحكم أنّ يثربَ كانت في طور نشوء دولة ، و من أعراض نشوء الدول التوسّع ، لكنّنا نعرف بأنّه لم يكن ثمة أيُّ تحركٍ مضادٍ إلا باتجاه حركة العَنْسيّ ، مع ذلك لم يرقَ هذا التحرك نحو إرسال جيشٍ إسْلاميٍّ . و ربما لو بقي مُحَمَّدٌ حيّاً لما دخل مجتمع المدينة الأزمة الداخليّة الحادة .

إنّ حدة الأزمة ، و عمقها ، و الَّتِي تمخضت عن اجتماع السَّقِيْفَة دفعت قادة الإسْلام للتّحرّك بسرعة ، إذ كان يمكن في حال وجود أزمة داخليّة أقلّ تعقيداً أنْ يكون التّحرك أبطأ . إنّ تحرك المدينة المسلّح ، و السريع كان يهدف للاستجابة للتداعيات الَّتِي أدت إليها وفاة مُؤَسِّس الإسْلام ، أيْ إنّ الوفاة حرّضت استجابة المدينة المسلحة ، و السريعة ؛ و لهذا كان مدى اهتمام قيادة المدينة بالتوسّع باتجاه المناطق المجاورة يتناسب مع عمق التوتر الداخليّ الَّذِي نشأ بعد وفاة مُحَمَّدٍ ، و الَّذِي تجلى بصورٍ شتى بدءاً من الخلاف حول مكان دفن جثمان مُحَمَّدٍ حَتَّى مسألة تعيين الخليفة ، لا سيّما أنّ الاجتماع أسفر عن تعيين قرشيٍّ في موقع القرار. فكان من الضروري البحث عن الوسائل الكفيلة برصّ الجبهة الداخليّة ، و توفير مصادر ماليّة للمدينة و مكّة ، اللتيْن تضررتا في حربهما الطويلة ذات الأعوام التسعة ؛ فدخلت قيادة المدينة ـ مكّة في صراعها الأوّل لتحصيل الضريبة الضروريّة لها ـ الزّكاة ـ، و إذ تمكّنت من السيطرة على بني أسدٍ ، و غطفانَ ، و هزيمة طُلَيْحَةَ ، فإنّها وجدت نفسها مدفوعة بحركة داخليّة ـ ذاتيّة للاستمرار في

---

[٢] العَقْدُ الاجتماعيّ ، ص ٣٣ .

عمليّة إخضاع بقيّة الجزيرة العَرَبيّة من أجل تسكين القبائل المهزومة ، و لتقديم التعويض لها على الإتاوَة ـ كما سمّاها زعماء القبائل ـ الَّتِي يتوجب دفعها للمركز الإسْلاميّ .

كلّما حققت دولة المدينة نصراً على قبيلةٍ ، كلّما وجدت صعوبة في الاكتفاء بما تحقّق، و لم تستطع وقف آليات التوسّع . و بعد أنْ خضعت الجزيرة العَرَبيّة كلها لسُلْطة المدينة و إنْ كان بشكلٍ نسبيٍّ ، اكتشفت القيادة الإسْلاميّة صعوبة خلق لحمة داخليّة في الجَزِيْرة العَرَبِيّة تحت راية الإسْلام دون توفير الأسس الضروريّة لبقاء الوحدة السِيَاسِيّة ، أي الرّابطة الاقتصَاديّة ؛ إذ لم يكن مقبولاً بالنسبة للقبائل الاستمرار بدفع الزّكاة إلى المدينة و دون أنْ تكسب شيئاً من هذه العلاقة ، و دون أنْ تتلقى تعويضاً عنها ، و لم تكن المدينةُ قادرةً على أخذ الزكاة بشكلٍ دائم دون أنْ تجازف بخطر تفجّر صراعٍ مسلّح غيرِ قابلٍ لِلسيطرة مع تلك القبائل ؛ إذ لم يكن شكلَ الإنتاج في الجَزِيْرة العَرَبِيّة يسمح لنخبة الحركة الإسْلاميّة بالحصول على مداخيل بصفة ضرائب تُفرض على السكان ، أو بواسطة استغلالٍ اقتصاديٍّ متطورٍ ، وغيرها من وسائل نهب السكان ؛ و لهذا كانت سياسة الفتح (التوسّع) هي الوسيلة الوحيدة من أجل الحفاظ على مداخيل زعماء المدينة و مكّة من جهة ، و توفير مداخيل لزعماء قبائل الجَزِيْرة العَرَبِيّة ، الَّتِي خضعت كرهاً أو طوعاً لحركة الإسْلام . و منذ الآن سيتعيّن على الدّوْلَة الإسْلاميّة أن تتوسّع باستمرار كي تتمكن نخبها من الحصول على المداخيل ؛ و قد اشترط ذلك المحافظة على وحدة الدّوْلَة الإسْلاميّة . لكنْ عندما توقفت الفتوحات لاحقاً نتيجةً لعواملَ عديدةٍ ، انتفت دوافع وحدة الدّوْلَة الإسْلاميّة لأنّ النخب الحاكمة لم تعد بحاجة لهذه الدّوْلَة الواحدة من جهة ؛ و لأنّ الشروط الموضوعيّة قد تبدلت . و هذا هو العامل الَّذِي مهّد لقيام الدّوْلَة الإسْلاميّة و الَّذِي سيلعب فيما بعد دوراً رئيساً في تفكيكها . فمنذ البدء حملت الدّوْلَة الإسْلاميّة في بنيتها سقوطَها الحتمي و تفككَها . و قد بدأت ملامح انهيار دولة الإسْلام بالتّكشّف عبر الصّراع الداخليّ الَّذِي نشأ بعد توقف الفتوحات ، و الَّذِي تمظهر بصراع البادية ـ حاضرة ، أو البَدَوِيّ ضد الحَضَرِيّ .

كما كان ثمة حاجة شديدة لتجاوز معضلة ((لكنّ قريشاً قوماً يعتدون)) ، و الحواجز القَبَليّة، و لإيجاد وسيلة تربط قبائل الجَزِيْرة العَرَبِيّة زمن أبى بكر تحت راية الإسْلام ـ المُوَحِّد الأيديولوجيّ ـ ، و فرض عَصَبِيّة قريشٍ كعَصَبِيّةٍ قائدةٍ

لهذا التحرك ، و لم يكن هناك من أداةٍ أخرى لربط الكيان الناشئ إلاّ الغزو (الفتح) ، إذ كانت الجَزِيْرة العَرَبِيّة تفتقد مقومات الوحدة الداخليّة ، فهي مجزأة قَبَليّاً ، و كياناتها السكانيّة متشظيّة بسبب طبيعتها الاقتصاديّة (المشاعيّة الصحراويّة) لأغلب قبائلها الَّتِي لا تقبل التلاحم مع المجموعات القَبَليّة الأخرى . و قد أثبتت سياسة الغزو لاحقاً أنّها كفيلة بتجاوز التشظيّ القَبَليّ عندما وحّدت مصالح القبائل العَرَبيّة ، و جعلت عمليّة قيام مجتمعٍ مُوَحَّدٍ أمراً ممكناً و إنْ كان على نحوٍ نسبيٍّ ؛ فتشكّلت اللحمة الاجتماعيّة الضروريّة للمجتمع الإسْلاميّ . و يبدو أنّ التوجه نحو إسبانيا فيما بعد كان مدفوعاً بعامل مشابه ، إذ وجد الفاتحون العرب المسلمون أنّ من الأفضل لهم استيعاب القبائل البربريّة بهذه السِيَاسِيّة الناجعة ، و خصوصاً أنّ البربر قاوموا ببسالة الجيوش الإسْلاميّة ؛ و ذلك لعدم تقبّل التكوينات الاجتماعيّة البربريّة للسُلْطَة ، مثلها مثل القبائل البَدَويّة في الجَزِيْرة العَرَبِيّة ذات النزعة اللّقاحيّة (نزعة رفض الخضوع للسُلْطَة) ، و هذا خلافاً لما جرى في العراق و الشّام ، اللذين لم تلقَ فيهما جيوش العرب المسلمين مقاومةً من قِبل الأهالي ، كونهم كانوا خاضعين لدولتيْن استبداديتيْن (فارس و بيزنطة) .

كانت المهمات الَّتِي تصدى لها أَبُو بَكْر في البداية تتعلق بالشأن الداخليّ ، و نتيجة لهذا التحرك ـ حروب الردة ـ حدثت مركزة الجَزِيْرة العَرَبِيّة ، و هي لم تكن هدفاً واضحَ المعالم في رءوس قادة الإسْلام ، بل نتجت عفوياً . كما أنّ الدّوْلَة الإسْلاميّة تشكّلت بدورها عبر ممكنات المسارات التَّارِيْخيّة للحركة الإسْلاميّة ، لا عبر المخطط الواعي للقيادة الإسْلاميّة ، سواءٌ كان ذلك في عهد مُحَمّدٍ أو خلفائه من بعده ؛ إذ كانت أهداف الحركة تتمثل للقيادة الإسْلاميّة نتيجةً لما تمليه الظروف الموضوعيّة ، و كانت الحصيلة شيئاً من الواضح أنّ قيادة الحركة الإسْلاميّة لم تكن تتوقعه .

لقد استغلّ أَبُو بَكْر التناقضات الحادة في كلِّ تكوين قَبَليّ في الجَزِيْرة العَرَبِيّة ، فتمكّن من بسط سيطرته عليها بشكل شبه محكم ؛ لكنّ كانت هذه المجتمعات القَبَليّة غير مستقرة ؛ و عندما سعت بعض الأطراف للتحالف مع المدينة كانت تهدف لتحقيق انتصارات على منافسيها القَبَليّين ، و بعد أنْ تمكّنت الأجنحة المتحالفة مع الحركة الإسْلاميّة من إقصاء خصومها كانت الخطوة التّالية بالنسبة إليها و دون شك هي التخلّص من شبح هيمنة المدينة للحفاظ على استقلال مجتمعاتها ، و كان

هذا هو التناقض الخطير الَّذِي توجب على أَبي بَكْر معالجته بسرعة . كما أنّ الإشكال الَّذِي واجه أَبَا بَكْر بعد نجاح عملية السيطرة على الجَزِيْرة العَرَبِيّة ، تركّز في أنّ سيرورة بناء الدّوْلَةِ الجديدةِ تشترط أنْ تكون قوةً توسعيّةً ، و تنبني السِيَاسِيّة التوسعيّة على الفعاليّة العسكرية ، و هذا صحيح ليس فيما يتعلق بالدّوْلَة الإِسْلاميّة و حسب ، بل بنشوء كافة الدول ، حَتَّى العصر الحديث ، فلم يقدم لنا التّارِيْخ مثالاً واحداً نشأت فيه دولة دون أن تمارس سِيَاسِيّة توسعيّة في مرحلة نشوئها المبكرة . و أَبُو بَكْر الَّذِي كان يلتقط بحس عالٍ متطلبات اللَّحظة التَّارِيْخية عمل على تطويع الممكنات المتاحة بما يخدم هدف التوسع كشرطٍ لا بدّ منه لقيام دولة الإِسْلامِ ؛ و لهذا لا يمكننا وضع خط حديّ بين **حروب الرّدة** ، و **حروب الفتح** . إنّ التمييز المفهوميّ غيرُ ممكنٍ هنا ، إذ إن هذيْن الطوريْن متداخلان في الحركة التَّارِيْخية الفعليّة، و هما متكاملان لأنّ الحركة التَّارِيْخيّة متكاملة ، و هذا الفصل مضلل ؛ لأنّه يعتمد على المعتقد الدينيّ ، و أساسه المنهجي خاطئ ؛ و لهذا فنحن نجد أنّ **حروبَ الفتح** في منطق حركة التَّارِيْخ **امتدادٌ لحروب الرّدة** ، فكانت هذه الحروب بجملتها تجليّات نشأة الدّوْلَة الإِسْلاميّة .

ب ـ كبح النزعة العَصَبِيّة

كانت العَصَبِيَّة إحدى أخطر العوامل في تغذيّة الصّرّاعات الَّتِي خاضتها حركة الإِسْلامِ. ففي شروط مجتمعات الجَزِيْرة العَرَبِيّة كانت الجماعة تحالفاً طبيعيّاً ؛ حيث كانت تتشكّل من أفرادٍ تربطهم صلة القُرْبَى (الجد المشترك) ، و قد تأسَّست هذه العلاقة القَرابيّة على واقع أنّ الجَزِيْرة العَرَبِيّة الواسعة الأرجاء كانت خاليّةً من الشروط الطبيعيّة من أجل تشكّل الدّوْلَة ، و بالأخص طبيعتها الصحراويّة ، فأصبحت العَصَبِيّة القَبَليّة شكلاً وحيداً لحماية الفرد بحكم غياب أيِّ حامٍ خارج الجماعة ؛ و بهذا تكون العَصَبِيّة القَبَليّة شكلاً سِيَاسِيّاً ناتجاً عن ظروف الجَزِيْرة العَرَبِيّةِ الاقتصاديّة . و نحن نتبنى الرؤية الخَلْدُونيّة لِلعَصَبِيّة ، الَّتِي تنظر إليها من حيث الدور الَّذِي تقوم به في الدفاع عن الجماعة ، و تلبية الحاجة إلى

الحِمايَة ، و المدافعة ، و المطالبة ، و كلِّ أمرٍ يُجتمع عليه ؛[٣] أيْ باعتبارها تقوم في البادِيَة بنفس الدور الَّذِي تقوم به الحامية ، و الأسوار في المدن ، و هي ـ العَصَبِيّة ـ رابطةُ دفاعٍ ، أو قوةُ مواجهةٍ ؛[٤] و لهذا فإنّ الرابطَ العَصَبِيّ يقوى في مناطق القفار ، و لدى القبائل العَرَبيّةَ الَّتِي هي أقرب للبدواة ، البعيدة عن المجتمعات الزّراعيّة مثلما في مُضَرَ من قُريشٍ ، و كنانةَ، و ثقيفٍ ، و بني أسدٍ ، و هُذَيْلٍ ، بينما تغيب العَصَبِيّة في المجتمعات ذات الظروف الملائمة للزراعة ، مثل : حِمْيَرَ ، و كهلانَ ، لخم ، و جُذَامَ ، و غسّانَ ، و طيِّىءٍ ، و قُضاعةَ وإيَادَ.[٥] ففي تلك المجتمعات البَدَوِيّة أو شبه البَدَوِيّة ؛ فإنّ العَصَبِيّة هي الضمانة الوحيدة لاستمرار الحياة القَبَلِيّة ، كما أنّها الضمانة السيا ـ اقتصاديّة للفرد في القبيلة ، فبدون توفّر الحِمايَة للفرد فإنّ حياته تصبح مستحيلةً .

العَصَبِيّة ليست شكلاً مُحَدِداً للوجود الاجتماعيّ ، بل هي شكلٌ عاكسٌ لطبيعة هذا الوجود ، لكن في أحيان كثيرة تبدو النتيجة سبباً ، و يعود هذا إلى أنّ النتيجة ـ العَصَبِيّة هنا ـ تمارس دوراً فاعلاً على الظروف الَّتِي أنشأتها في إطار عملية التفاعل بين السّبب والنتيجة، و هذا ما شَوّش على طه حسين ، فقال : ((نفست قحطانُ على عدنانَ أنْ يكون لها نبيٌّ من دونها ، فظهر فيها الأسود العَنْسيّ ، و نفست ربيعة العدنانيّة على مضرَ أنْ تستأثر من دونها بالنّبُوّة ، و نفست أسدٌ و تميمٌ المضريتان أنْ تستأثر قُرَيشٌ بالنّبوّة من دون سائر مضرَ ، فظهر طُلَيْحَة في بني أسدٍ ، و ظهرت سَجاح في بني تميم)) ؛[٦] هنا ينظر طه حسين للحركات المناوئة للإِسْلام في إطار التنافس العَصَبِيّ ، و غاب عنه أنَّ الأساس الَّذِي تقوم عليه الرابطة العَصَبِيّة هو المصلحة المشتركة الَّتِي تشكل فيها أمور المعاش العنصر الرئيس والفعّال ؛ فالصّراع العَصَبِيّ ، ذو طبيعةٍ اقتصاديّةٍ على الرَّغم مما يتقنع به من اعتبارات معنويّة و مظاهر سيكولوجيّة و اجتماعيّة[٧] .

---

[٣] مُقَدّمة ابن خَلْدُون ، تصحيح و فهرسة : أبو عبد اللَّه السّعيد المَندوُه ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، و المكتبة التجارية ، مكّة ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م ، م ١ / ص ١٤٨ .

[٤] فِكْرُ ابن خَلْدُون : العَصَبِيَّة و الدّوْلَة ، د. مُحَمَّد عابد الجابري ، دار الطليعَة ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٨٣ ، ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩ .

[٥] المقدمة : ١ / ١٣٨ .

[٦] الشيخان ، ١٤ .

[٧] فِكْرُ ابن خَلْدُون ، ٢٦٨ .

لم يهدف قادة الإِسْلام في أزمنة حروب الردة و الفتوحات إلى تحطيم العَصَبِيّات القَبَلِيّة، بل سعوا لصهر هذه العَصَبِيّات في إطار بوتقةِ عَصَبِيّةٍ كبرى تتأطّر بأيديولوجيا الإِسْلام ، مقابل أنْ تحافظ كلُّ عَصَبِيّةٍ على وجودها ، و الحركات الَّتِي أوحت بأنّ أنبياءها تحركوا من أجل المنافسة على النّبُوّة في حلبة التنافس العَصَبِيّ ، هي في الحقيقة دفاع التكوينات الاجتماعيّة ـ القَبَلِيّة عن شكلِ وجودها ، و نمط حياتها في وجه حركة نامية تسعى لتذويب العَصَبِيّات في إطار أيديولوجي فوق ـ عَصَبِيّ على المستوى النظراني . و بهذا أخذ الصراع أحياناً هذا الشكل الظاهر ، شكلَ حربٍ بين عَصَبِيّات ، مثلما ما تخبرنا به رواية من أنّ رجلاً انضم إلى مُسَيْلِمة على الرَّغْمِ مِنْ عدم تصديقه نبوّته ، قائلاً له : ((أشهد أنّك كذابٌ و أنّ محمّداً صادقٌ ، و لكنّ كذّابَ ربيعَةَ أحب إلينا من صادقِ مُضَرَ)) ، و في رواية أخرى عند الطبري : ((كذّاب ربيعة أحبّ إليّ من كذّاب مضر)) .[٨] إذ بدا للرّواة كأنّ الصراعَ هو صراعُ عَصَبِيّاتٍ ، و لا شك إنّه بدا كذلك حَتَّى لمقاتلي الأطراف المتصارعة ، فالرجل الَّذِي انضم لمُسَيْلِمة دفاعاً عن عَصَبِيّته الرَبعيَّة ، انضم للدفاع عن شكل حياته ، و نمط وجوده ، والَّذِي ارتبط كلّيّاً بوجود قبيلته .

بغض النظر عن طبيعة العَصَبِيّة ، و سبب منشئها فنحن لا نستطيع التقليل أبداً من دورها في نشأة الحركة الإِسْلاميّة ، و فيما بعد في قيام الدّوْلَة الإِسْلاميّة ، فسلامة مُحَمَّدٍ أثناء فترة الدعوة المَكّيّة تعود إلى أنّ عَصَبِيّته دافعت عنه ، و بالرَّغْمِ مِنْ وجود من لا يوافق على عقيدته من أفراد أسرته ، لا بل إنّ أبا لهبٍ الَّذِي ندّد به القرآن بشدة بسبب ما كان يُعَرف عنه عداؤه الحاد لِمُحَمّدٍ ضرب ابن الغيطلةَ لأنّه تعرّض لابن أخيه ـ مُحمّدٍ ـ بعد موت أبي طالب ، الَّذِي كان يحمي مُحَمَّداً ، و أعلن أبو لهب سببَ ضربه ابنَ الغيطلةِ واجبه الدفاع عن ابن أخيه ، و منع الضيم عنه ، و ليس إقراراً بالإِسْلام ، ثمّ توجه إثْر ذلك إلى ابن أخيه ، وقال له : ((يا محمّد امضِ لما أردت و ما كنتَ صانعاً إذا كان أبو طالب حيّاً فاصنعه ، لا واللاّت لا يوصل إليك حَتَّى أموت !)) ،[٩] و يمكن ملاحظة أنّ حمزةَ أعلن إِسْلامه جرّاء حادثٍ مشابه . و هذا ما دعا ابن خَلْدُون لملاحظة أنّ من شروط النّبُوّة هو أنْ يكون النّبِيّ

---

[٨] تاريخ الطبري : ٢ / ٢٧٧ ؛ الكامل : ٢ / ٣٦٢ .
[٩] ابن سعد : ١ / ٢١١ .

في مَنَعَةٍ في قَوْمِهِ ، و تمتعه بعَصَبِيّة تحميه على الرَّغْمِ مِنْ تأييد اللَّه لـه ؛[١٠] فاللّه يهيئ الحِمايَة لأنبيائه من بيئتهم ، و في شروط الجَزِيْرة العَرَبِيّة حمايَة اللّه لنبيّه تكون بالعَصَبِيّة ذات الشوكة.

أمّا فيما يتعلق بدورها في نشأة الدّوْلَة الإِسْلاميّة ، فيعود إلى أنّ صدام العَصَبِيّات كان يهدّد بتقويض الدّوْلَة الناشئة ، و لهذا فإنّ حركة الفتح ، أو التوسّع خارج الجَزِيْرة العَرَبِيّة كانت تهدف لخلق عَصَبِيّة كبرى ، عبر خلق الأسس الضروريّة لها ، و دورها الهام هو أنّ التناقض الحاد بين عَصَبِيّات الجَزِيْرة العَرَبِيّة خلق هذه الحركة التَّارِيْخية التوسعيّة الكبرى . وقد وصف ابن خَلْدُون ظاهريّة هذه السيرورة ، برؤيته أنّ كلَّ حيٍّ أو بطن يشتمل على نسبٍ عام ، و في داخل هذا النسبِ تتواجد عَصَبِيّات أخرى (مثل عَشِيرٍ واحدٍ ، أو أهل بيتٍ واحدٍ، أو إخوة بني أبٍ واحدٍ) ، و هو ما أطلق عليه تسمية **النسب المخصوص** ، و الرِّئاسَة تكون في عَصَبِيّة واحدة من النسب العام ؛ و العَصَبِيّة الَّتِي تتولى الرّئاسَة تكون أقوى العصائب ، و هي تنتقل من فرع إلى فرع على أساس القوة ، ثُمّ إنّ الرّئاسة تتحول إلى مُلْكٍ بعد أن يبلغ صاحب العَصَبِيّة السُّؤْدَدِ و الأَتْباع ، و هذا عبر التحام عَصَبِيّات القبيلة الواحدة في عَصَبِيّة كبرى ، مما يساعد على تجاوز الاختلاف و التنازع الداخليّ . و تستمر العَصَبِيّة في هذا المسار إلى أنْ تتصادم مع العَصَبِيّات الأبعد ثم الأبعد عنها ، و تسيطر عليها ، و في ختام هذه الحركة تبلغ العَصَبِيّة ذات الشوكة مستوى الدّوْلَة .[١١]

هذا هو الوصف الظاهراتي الخَلْدُونيّ لدور العَصَبِيّة في نشأة الدّوْلَة الإِسْلاميّة ، والَّذِي قُبض فيه جيداً على الحركة الظاهريةّ لِسيرورة تكوّن دولة الإِسْلام الأولى ، كما التقط جانباً فعالاً في دفع هذه السيرورة قدماً أيضاً ، و ذلك عندما عيّن الشرط الَّذِي يسمح للعَصَبِيّة بلعب دورها التَّارِيْخي ، و هي تنحصر في أنْ يكون النّاس أحراراً من كلِّ سُلْطَة خارجيّة ، سواءٌ كانت سُلْطَة الدّوْلَة أو سُلْطَة عَصَبِيّةٍ مستبدةٍ ،[١٢] أيْ المجتمع المتحرر من سُلْطَة الدّوْلَة ، و هو المجتمع الَّذي تسيطر عليه النزعة اللَّقاحية .

---

[١٠] المقدمة : ١ / ١٠٢ ، ١٦٩ .
[١١] المقدمة : ١ / ١٤٠ ، ١٤٨ ـ ١٤٩ .
[١٢] فِكْرُ ابن خَلْدُون ، ٢٨٠ .

إنّ قيام الدّوْلَة الإسْلاميّة ارتبط بتطوّر و بتبلور المُلْكِيَّة الخاصة في الجَزِيْرة العَرَبِيّة ؛ و لهذا تأسَّست الدّوْلَة الإسْلاميّة على أرضيّة التجمعات الأكثر حضارةً في الحِجَاز (مكّة ، يثرب ، الطائف) ، و الَّتِي كانت تعيش مرحلة تجاوز العلاقات الاقتصاديّة القديمة ، بعدما نَمَتْ ثرواتها بشكلٍ كبيرٍ ، لاسيّما ثروات القرشيّين . و قد دفعت هذه التجمعات بسيرورة تكون الدّوْلَة قدماً . و كانت لعَصَبِيّة قريشٍ نصيب الأسدِ في نشأة الدّوْلَة الإسْلاميّة ، حَتَّى بدا للبعض أنّ الدّوْلَة الإسْلاميّةَ هي دولةُ قريشٍ .[١٣] لكنّ الواقع هو أنّ الدّوْلَة الإسْلاميّة ارتكزت على العَصَبِيّة القرشية ، فكانت قريشٌ مجردَ الأداةِ التَّارِيْخيةِ و حسب ، و قيام الزّعامة القرشيّة بإدارة شئونها لا يعني أنّ الدّوْلَة لها ؛ فالدّوْلَة هي منظمة سِيَاسِيّة في المجتمع ذي المصالح المتضادة ، و هي تأخذ شكلَ هيئةٍ سِيَاسِيّةٍ لأجل القيام بالشئون العامة الناجمة عن طبيعة كلِّ مجتمع ، و هذه الضَّرُوْرَة هي الَّتِي تقرر ظهور الدّوْلَة بوصفها وحدة سِيَاسِيّة تشمل جميع الوحدات الاجتماعيّة (البدو ، الحضر ، الطبقات الخ) . و في الوقت نفسه يؤمّن كيانُ الدّوْلَة القيادة السِيَاسِيّة ، كقاعدة لأقوى وحدة على الصعيد الاقتصاديّ ، و هذه الوحدة تستغل السُلْطَة السِيَاسِيّة الَّتِي تستولي عليها لأجل تعزيز و ترسيخ مواقعها باطراد . و لهذا قادت قريشٌ سيرورة نشوء الدّوْلَة الإسْلاميّة و قامت بدورٍ محوريٍ في هذه العمليّة بحكم زعامتها الاقتصاديّة و الدينيّة في الجَزِيْرة العَرَبِيّة قبل ظهور الإسْلام ؛ فتراءى أنّ الدّوْلَة الناشئةَ هي دولةُ قريشٍ . و قد تطوّرت الأرستقراطيّة القرشيّة نحو الأرستقراطية الإسْلاميّة على أساس عوامل قوتها ، و قَنّنَ الصحابة المهاجرون هيمنةَ قريشٍ سِيَاسِيّاً اعتماداً على حديثٍ نَبَوِيّ يحصر الخِلافَة في قريشٍ ، أيْ : استناداً إلى قاعدة دينيّة جعلت عَصَبِيّةَ قريشٍ عَصَبِيّةً قائدةً للدولةِ الإسْلاميّة .

كانت ثمّة مشكلتان تجابهان القيادة الإسْلامِيّة بعد معركة حَضْرمَوْت ـ دَبا ؛ أولاهما ، تحشيد القبائل العَرَبِيَّة في الجَزِيْرَة العَرَبِيّة خلف قيادتها ؛ و ثانيتهما ، السيطرة على النزعة العَصَبِيَّة ، كان كلُّ عاملٍ بمفرده كفيلاً بتقويض الإنجازات

---

[١٣] قُرَيْشٌ : من القبيلة ، ١٤ .

المحققة ؛ فرأت القيادة أنّ من الضروري متابعة **حروب الردة** ، و كانت هذه الضَّرُوْرَة تبحث عن منافذ لها .

إنّ الضَّرُوْرَة تتحقق في أحيان كثيرة عبر الصّدْفَة ؛ فالحركة التَّارِيْخية هي تركيب جدليّ للضَّرُوْرَة و الصّدْفَة ، و لا يمكن في دراسة التَّارِيْخ فصلهما عن بعضهما بعضاً ، حيث إنّ الصّدْفَة التَّارِيْخية هي تقاطع سلاسل العلاقات السَّبَبِيَّة المستقلّة عن بعضها البعض ، فتصبح الصّدْفَة امتداداً للضَّرُوْرَة ، و شكلاً يتجلى فيه لا العامل السببيّ المفرد ، و حسب ، بل جملة العوامل السَّبَبِيَّة الَّتِي تصنع الحدث التَّارِيْخي ، فكما مر معنا سابقاً لعبت الصّدْفَة التَّارِيْخية دورها في وصول يثربَ إلى مُحَمَّدٍ ، الَّذِي كان يبحث عن الحلفاء ، و الصّدْفَة الَّتِي جرت هنا كانت لحظة تقاطعت فيها ظروف يثرب الاجتماسيّة ، و ظروف الدعوة الإسْلاميّة في مكّة . كما نجد أنّ الصّدْفَة قابعة في عملية اغتيال الأسود العَنْسيّ ، إذ كان الدور الأبرز في العملية دور آذاد ، و الَّذِي كان حاسماً في إنجاح العمليّة ، و نحن نجد أنّ مُحَمَّداً كان قد تزوّج صَفِيَّة بنت حُيَيّ بن أخطب ـ أحد زعماء خيبر ـ بعيد أسرها ؛ و مع ذلك نجى من عواقب هذا الزّواج ، و التدقيق في الأمر يظهر لنا أنّ عدم تعرضه لمحاولة اغتيال مشابهة يعود لعوامل الصّدْفَة التَّارِيْخية ، الَّتِي أنقذته من العواقب الممكنة ، إذ كان يمكن لصَفِيَّةَ أنْ تلعب دور آذاد لو وجدت خليّة متآمرة داخل قيادته قررت استثمار نقطة الضعف هذه في حياة مُحَمَّدٍ ؛ فالسبب الداخليّ كان قائماً ، بينا كانت العوامل الخارجيّة غائبةً . بمعنى أنْ نجاح اغتيال العَنْسيّ و السيطرة على تمرده يعود لالتقاء عوامل سببيّة (صراع في القيادة على السُلْطَة ، و زوجة ناقمة ، رفض الأبناء للتنازل عن وضعهم المميز ، حاجة المسلمين لمنافذ يعبرون منها إلى اليمن) .

إذاً ، تملك الصّدْفَة دوراً ملموساً في حركة التَّارِيْخ ، و يجب عدم التقليل منها ، إنّما في إطار تقاطع العوامل السَّبَبِيَّة . و من هنا فإنّ دراسة العوامل السَّبَبِيَّة هي الَّتِي تقودنا لاكتشاف الصّدْفَة ، و تحديد نقطتها في إحداثيات العوامل السَّبَبِيَّة أو في مخطط الحركة التَّارِيْخية ؛ مما يعني أنّه كان يمكن أن تؤدي العوامل السَّبَبِيَّة إلى نتيجة مغايرة لو كان التقاء العوامل السَّبَبِيَّة (الصّدْفَة) قد حدث في نقطة مغايرة ، و من هنا فنتائج التَّارِيْخ و إن كنا ننظر إليها كنتائج ضرورية تنبع من الظروف

الموضوعية ، لكنها ليست نتائجَ حتميّةً ، لم يكن بالإمكان أن تجري إلاّ كما جرت ، أو مُقدرة وفق جبريّة إلهية أو تاريخيّة .

عندما سلطنا الضوء على يثرب عشية اجتماع السَّقِيْفَة ، أردنا أن نميط اللثام عن العامل الحافز لهذه الحركة التَّارِيْخية ، و دون أنْ نجعله عاملاً وحيداً في نجاح هذه الحركة الَّتِي كسحت الجَزِيْرة العَرَبِيّة ، كما حاولنا أنْ نبين قدر الإمكان العوامل الخاصة لكلِّ منطقةٍ ، الَّتِي ساعدت الحركة الإِسْلاَميّة على تحقيق انتصاراتها . و عندما كنا نتحدث عن عاملٍ سببيٍّ، كنا نفهم أنّ السبب ليس حدثاً لحظيّاً ، بل هو سيرورة ، أو جملة عمليات أدت لتكوين هذا العامل المسبب أو ذاك ، مثلما كان الأمر في عوامل نجاح أَبِي بَكْر ، حيث لاحظنا أن العامل السببي في التَّارِيْخ هو جملة أحداث ، و ظروف ، أو حركة مستطيلة من الزمان الماضي حتّى اللَّحظة الَّتِي تجسّد السببُ فيها نتيجةً .

لعبت الصّدْفَة التَّارِيْخية ـ حسب مفهومنا ـ دوراً كبيراً في علاج إشكاليّة توحيد القبائل ، و السيطرة على العَصَبِيَّة في الجَزِيْرة العَرَبِيّة عندما قدمت الظروف الجغراسيّة فرصةً للخروج من الجزيرة العَرَبيّة لمعالجة الوَضْع الدقيق الحساس ؛ و تمثلت هذه الصّدْفَة بحالة الإمبراطوريتيْن الفارسيّة و البيزنطيّة ، ففي القرن السابع الميلاديّ كان النصف الغربيّ للإمبراطوريّة الرومانيّة مع الثّقافة الَّتِي تمثلها قد انهار منذ مئتيْ عام تحت ضربات الأقوام الجرمانيّة ، و بقي نصفها الشرقي قائماً ، مع ثقافته الَّتِي اصطبغت بصبغة يونانيّة .[١٤] كما كانت الدّوْلَة الفارسيّة و البيزنطيّة قد بلغت سن الشيخوخة الحضاريّة ، و أصبح عسيراً عليهما نجدة جبهاتهما بسبب من المسافات الشاسعة . و في حالة جبهة الجَزِيْرة العَرَبِيّة ، فإنّهما لم تتوقعا صدور حملة عسكريّة خطيرة منها ؛ و لهذا لم تستقر في هذه الجبهة حامية بمعناها المعروف حَتَّى ذلك العهد . إضافة إلى ذلك كان أهالي هذه البلاد محجمين عن المشاركة في القتال ، و ذلك : أولاً ، بسبب من عدم اندماج الساميّين ، و الأقباط بالدّوْلَة البيزنطيّة ؛ ثانياً ، قسوة بيت المال في جبي الضرائب و حقد الناس على كبار الملاكين ، و كانوا جميعاً من أصل يوناني أو ممن اصطبغوا بصبغة يونانية .

---

[١٤] تاريخ العرب و الشعوب الإسلامية ، كلود كاهن ، ت : د. بدر الدين القاسم ، دار الحقيقة ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ، ص ٥ .

كل هذا كان من شأنه أن يدعم حركات استقلاليّة سرعان ما أخذت أشكالاً دينيّة ، فقد آمن الآراميون و الأنباط **بمشيئة واحدة** للمسيح فاضطهدتهم الكنيسة البيزنطيّة الرسميّة أو ناوأتهم. أما النساطرة فقد خرجوا من بلادهم و لاذوا بآل ساسان .[١٥]

لم يكن هذا هو حال بيزنطة و حسب ، بل حال الدولتيْن العظميْن آنذاك ، و قد تقاطع عامل ضعف فارس و بيزنطة مع حاجة الحركة الإسْلاميّة للخروج من الجَزِيْرة العَرَبيّة ، و قد جاءت أَبَا بَكْر الفرصة ، و ذلك عندما ازدادت حدة الاشتباكات بين المُثَنَّى بن حارثة الشيبانيّ ، و بين الفرس في جنوب العراق ؛ و بهذا اجتمعت سلسلة عوامل ضروريّة تفرض على المسلمين الخروج من الجَزِيْرة العَرَبيّة ، فكمنت مهارة أَبِي بَكْر كفاعلٍ كبيرٍ في الحركة التَّارِيْخية في أنّه فهم هذه الضَّرُوْرَة الداخليّة في الجَزِيْرة العَرَبيّة ، و قبض على لَحظة الصّدْفَة هذه بعدما كشف المُثَنَّى له عن حالة الضعف في فارس ، فمكّنه فهمه لها من خلقِ تحالفٍ بين المنتصر و المهزوم ، ليكون الطرفان منتصرين عندما يتوحدان ضد الآخر ، و يشتركان بتقاسم الغنائم مع البدء بالغزوات الخارجيّة (الفتح) . و من هنا فنحن و إنْ كنا نبحث عن العوامل الموضوعيّة في التَّارِيْخ ، إلاّ أنّنا لا نقلّل أبداً من العامل البشريّ فيه ، إذ أنّه العامل الوحيد المتغيّر ، و العامل البشريّ هو الَّذِي يجعل الدراسات الاجتماعيّة تفشل بالتنبؤ بمصائر المجتمعات .

لقد تمكنت القيادة الإسْلاميّة من فهم الأوضاع الموجودة جيداً ، و انعكست فعاليّة شخصيّاتها في إدراكهم لتلك الضرورات و تمكّنهم من فهم متطلبات مرحلتهم ، و لو كان أَبُو بَكْر عاجزاً عن قراءة سير الأحداث لكانت ضاعت الفرصة ، فالانتصارات التَّارِيْخية لا تولد من الظروف الموضوعيّة و حسب ، بل تحتاج للعامل المحرك ، و القيادي ، للقابلَة الَّتِي تساعد الجنين على الولادة . إنّ كل ضرورة تتضمن مجموعة معينة من الممكنات ، و لا تتحقق الضَّرُوْرَة على أساس العامل الداخليّ لها ، بل إن قراءتها ، و فهم مسارها ، و تقدير الممكنات الأخرى هي الّتِي تكشف عبقريّة الشخصيات التَّارِيْخية ، الَّتِي تتمتع بقدرة على التحرك في الظروف المُعْطَاة ، و يظهر قوة الإرادة عندها ؛ و قد كانت قيادةُ الحركةِ الإسْلاميّةِ برئاسة أَبِي بَكْر قادرةً تماماً على تفعيل دورها في التَّارِيْخ ، و اغتنام الفرصة الَّتِي قدمها المُثَنَّى

---

[١٥] كاهن ، ١٨ .

بن حارثةَ الشيبانيّ للخروج من الجزيرة العربيّة ؛ فمن هو مُثَنَّانَا الذي فتح الطريق إلى العراقِ ؟

التّوجه صوب العراقِ

لا نعرف متى جاءت القبائل العربية العراق ، لكن المصادر التاريخية تخبرنا بأنّ ربيعة ـ و كانت فيهم بنو شيبان ـ و صلت العراقَ هرباً من قحط أصابهم بالجَزِيْرة العَرَبِيّة. و بعيد وصولهم التزم الطرفان ـ الفارسيّ ، و العَرَبيّ ـ سياسة سلمية بينهما ، ثُمّ إنّ الصّراع نشب بينهما نتيجةً للوفرة الماديّة الّتِي كانت بأيدي الفرس ، فشرع المُثَنَّى يغير على السكان الفرس ، الّذِين كانوا يسكنون المنطقة التي بُنيت عليها لاحقاً الكوفة و ما حولها ، فألحقت غاراته بهم أضراراً فادحة ؛ و ربما كان المُثَنَّى يرتكز في هجماته على قاعدة تاريخيّة، فشيبان ـ قبيلة المُثَنَّى ـ هي الّتِي ألحقت الهزيمة المنكرة بالفرس في معركة ذي قار .[١٦]

بلغت أخبار المُثَنَّى أَبَا بَكْر ، فسأل عنه ،[١٧] ثُمّ تبنّى توجهات المُثَنَّى بسبب من حاجته لجبهة خارج الجَزِيْرة العَرَبِيّة ، فأجرى اتصالات معه ، و أقرّ زعامته على قومه ، و أمره بقتال الفرس باسم الإِسْلامِ . فحافظ المُثَنَّى على سير عملياته سنةً ، و بعد ذلك قام بتوسيع جبهته عندما طلب من سويد بن قطنة [١٨] ـ ابن عمه ـ ، قيادة قوات للقيام بغارات على المنطقة التي ستبنى عليها مدينة البصرة ، و الأُبُلَّة ، و ما حولهما ، و كان الفرس المتضررين الرئيسيّين من غاراته ؛ و لوقف عمليات المُثَنَّى ، و ابن عمه حشد الفرس قوات عسكريّة ، فشددوا الخناق عليهما ، حَتَّى كادوا أنْ يطردوا العربَ من العراقِ ، عندها قرر أَبُو بَكْر تقديم العون لعربِ العراقِ ؛ لأنّه لم يكن ليقبل هجرة معاكسة نحو الجَزِيْرة العَرَبِيّة ، بل على العكس كان يحتاج لمُتَنَفَّسٍ لسكانها ، فطلب من خالد ، الَّذِي كان مقيماً بالْيَمَامَة منذ انتصاره على مُسَيْلِمةَ ، التوجه إلى العراقِ ، على أن تكون الأبُلَّة وجهته الأوّلى ، و تقول الروايات إنّ عُمَرَ بن الخطاب هو من اقترح على أَبِي بَكْر توليته قيادة الجيش المتجه نحو

---

[١٦] كتابُ الرَّدة ، ٣٢٢ ؛ شوفاني ، ٢١٣ .
[١٧] كتابُ الرَّدة ، ٣٢٣ ؛ فُتُوح البُلدَان ، ٢٤٢ ؛ أُسد الغابة : ٤ / ٢٦٦ .
[١٨] في بعض المراجع " سويد بن قطبة " ، و أخرى " قطنة بن قتادة " .

العراقِ ؛ و عندما وصلت رسالة أَبي بَكْر مع أبي سَعِيدِ الخدري ، قال خالد : « يا أبا سَعِيد ، هذا الرأيِ ليس من رأي أَبِي بَكْر ، أنْ يحوّلني إلى العراق » .[١٩] و تضيف بعض الروايات ، أنّ خالداً قدم المدينة أولاً ، ، ثُمّ توجه منها صوب العراق .[٢٠] و من جهة أخرى كتبَ الخليفةُ إلى المُثَنَّى بن حارثةَ ، يخبره بقدوم خالد ، و يطلب منه العمل تحت قيادته ما دام في العراق.

مع هذه التحرّك خارج بلاد العربِ ، بدأت الحركة الإِسلاميّة تكتب فصلاً جديداً في صفحات كتاب قيام الدولة الإِسْلاميّة بعنوان **" الفتح "** .

---

[١٩] كتابُ الرَّدة ، ٣٢٤ ، ٣٢٧ ؛ تاريخ الطبري : ٢ / ٣٠٧ ، ١٢ هـ ؛ تاريخ الخلفاء ، ٩٧ . و سيكرر خالدٌ هذا الاتهام لعُمَرَ ، فعندما يقرر أَبُو بَكْر توجيه خالد بن الوليد إلى الشّام من العراقِ ، فإنّ خالداً سيقول : « هذا عمر بن الخطّاب حَسَدَني أن يكون فتحُ العراق على يدي » (ابن سعد : ٧ / ٣٩٧) .

[٢٠] تاريخ الطبري : ٢ / ٣٠٧ ؛ الكامل : ٢ / ٣٨٤ .

[Blank Page]

الفهرس

المُقَدّمَة	٩
سنوات مُحَمّدٍ الأخيرة	١٥
الرحيل وردود الفعل	٥٩
اجتماع السَّقِيْفة	٦٧
عوامل نجاح أبِي بَكْر	٧٧
أصداء البَيْعَة والوضع العام	١١٣
المَوْقِفُ العامّ و المُهِمّات الأولى	١٢٣
أبُو بَكْرٍ خليفة	١٣٧
ما بعد السَّيْطَرَة على الجَزِيْرَةِ العَرَبِيَّةِ	٢٠٥
المراجع	٢٢٣

[Blank Page]

المراجع باللغة العربية

١ ـ أبو بكر الصّديق : أوّل الخلفاء الراشدين ، محمّد رضا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .
٢ ـ أخبارُ مكّة ، و ما جاء فيها من الآثار ، أبي الوليد محمد بن عبد اللَّه بن أحمد الأزرقي، تحقيق : رشدي الصالح ملحس ، دار الثقافة ، مكة ، ط ٦ ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ .
٣ ـ أُسد الغابة في معرفة الصحابة ، عز الدين بن الأثير ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان، ١٩٩٣ ـ ١٩٩٥ م .
٤ ـ الإمامة و السياسة ، أبي محمد بن عبد اللَّه بن مسلم ، ابن قتيبة (ت ٢٧٠ هـ) ، مطبعة الأمة ، القاهرة ، ١٣٢٨ هـ .
٥ ـ الأمير ، نيقولا مكيافللي ، ت : خيري حمَّاد ، منشورات دار الآفاق ، بيروت ، ط ٢٢ ، ١٩٩٩ م .
٦ ـ أيام العرب في الإسلام ، محمّد أبو الفضل إبراهيم ، علي محمّد البجاووي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩١ م .
٧ ـ البداية و النهاية ، إسماعيل بن عمر بن كثير ، CD .
٨ ـ بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، محمود شكري الألوسي البغدادي ، منشورات أمين دَمَج ، و دار الشرق العربي ، بيروت ، د. ت .
٩ ـ بُنى المقدَّس عند العرب ـ قبل الإسلام و بعده ، يُوسف شُلْحُد ، ت : خليل أحمد خليل ، دار الطليعة ، بيروت ، حزيران (يونيو) ، ١٩٩٦ م .
١٠ ـ البَيان و تَبْيين (ال) ، أبي عُثمان عَمْرو بن بَحر الجَاحِظ (ت ٢٥٥ هـ) ، تحقيق : د. دَرويش جوَيْدي ، المكتبة العَصْريَّة ، صَيدا ـ بَيروت ، ط ١ ، ١٤٢٠ / ١٩٩٩ م .
١١ ـ تاريخ ابن خَلْدُون ، دار البيان د. ت. ، و مكان الطبع

١٢ ـ تاريخ الإسْلام السيّاسيّ و الثّقافيّ و الاجتماعيّ ، د. حسن إبراهيم حسن ، دار الجيل ، بيروت / مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ١٤ ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م .
١٣ ـ تاريخ الأمم و الملوك (تاريخ الطبري) ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ / ٢٢٥ ـ ٣١٠ هـ) ، دار الكتب العلمية ـ لبنان .
١٤ ـ تاريخ الخلفاء ، جلال الدّين السّيُوطي ، تحقيق : إبراهيم صالح ، دار البشائر، دمشق، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م .
١٥ ـ تاريخ الشعوب الإسلامية ، كارل بروكلمان ، ترجمة : نبيه أمين فارس ، منير البعلبكيّ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ١٢ ، آذار (مارس) ١٩٩٣ .
١٦ ـ تاريخ العرب و الشعوب الإسلامية ، كلود كاهن / ت : د. بدر الدين القاسم ، دار الحقيقة ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .
١٧ ـ تفسير ابن كثير ، قرآن الكريم ، الإصدار السابع CD .
١٨ ـ تفسير البغوي ، الحسين بن مسعود الفراء البغوي (ت ٥١٦ هـ) ، CD .
١٩ ـ تفسير البيضاوي ، عبد الله بن عمر الشيرازي (ت ٧٩١ هـ) ، CD .
٢٠ ـ تفسير الطبري ، قرآن الكريم ، الإصدار السابع CD .
٢١ ـ تفسير القرطبي ، قرآن الكريم ، الإصدار السابع CD .
٢٢ ـ حروب الرَّدة (دراسة نقدية في المصادر) ، د. الياس شوفاني ، دار الكنوز الأدبية ، بيروت ، ١٩٩٥ .
٢٣ ـ حروب دولة الرّسول (بَدر ـ أُحُد) ، سيّد محمود القمني ، سينا للنشر ، القاهرة، ١٩٩٣ م .
٢٤ ـ دثّريني ... يا خديجة ـ دراسة تحليلية لشخصية خديجة بنت خويلد ، د. سلوى بالحاج صالح ـ العايب ، دار الطليعة ، بيروت ، آذار (مارس) ، ١٩٩٩ م .
٢٥ ـ ديوان حسّان بن ثابت ، تحقيق و تعليق : د. وليد عرفات ، دار صادر ، بيروت، ١٩٧٤ .
٢٦ ـ ديوان عُبيد الله بن قيس الرقيّات ، تحقيق : د. محمّد يوسف نجم ، دار صادر ، بيروت ، د. ت .

٢٧ ـ رسالة الغفران ، أبو العَلاءِ المَعَرِّي (٣٦٣ ـ ٤٤٩ هـ / ٩٧٣ ـ ١٠٥٧ م)، دار صادر ، بيروت ، د ت .
٢٨ ـ سنن أبي داود ، موسوعة الحديث الشّريف ، الإصدار الثاني ، CD .
٢٩ ـ سنن ابن ماجه ، موسوعة الحديث الشّريف ، الإصدار الثاني ، CD .
٣٠ ـ سنن النّسائي ، موسوعة الحديث الشّريف ، الإصدار الثاني ، CD .
٣١ ـ سيرة ابن إسحاق ، محمد بن إسحاق بن يسار (٨٥ ـ ١٥٠ هـ) ، CD .
٣٢ ـ سيرة ابن كثير ، ابن كثير (٧٠١ ـ ٧٧٤ هـ / ١٣٠١ ـ ١٣٧٣ م) ، CD.
٣٣ ـ السيرة النّبوية ، ابن هشام (ت : ٢١٣ هـ ، أو ٢١٨ هـ) تحقيق : مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري ، عبد الحفيظ شلبي ، دار ابن كثير ، د. ت. ، دمشق ـ بيروت .
٣٤ ـ شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد ، دار إحياء التراث العربي ، لبنان ، بيروت ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م .
٣٥ ـ الشيخان ، طه حسين ، دار المعارف ، مصر ، ط ٨ ، ١٩٨٦ .
٣٦ ـ صحيح البخاري ، موسوعة الحديث الشّريف ، الإصدار الثاني ، CD .
٣٧ ـ صحيح مسلم ، موسوعة الحديث الشّريف ، الإصدار الثاني ، CD .
٣٨ ـ الصّدّيق أبو بكر ، محمد حسين هيكل ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ١١ ، ١٩٩٠ م .
٣٩ ـ الطبقات الكبرى ، ابن سعد (١٦٨ ـ ٢٢٠) ، دار صادر ، بيروت ، ١٤٢٨ هـ / ١٩٩٨ م .
٤٠ ـ العَقْدُ الاجتماعي أو مَبادئُ الحُقوق السياسِيَّة ، جان جَاك رُوسُّو ، ت عادل زُعَيْتِر، دار المعارف ، مصر ، ١٩٥٤ م .
٤١ ـ عُيُون الأثر في فنون المغازي و الشمائِل و السِير ، فتح الدين أبو الفتح محمّد بن سيّد الناس (٦٧١ ـ ٧٣٤ هـ) ، شرح و تعليق : الشيخ إبراهيم محمد رمضان ، دار القلم، بيروت ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م .

٤٢ ـ فُتُوح البُلدَان ، أبي الحسن البلاذري (ت ٢٧٩ هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩١ م .
٤٣ ـ فِرَق الشيْعَة ، أبي محمد الحسن بن موسى النوبختي ، تحقيق هـ . ريتر Hellmut Ritter ، استانبول ، مطبعة الدولة ١٩٣١ . و المؤلف من متكلمي الشيعة الإمامية نهاية ق ٣ ـ بداية ق ٤ هـ .
٤٤ ـ فصول عن المرأة ، هادي العلوي ، دار الكنوز الأدبية ، بيروت ، ١٩٩٦ م .
٤٥ ـ فصول من تاريخ الإسلام السياسي ، هادي العلوي ، مركز الأبحاث و الدراسات الاشتراكية في العالم العربي ، نيقوسيا ، قبرص ، ١٩٩٥ .
٤٦ ـ فِكْرُ ابن خَلْدُون : العصبية و الدولة (مَعَالِم نظريَّةٍ خَلْدُونيَّةٍ في التاريخ الإسلامي)، د. محمد عابد الجابري ، دار الطليعَة ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٨٣ م .
٤٧ ـ قريش : من القبيلة إلى الدولة المركزية ، خليل عبد الكريم ، سينا للنشر ، القاهرة ، ١٩٩٣ م .
٤٨ ـ الكامل في التاريخ ، ابن الأثير (٥٥٥ ـ ٦٣٠ هـ / ١١٦٠ ـ ١٢٣٢ م) ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .
٤٩ ـ كتابُ الرَّدة ، أبي عبد اللَّه محمد بن عمر الوَاقدي (ت : ٢٠٧ هـ / ٧٤٧ ـ ٨٢٣ م) ، قدم له و حققه و علق عليه و وضع فهارسه : د. محمود عبد اللَّه أبو الخير ، دار الفرقان، عمّان الأردنّ ، د ت .
٥٠ ـ لسان العرب ، ابن منظور ، CD .
٥١ ـ محمّد في المدينَة ، مونتجومري وَات ، ترجمة : شعبان بَركات ، منشورات المكتبة العصريّة ـ صَيْدا ـ بيروت ـ د. ت.
٥٢ ـ مُروُج الذّهَب و مَعَادِن الجَوْهَر ـ أبي الحسن علي بن الحسين المسعودي (٣٤٥ ـ ٣٤٦ هـ / ٩٥٦ م ؟) ، تحقيق : سعيد محمّد اللحّام ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م .
٥٣ ـ مسند أحمد ، موسوعة الحديث الشّريف ، الإصدار الثاني ، CD .
٥٤ ـ مُطارحات مكيافلي ، نيقولا مكيافلي ، ت : خيري حمَّاد ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط ٣ ، شباط (فبراير) ، ١٩٨٢ .
٥٥ ـ معجم البلدان ، ياقوت الحموي (CD) .
٥٦ ـ معجم الرّائد ، جبران مسعود ، سلسلة المعلوماتية للجميع ، الجزء ١ ، CD .

٥٧ ـ مقالات الإسلاميين ، أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (ت ٣٣٠ هـ)، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الحداثة ، ط ٢ ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .
٥٨ ـ المقدس و الدينوي ، مرسيا إلياد ، ترجمة : نهاد خياطة ، دار العربي ، دمشق ، ١٩٨٧ .
٥٩ ـ مُقَدّمة ابن خَلْدُون ، تصحيح و فهرسة : أبو عبد الله السّعيد المَندوُه ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ؛ و المكتبة التجارية ، مكة ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م .
٦٠ ـ ملامح من الأسطورة ، ميرسيا ايلياد ، ت : حسيب كاسوحة ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٩٥ .
٦١ ـ المِلَل و النّحل ، أبو الفتح الشَّهرستاني (٤٧٩ ـ ٥٤٨ هـ / ١٠٨٦ ـ ١١٥٣ م) ، منشورات دار دانية ، دمشق ـ بيروت ، ط١ ، ١٩٩٠ م .
٦٢ ـ موطأ مالك ، موسوعة الحديث الشّريف ، الإصدار الثاني ، CD .

Foreign Sources

1 – The Art Of War , Sun Tzu, trans., Lionel Giles, 1910, Library of future, 4th edition, ver. 5.0, Historical Document.

2 - Islam: A Historical Survey , H. A. R. Gibb, London, 3rd impression 1978.

3 - Muslim Institutions , Maurice Gaudefroy- Demombynes, translated from the French by: John P. Macgregor, London, 2nd, 1954.

٤ ـ كتاب حول القرآن ـ منشئه و أساطيره ، ل. إ. كليموفيتش ، موسكو ، دار الأدب السياسي ، ١٩٨٨ .